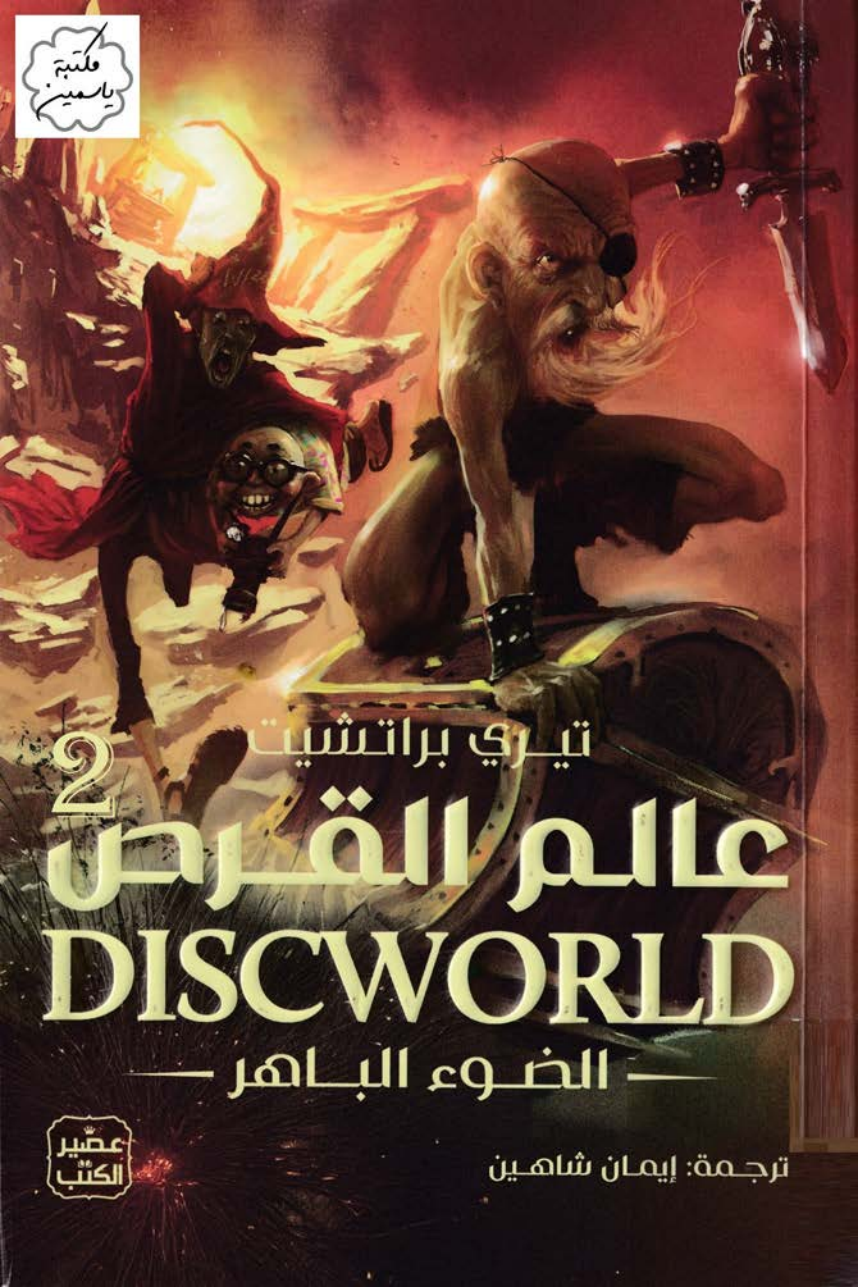


مكتبة
ياسمين



تیری برانشیت

2

عالم القرص

DISCWORLD

— الضوء الباهر —

عصير
الكتب

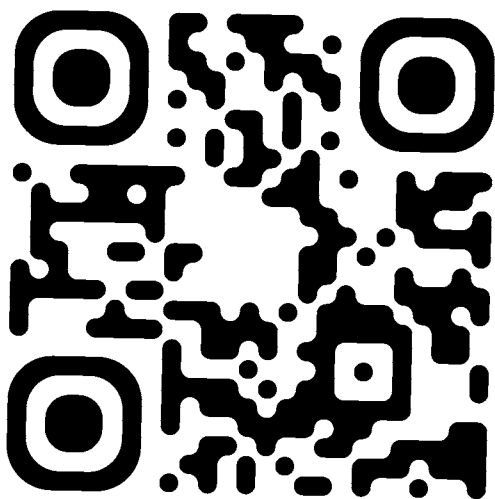
ترجمة: إيمان شاهين

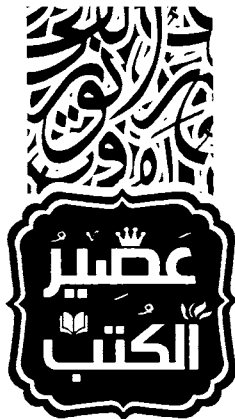
2 عالم القرص DISCWORLD — الضوء الباهر —

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم تكبر ونستمر بكل جديد





telegram @
yasmeenbook

● تأليف: تيري براتشيت

● ترجمة: إيمان شاهين

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: كارم أحمد

● تنسيق داخلي: معتر حسنين علي

● الطبعة الأولى: يناير/2025م

● رقم الإيداع: 26392/2024م

● الترقيم الدولي: 4-443-992-977-978

● العنوان الأصلي: The Light Fantastic

● العنوان العربي: الضوء الباهر

● حقوق النشر:

Copyright © Terry Pratchett 1986

Discworld® is a trade mark registered by Terry Pratchett

The right of Terry Pratchett to be identified as the author of this work has been asserted by him in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

First published in Great Britain in 1986 by Colin Smythe Ltd

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب



تيري براتشيت

عالم القرص

DISCWORLD

— الضوء الباهر —

ترجمة: إيمان شاهين





telegram @
yasmeenbook

أشرفتِ الشمس ببطء، كأنها في إشراقها على غير يقين من جدوى
عناء هذا الشروق.

فبشروقتها قد بزغ فجر يومٍ آخر في عالم القرص، غير أنه بزغ في
تدرُّج، وإليكم السبب.

لَمَّا لاقى الضوء حقلًا سحريًا قويًا فقد كل سرعته وحسّه بالعجلة،
فأبطأ من انطلاقه كُليَّة. إذ إنه في عالم القرص كان السحر قويًا إلى
حد يثير الارتباك، ما معناه أن ضوء الفجر الأصفر الناعم قد انساب
فوق المشهد الطبيعي الراقد كعناق حبيب نبيل، أو كما سيراه البعض
الأخر، مثل الشراب الذهبي. وقد توقف الضوء حتى يغمر الأودية، وتجمّع
على سلاسل الجبال وتركّز عليها. ولما حطَّ بأشعته عند جبل كوري
سيلبستي، تلك القمة المستدقّة بطول ستة عشر مترًا المتكوّنة من الحجر
الرمادي والثلج الأخضر التي تمثل معلمًا بارزًا في مركز القرص وكانت
مسكنًا لآلهته، تكدّس في أكوام إلى أن تحطم في نهاية المطاف في
شكل موجة تسونامي هائلة وكسلانة وشديدة الصمت والهدوء، مُنتشِرًا
في الأفق الذي يعمه الظلام القابع في الخلف.

لقد كان مشهدًا بديعًا غير مشهود في أيِّ عالمٍ آخر.

فطبعًا لم يكن ثمة عالم مَحْمُول في بحر الفضاء اللّجّي اللامتناهي
المُرصّع بالنجوم على ظهر أربعة أفيال عملاقة، التي بدورها تقف فوق

صَدَفَةٌ لَغِيلِمِ عِمْلَاقٍ. وكان اسمه -أو اسمها وَفَقَ مدرسة فكرية أخرى-
آتوين العظيم؛ وهو -أو كما قد تكون هي- لن يضطلع بدور محوري في
ما سيجري تاليًا من أحداث إلا أن وجوده مهم لفهم طبيعة القرص، فهو
-أو هي- يريزح هنالك تحت المناجم وَوَحَلَ البحار والعظام الأحفورية
الزائفة التي وضعها خالق ما لا يُجيد إلا إحباط علماء الآثار ويُوردُ لهم
أفكارًا تافهة.

آتوين العظيم الغيلم النّجمي ذو الصّدَفَة المكسوة بالصقيع بفعل
الميثان المتجمد والمَنْقورة بالحفر والفوهات التي أحدثتها الشُّهب
والمَجْلُوءة بالغبار النيزكي. آتوين العظيم ذو العينين اللتين تشبهان
البحار العتيقة، وعقل بحجم قارة تتنقل فيه الأفكار كالبحار الجليدية
الصغيرة اللامعة. آتوين العظيم ذو الزعانف الكبيرة ذات الحركة
البطيئة والكثيية والدَّرَقَة التي صقلتها النجوم، ذاك الغيلم المؤدي عمله
سابقًا في ليل الفضاء والمجرات وقابلاً تحت ثقل القرص. ذاك الكبير
قدر العوالم، والقديم قدم الزمان، والصامد صمود الحجر.

لقد فهم الفلاسفة أمره على نحو خاطئ في الحقيقة، إذ إن آتوين
العظيم يحظى بوقت رائع.

فهو المخلوق الوحيد في الكون كلّه الذي يعرف وجهته ومقصده.
وبلا ريب كانت الوجهة التي قد يقصدها آتوين العظيم محل جدل
بين الفلاسفة، وقد صرّحوا غير مرة بمدى قلقهم من أنه قد لا ينكشف
ذلك لهم أبدًا.

فقد يُتَوَقَّع لهم معرفة وجهته في غضون ما يقرب من شهرين، ثم لم
يلبث أن ينتابهم القلق بحق...

وكان ثمة أمر آخر يُقْضُ مضاجع الفلاسفة الذين يتمتعون بمخيلة
أوسع في عالم القرص، ألا وهو التساؤل عن جنس آتوين، فقد انقضى

الكثير من الوقت وتُكَلَّف العديد من المشاق في محاولة معرفته والتثبت منه قطعياً إلى الأبد.

وفي الحقيقة، كلما سبح الجسم العظيم المظلم مثل فرشاة شعر على شكل صَدَفَة سلحفاة لا متناهية الحجم، تتبين نتائج آخر المجهودات فحسب.

تَقَلَّب الهيكلُ البرونزيُّ للسفينة الفضائية بوتنت فوياجر نحو الأمام خارجاً عن السيطرة كُليَّةً، وهي سفينة فضائية عتيقة الطراز قد بناها الكهنة العالمون بالفلك من جزيرة كروول ودفعوها من على الحافة، وهي في موضع مناسب عند أقصى طرف للعالم وتُعَدُّ إثباتاً قائماً لوجود شيء يُسمى الإِطلاق الحُر، أو أيّما يسميه الناس.

كانت السفينة بداخلها توفلاور، أول سائح يصل إلى عالم القرص. وقد قضى في أواخر وقته بضعة أشهر يستكشف القرص وهو يغادره الآن سريعاً لأسباب بالغة التعقيد تستعصي على التبسيط غير أن لها صلة بمحاولته الهرب من جزيرة كروول.

كانت تلك المحاولة ناجحة بنسبة ألف في المئة.

ورغم كل الدلائل التي تشير إلى إنه في الوقت نفسه ربما يكون آخر سائح يزور القرص، فهو يستمتع بالمشهد.

وكان يسبح فوقه على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريباً رينسوينا الساحر، مرتدياً ما هو متعارف عليه بين أهل القرص بالبدلة الفضائية. فللمرء أن يتخيل هذه البدلة كبدلة غوص صممها أناس لم يسبق لهم رؤية البحر. فمنذ ستة أشهر كان رينسوينا ساحراً عادياً مُخَفِّقاً بامتياز. ثم التقى توفلاور، وعيّن براتب كبير غير معقول ليكون مرشده، وقد قضى

معظم المدة الفاصلة المُتخلّلة بين كونه ساحرًا وبين كونه مرشدًا سيّاحًا مصروعًا برمي السهام ومرّوعًا ومطاردًا أو مُعلّقًا من الأماكن العالية بلا أي أمل في الخلاص، أو ساقطًا من الأماكن العالية كما هي الحال الآن. انصرف بصره الآن عن المشهد إذ إن حياته السابقة ظلّت تومض أمام ناظريه وتعترض المشهد المائل أمامه. وقد أدرك السبب الآن، فعند ارتداء المرء بدلةً فضائيةً ينبغي له ألا ينسى الخوذة أبدًا.

وفي هذه اللحظة يمكن إيراد الكثير من التفسيرات لسبب سقوط هذين الاثنين من على حافة العالم، وعن السبب الذي يجعل متاع توفلاور ليس مجرد حقيبة عادية، والذي شوهد آخر مرة وهو يحاول باستماتة اللحاق بتوفلاور على مئات من السيقان الصغيرة، غير أنّ تلك النوعية من الأسئلة قد تستغرق إجابتها ردحًا من الزمان وقد تُمثّل تلك الأسئلة معضلات أكثر من كونها أسئلة ذات مغزى وجدوى. فمثلاً، يُقال إن أحدهم قد طرح سؤالاً على الفيلسوف الشهير لاي تين ويديل في حفل ذات مرة قائلاً: «لم أنت هنا؟». واستغرق رد الفيلسوف ثلاث سنوات.

والأمر بالغ الأهمية هو الحدث الحاصل بعيداً في الأعلى فوق الرؤوس، أعلى بكثير فوق آتوين والفيلة والساحر المَقضي أمره سريعاً. فنسيج الزمكان بعينه على وشك أن يوضع في عصّارة الملابس.

كان الهواء مُزَيّناً بفعل الملمس المُميّز للسحر، ولانزعًا بفعل دخان الشموع المصنوعة من الشمع الأسود الذي لن يسأل أي امرئ يتمتع بالحصافة عن مرجع أصله الدقيق.

كان ثمة شيء في غاية الغرابة حيال هذه الحجرة القابعة في أعماق سراديب الجامعة الخفيّة، أول جامعةٍ للسحر في عالم القرص. فمن

ناحية بدتُ الغرفة كأن لها العديد من الأبعاد التي لم تكن ظاهرة على وجه التحديد، إلا أنها كانت تحوم خارج مرمى البصر. وكانت جدرانها مغطاةً برموز خفية سحرية، ويغطي معظم الأرضية ختم الإيقاف الثُماني، المُتفق عليه عامة في الأوساط السحرية بأنه يحوز كل قوة الإيقاف التي يملكها نصف قالب طوب مُصَوَّب جيدًا نحو هدفه.

وكانت قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في الحجرة هي مِقْرَأٌ مصنوع من الخشب قاتم اللون منحوت على شكل طائر -حَسَنًا، من باب الصراحة منحوت على شكل شيء مُجَنِّح ويفضل على الأرجح عدم النظر إليه من كتب- وكان على المِقْرَأ كتاب مُثَبَّتٌ إليه بسلسلة ثقيلة تغطيها الأقفال.

كان كتابًا ضخمًا، إلا أنه غير لافت للنظر على أي نحوٍ. فقد تميزتِ الكتبُ الأخرى في مكتبات الجامعة بأغلفة مرصَّعة بالجواهر النادرة ومزدانة بالخشب المذهل أو كانت مجلَّدة بجلود التنانين. أما هذا الكتاب فقد كان مصنوعًا من مجرد جلود مُهترئة. فهو ذاك النوع من الكتب الموصوفة في فهارس المكتبات تحت عنوان «مُبَقَّع ببقع بنية لدرجة ما»، رغم أنه سيكون من الأصدق الإقرار بأنه بدا أجربَ وباليًا، وربما قد أكل عليه الزمان وشرب كذلك.

كانت ثمة مغاليق معدنية تُحْكِم إغلاقه. ولم تكن تلك المغاليق بها أي سِمة جمالية، بل كانت غاية في الثقل فحسب، شأنها شأن السلسلة التي تُقَيِّد الكتاب لكنها لم تُثَبَّتْ إلى المِقْرَأ تثبيتًا تامًا.

فقد بدتُ تلك المغاليق من صُنع شخص ما يتبنى هدفًا مُحددًا بدقة في عقله، والذي قضى معظم حياته يصنع أحزمة تدريب للفيلة.

تُحْنُ الهواء وشكَّل دُوَامات في الأجواء. ثم شرعتُ صفحات الكتاب تُصدر صوت خشخشة بطريقة مخيفة ومتعمدة، وانساب ضوء أزرق

من بين أثنائها، ثم تَجَمَّع صمْتُ الغرفة كأنه قبضة يدٍ، مُشَدَّدة إْحكامَها ببطء.

أخذ ستة سحرة يرتدون ملابس نومهم يتناوبون على إمعان النظر من نافذةٍ شبكيةٍ موجودة في الباب. إذ يجافي النوم عين أي ساحر حينما يَطْرُق هذا النوع من الطوارق، إذ تصاعد وازداد تَكُونُ خام السحر في أرجاء الجامعة كافة مثل تيارٍ مدٍّ.

قال صوت: «حسنًا، ما الذي يجري؟ ولم لم أستدع؟».

لم يكن ببساطة جالدر ويزرواكس، كبير مُستدعي جماعة النجم الفضي والسيد الإمبراطوري للصولجانات المقدَّسة والأبسيسيموس⁽¹⁾ من الدرجة الثامنة والرئيس الثلاثمائة وأربعة للجامعة الخفية، بهيُّ الطَّلعة حتى وهو مرتدٍ ملابس نومهِ الحمراء المطبوعَ عليها الأحرف الرونية⁽²⁾ الغامضة المُطرزة يدويًا، وحتى وهو معتمر قبَّعته الطويلة ذات الكرة المزركشة، وحتى وهو يمسك بشمعدان وي ويلي وينكي بيده. وحتى إنه قد وصل إلى المكان في حُلته شبه الكاملة منتعلًا خُفًا رقيقًا له كرتين من الريش.

واستدار له ستُهُ أوجه يعلو سيماءها الخوفُ.

قال واحد من السحرة الأقل رتبة: «اممم، لقد جرى استدعاؤك يا سيدي». ثم أردف موضحًا: «هذا سببُ حضورك هنا».

فردَّ جالدر سريعًا متسائلًا وهو يشق طريقه باتجاه النافذة الشبكية: «أقصد لم لم أستدع من قبل؟».

(1) كلمة لاتينية معناها أقصى درجات الكمال من النفس (كامل الذات)، وهي درجة ينسبها كبار السحرة في عالم القرص إلى أنفسهم. (الترجمة)

(2) الأحرف الرونية: حروف استخدمتها الشعوب الجرمانية في الكتابة، ويكون لها استخدام في السحر. (الترجمة)

فأجابه الساحر متسائلاً: «اممم، من قبل من يا سيدي؟».

حدّق جالدر إليه غاضباً، وتجراً وألقى نظرة سريعة من خلال النافذة الشبكية.

أخذ الهواء الموجودة في الحجرة يتلألاً بفعل سَدْرَات من الوميض كحال ذرّات الغُبار عندما تحترق بفعل تدفق خام السحر. وأخذ ختم الإيقاف يُشكّل فقاعات وينحني عند أطرافه.

كان الكتاب المقصود يُسمى الأوكتافو⁽¹⁾ وبدا جلياً أنه لم يكن كتاباً عادياً.

توجد قطعاً كُتِبَ شهيرة في السحر، بعضها قد يتناول كتابَ التواصل مع الموتى بصفحاته المصنوعة من جلد السحالي العتيق؛ وبعضها قد يذكر كتابَ الخروج عند الساعة الحادية عشرة الذي كتبه طائفة غامضة كسلانة تنتمي إلى حيوانات اللّاما؛ وبعض الكتب قد يأتي على ذكر كتاب جريموار الفُكاهة الكبير الذي من المفترض أنه يحوي المزحة الأصلية المتبقية في الكون.⁽²⁾ إلا أن كل تلك الكُتب تُعدّ مجرد كُتُبَات بسيطة عند مقارنتها بالأوكتافو، الذي يُشاع أن خالق عالم القرص قد نساها -بسبب صفة شرود ذهنه المُلازمة له- بعدما أتمّ عمله الأكبر بمدةٍ وجيزة.

عاشت التعاويذ الثمانية الحبيسة بين صفحاته حياةً خاصةً بها ذات طابع سري معقد، وشاع اعتقاد عام أن...

تغصّنت جبهة جالدر وهو ينظر إلى داخل الحجرة المُضطربة. إذ وجد بلا شك أن هنالك سَبَعَ تعاويذ فحسب في تلك اللحظة. فقد حدث

(1) أوكتافو يعني الكتاب الثماني لأنه يحوي التعاويذ الثمانية العظيمة. (المترجمة)

(2) الكتاب الأول قد يكون الكاتب اشتقّه من الكاتب هوارد فيليبس لافكرافت، وكتاب الخروج عند حوالي الساعة الحادية عشر مُحَاكاة للكتاب الجنائزي المصري القديم كتاب الخروج في النهار، والجريموار هو كتاب يحوي نصوصاً وتعاويذ سحرية. (المترجمة)

أن يافعاً أحمق من الطلبة السحرة قد استرقَ النظر إلى الكتاب ذات يوم وهربت إحدى التعاويذ واتخذت من عقله مقراً لها. ولم يستقم الأمر لأحد حتى يصل إلى تفسير الطريقة التي حدث بها ذلك. والآن ماذا كان اسمه؟ وينسواند؟

لمعت شرارات من لوني الأوكتارين⁽¹⁾ والأرجواني على كعب الكتاب. وأخذ لفيف دخان رفيع في التصاعد من المقرأ، وبالتأكيد بدا الإجهاد على المغاليق المعدنية الثقيلة التي تُحكِم إغلاق الكتاب.

سأل واحد من صغار السحرة قائلاً: «لَمْ يَشْتَدُّ اهْتِياجُ التعاويذ؟».

هزَّ جالدر كتفيه. ورغم أنه تعذَّر عليه إظهار قلقه بلا شك، فإن القلق الحقيقي قد بدأ يتسلل إليه. ولكونه ساحراً ماهراً من الدرجة الثامنة استطاع رؤية الأشكال شبه الخيالية التي ظهرت من فورها في الهواء المتذبذب، والتي كانت تستهوي مَنْ حولها وتجذبهم. وبالطريقة نفسها التي يظهر بها الخُموش قُبيل عاصفة رعدية، فدوماً ما تجذب تَكُونات السحر الكثيفة جداً أشياء من زنازين الأبعاد الفوضوية؛ أشياءً بغيضة مؤلفة من كل الأعضاء المفقودة واللُّعاب، تبحث بحثاً دُوبياً عن أي فسحةٍ قد تتسلل منها إلى عالم البشر.⁽²⁾*



telegram @
yasmeenbook

يجب أن يتوقف هذا.

قال بحزم: «لا بدَّ لي من متطوع».

(1) لون السحر وهو اللون الثامن في طيف الألوان في عالم القرص ولونه أرجواني متورّد. (المترجمة)

(2) * لن تُوصف هذه الأشياء، إذ إن أحلاها يبدو مثل نتاج تزاوج أخطبوط ودراجة. ويُعرف أن تلك الأشياء من الأكوان البغيضة تسعى دوماً للدخول إلى هذا الكون، فهذا الكون هو المعادل الوسيط لكون المكان به مزايا مثل سهولة الوصول إلى الحافلات والقرب من المتاجر. (المؤلف)

ساد صمْتُ مفاجئ، إذ كان الصوت الوحيد المسموع هو الصوت الآتي من خلف الباب. كان صوتَ جليّةٍ خفيّةٍ ومزعجٍ لمعدنٍ ينفصل تحت قوة الضغط.

فقال: «حسنًا إذن، في تلك الحالة سأحتاج إلى بعض الملاقط الفضية، ونحو لتر من دم القطط وسوط صغير وكرسي...».

يُقال بأن عكس الضجيج الهدوء، غير أن هذا ليس صحيحًا. فالصمْتُ ما هو إلا غياب الضجيج. فقد كان الصمت ليكون ضجيجًا مرّوعًا لو قارنناه بصوت الانبجار الخافت المفاجئ للضجيج الذي ضَرَبَ السحرة بقوة رأس بذور الهندباء المنفجرة.

انبثق عمود كثيف من النور المندفع من بين أثناء الكتاب، وضرب السقف في رَدَاذٍ من لهبٍ ثم اختفى.

حَمَلَقَ جالدر عاليًا إلى الحفرة، متجاهلاً الرقع المحترقة من لحيته. وأشار بحركة درامية.

ثم صرخ قائلاً: «إلى الأقبية العليا!»، وصعد السُّلم الحجري. وكان خَفَاهُ يخفقان وملابس نومه تتموج وتتطاير في وجه من يليه من السحرة الذين كانوا يتساقطون فوق بعضهم في حرص على التأخر عنه.

إلا أنهم كانوا جميعًا حاضرين في التوقيت المناسب ليشهدوا كرة النار الدالة على احتمالية وجود طقس سحري وهي تختفي في سقف الحجرة الذي فوقهم.

قال الساحر الأصغر وهو يشير إلى الأرضية: «تبًا».

كانت الحجرة جزءًا من المكتبة حتى أتى عليها السحر، فأخذ السحر يُعيد تجميع جزيئات الاحتمالات لكل شيء في طريقه بعنف. لذا كان

أمرًا معقولًا افتراض أن حيوانات سمندل الماء الأرجوانية الصغيرة كانت جزءًا من الأرضية وربما كانت كريمة كاسترد الأناناس بعض الكتب في ما سبق. ويُقسّم العديدُ من السحرة في ما بعد أن إنسان الغاب الحزين الصغير الجالس في منتصف الحجرة بدا شبيهاً تمامًا بأمين المكتبة الرئيسي⁽¹⁾ إلى حد كبير.

حَمَلِق جالدر إلى الأعلى، ثم صرخ، وقال: «إلى المطبخ!»، قاطعًا طريقه خلال الكاسترد المنتشر على الأرضية إلى قَلْبَةِ الدرج التالية. ولم يعرف أحد قطُّ ما قد تحول إليه موقد الطبخ الكبير المسبوك من حديد الصب، إذ إنه قد حطم أحد الجدران ونجح في الهروب قبل أن يقتحم الحجرة ثلَّة من السحرة شُعْتًا رثي الثياب وفي أعينهم الدهشة والذهول. وبعدها بمدة كبيرة عُثِرَ على طاهي الخضراوات متخذًا من رجل الحساء مخبئًا له يهذي ويثرثر بكلام غير مُجِدِّ مثل: «البراجم! البراجم المرؤعة!».

وكانت آخر آثار للسحر الذي تباطأ الآن إلى حد ما، تختفي في السقف.

- إلى القاعة الكبرى!

اتسع الدرج هنا أكثر عما قبل، وكانت إضاءته أفضل. وصل السحرة الذين يتمتعون باللياقة البدنية لاهئين متعبين وتفوح منهم رائحة نكهة الأناناس إلى أعلى السلم عند وصول كرة النار إلى منتصف الحجرة الفسيحة ذات النوافذ المتعددة التي هي القاعة الرئيسية للجامعة.

(1) إشارة إلى تحول أمين المكتبة إلى قرد، الذي سيفضل البقاء قردًا على الرجوع إلى حاله السابقة، وذلك لسهولة تسلقه الأرفف وتعامله مع كتب السحر التي يصعب على البشر التعامل معها. (الترجمة)

كانت القاعة ساكنةً بلا حراك إلا من نتوء صغير يبرز من حين إلى آخر ويتقوس ويغمغم على كل أجزاء سطحها.

وكما هو معلوم للجميع فإن التدخين من دأب السحرة. وهذا على الأرجح فسّر جوقة السعال المُميت وصوت أزيز الأنفاس الشبيه بأزيز سنون المنشار التي تعالت من خلف جالدر وهو واقف يحاول تقييم الوضع ويتساءل أكان يجرؤ على البحث عن مكان ما للاختباء. ثم جذب جالدر طالبًا مُرتعبًا.

وصرخ قائلاً: «أحضر إليّ العرّافين والمتكهنين والمتنبئين والعارفين بالنفوس! أريد لهذا أن يُدرس ويُحلل!».

كان ثمة شيء ما يتشكّل داخل كرة النار، فحمى جالدر عينيه بيده وألقى نظرة مُمعنة على الشكل الذي يتشكّل أمامه. وهو شيء لم يكن للمرء أن يُخطئه، لقد كان الكون.

كان متقياً تمام اليقين من هذا، إذ قد دَرَس نموذجًا له في أيام دراسته وكان ثمة اتفاق عام أنه أكثر روعةً وإبهامًا من الكون الحقيقي. ولأن خالق القرص قد واجه الإمكانات التي تقدمها حبات اللؤلؤ الصغيرة والزخارف الفضية الموجودة في النموذج المصنوع للكون، فقد خسر خسارة تامة.

غير أن الكون الصغير جدًّا الموجود داخل كرة النار كان، حسنًا، حقيقياً ومتقناً إلى حد يثير الغرابة والارتياب. ولم يكن ينقصه غير اللون. فقد كان يسوده بياض ضبابي شبه شفاف.

كان بداخله أتوين العظيم والأفيال الأربعة والقرص بعينه. وتعدّر على جالدر رؤية سطح هذا الكون رؤيةً واضحةً من الزاوية التي كان ينظر منها، غير أنه عرف بيقين تام أن هذا الكون سيكون له تصميم بالغ الدقة. ورغم هذا أمكن له رؤية مُجسّم صغير طبق الأصل لجبل

كوري سليتي، والذي على قمته عاشت آلهة العالم المتشاكسة ذات النُّزعة البرجوازية في قصر من الرخام والمرمر يضم أجنحة مُؤثثة بثلاث قطع من الأثاث ومفروشة بالموكيت غير المقصوص الذي اختارت الآلهة له اسم دونمانيفستين. وكان دوّمًا مصدر ضيق وإزعاج كبيرين لأيّ من مواطني القرص ممّن لهم مزاعم بوجود ثقافة حُكم الآلهة التي كانت معرفتها الكاملة بخصوص التجربة الفنية الراقية تقتصر على سماع صوت جرس الباب الموسيقيّ.

راح الكون الجنين في هيئته الأولى يتحرك بوتيرة بطيئة، ويتمايل شيئًا فشيئًا...

حاول جالدر الصراخ إلا أن صوته أبى الخروج من حَلقه.

ثم انفجر الشكل الكائن أمامهم برفق، غير أن هذا الرفق لم يمنع القوة الانطلاقية للانفجار.

راقب جالدر المشهد في رعب، ثم تحول الرعب إلى دهشة لأن الشكل قد عبّر من خلاله بخفة كورود الخواطر في البال. فمدّ يده وشاهد الأشباح الشاحبة المؤلفة من طبقات من الصخور تتدفق من بين أصابعه في صمت مشوش يعج بالنشاط.

كان أتوين العظيم قد غاص بسلام تحت الطابق الأرضي، والذي حالما نزل إلى هذا المستوى اتضح أنه أكبر من حجم منزل.

كان السحرة من خلف جالدر يغوصون حتى خصرهم في أعماق البحار. ولمح جالدر بعينه قاربًا أصغر من الكشتبان الذي ترتديه الإصبع لمحّة سريعة قبل أن يحملة التيار السريع ويعبُر به من الجدران ثم يأخذه بعيدًا.

فتهيأ لجالدر أن يقول وهو يشير بإصبعه المرتجفة ناحية السماء: «إلى السطح».

وتَبِعَهُ أولئك السحرة مَمَّن بقي لهم شيء من العقل ليفكروا، وما يكفي من أنفاس حتى يسارعوا بالجري من خلفه، راكضين قاطعين القارات المُتَشَكِّلة في الكون الوليد التي عَبَّرت بسلاسة من خلال الحجر الصلب.

في هدأة الليل التي تأذن بقرب بزوغ الفجر مع أفول الهلال من السماء لتوه، كانت مدينة عنخ-موربورك تغطُّ في النوم، وهي أكبر مدينة تقع في نطاق الأراضي المحيطة بالبحر الدائري.

لم يكن هذا الكلام صحيحًا تمامًا.

فمن جانب، تلك الأنحاء التي خَصَّت نفسها بطبيعة الحال، مثلًا، ببيع الخضراوات وحَدَوَات الخيل ونحت الحُلي الصغيرة بالغة الجمال من حجر اليشم وصِرافة النقود وصنع المناضد، كانت مستغرقة في النوم بشكل عام. إلا إذا جافاهم النوم بسبب الأرق. أو قد استيقظوا من الليل للذَّهَاب إلى المرحاض، مثلما قد توجد الحاجة إلى ذلك. وعلى الجانب الآخر، كان كثيرون من المواطنين الأقل التزامًا بالقانون متيقظين وكانوا، مثلًا، يتسلقون نوافذ لا تقع ضمن ملكيتهم، ويدقون الأعناق، ويسلبون بعضهم، ويُمَتِّعون أسماعهم بسماع الموسيقى العالية في الأقبية التي ينبعث منها الدخان، ويحظون بقدر أكبر من المتعة في المُجمل. لكن قد أُسَلِّمت معظم الحيوانات جفونها للنوم، عدا الفئران. وكذلك الخفافيش، بلا ريب. وبقدرها كانت الحشرات...

إن المغزى من تلك الكتابة الوصفية نادرًا ما يكون دقيقًا تمام الدقة، وخلال حكم أولاف كُويمبي الثاني سيدًا أُرستقراطيًا على مدينة عنخ صُدِّقَ على تشريع من نوع ما في محاولة جادة لوقف هذا النوع

من الوصف المُطلق للأُمور، وتقديم بعض الأمانة في نقل الماكرات والإخبار بها. لذا، إذ سَرَدَتْ أسطورة ما حكاية عن بطل مغوار مشهور بأنه 'تتحاكى جُموع الناس ببسالته' فأُيُّ شاعر ملحمي يُقدَّر حياته سيضيف مترددًا إلى حكايته جملة 'ما عدا بضعة أشخاص من أبناء بلدته يظنون أنه كان كاذبًا، وعدد لا بأس به من الأشخاص لم يسبق لهم أن سمعوا به'. وكانت التشبيهات الشعرية مقتصرة تمام الاقتصار على الكلام من نوعية 'كان جواده سريعًا كالرياح في يوم هادئ معتدل، لكن قل منطلقًا بسرعة قوة الرياح الثالثة'⁽¹⁾، وأي كلام مواصل عن المحبوبة ذات الوجه الذي أُطلِقَتْ من أجلها ألُوف السفن⁽²⁾ لا بُدَّ من دعمه بالدليل بأن الشخص محل الرغبة يشبه بالتأكيد زجاجة الشمبانيا المستخدمة في احتفالات إطلاق السفن.

وجاء مقتل كُوَيْمبي في نهاية المطاف على يد شاعر ناغم خلال تجربة أُجريت في أراضي القصر، حتى يُثبت الدقة المزعومة للمثل القائل: 'القلم أمضى من السيف'، وفي ذاكرته طرأ تعديل على المثل حتى يتضمن عبارة: 'إلا إذا كان السيفُ صغيرًا جدًّا والقلم حادًّا للغاية'. وعليه. كان ما يقرب من سبعة وستين، وربما ثمانية وستين، بالمئة من سكان المدينة خالدين للنوم. وهذا لا يعني بالضرورة أن المواطنين الآخرين الذين يتسللون إلى أنشطتهم غير المشروعة عامة قد لاحظوا المدَّ الشاحب يتدفق خلال الشوارع. فما رآه إلا السحرة، الذين يرون ما يخفى على أعين غيرهم، في حين يرتفع زَبده بين جنبات الحقول البعيدة.

(1) قوة الرياح على مقياس بوفورت. (المترجمة)

(2) يُقصد بها هيلين، المرأة التي اشتهرت بأنها السبب الرئيسي في اشتعال حرب طروادة التي دامت سنوات وراح ضحيتها آلاف الأشخاص. (المترجمة)

ولأن القرص مسطح، فلا يملك خطاً أفق فعلي. فالبحارة المغامرون الذين تخطر لهم أفكار غريبة جراء التحديق إلى الأشياء المدوّرة مثل البيض والبرتقال مدةً طويلة وينطلقون في رحلاتهم وصولاً إلى المتقابلات الجغرافية سرعان ما يعرفون السبب الذي يُظهر السفن في بعض الأحيان كأنها تختفي عند حافة العالم، والسبب هو أنها تختفي عند حافة العالم.

إلا أنه كان ثمة حد حتى لرؤية جالدر في الجو المُلبّد بدوامات الضباب والمليء بالغبار. لذا رفع بصره عاليًا. لآح برج الفنون الكئيب والعتيق عاليًا في الأفق أعلى الجامعة، ويُقال إنه أقدم بناء عُرفَ على سطح القرص، ويشتهر بدرج لولبي به ثمانية آلاف وثمانمائة وثمانين درجة. ومن على سطح البرج المثمّم، الذي كان موردًا معتادًا تتردد عليه الغربان الفحماء وقاعدة لتمثال الجرجول المتيقظ الذي يثير الخوف في النفس، يمكن للساحر أن يرى أبعد حافة للقرص. بعدما يقضي عشر دقائق أو يزيد يسعل بشدة، طبعًا.

غمغم قائلاً: «تبًا لذلك، ما جدوى كونك ساحرًا أصلًا؟ أفينتو، ثيسالوس! سأحلق! هلموا إليّ يا أرواح الهواء والظلام!».

بسّط يده المُجعدّة كثيرة العُقد وأشار إلى جزء من الحاجز المتداعي. فخرجت نار بلون الأوكتارين من تحت أظفاره الملطّخة بالنيكوتين واستعرت عند التقائها الحريض الموجود بعيدًا في الأعلى.

فسقط الحاجز. وبتبادل محسوب بدقة لمعدل السرعات ارتفع جالدر، وكانت ملابس نومه تلتف حول ساقيه النحيلتين. ثم ارتفع عاليًا جدًّا في الهواء، مندفعًا في الضوء الخافت مثل، مثل، مثل، حسنًا، مثل ساحر شيخ لكنه قوي يدفعه إلى الأعلى إبهام مُصوّب بمهارة وفق مقاييس الكون.

ثم هبط في فراش أعشاش قديمة للطيور واستجمع اترانه وحملق إلى الأسفل في منظر فَجْر القرص الذي يسبب الدُّوار.

وفي هذا الوقت من السنة الطويلة كان البحر الدائري في جانب مغرب الشمس تقريباً من جبل كوري سليستي، وبينما ينسكب ضوء النهار على الأراضي المتاخمة لمدينة عنخ-موربورك يتحرك ظل الجبل فوق المشهد مثل أداة عقرب المِزولة الخاص بساعة الإله الشمسية. لكن باقتراب الليل، تدفق خيط أبيض من الضباب متسابقاً مع الضوء البطيء باتجاه حافة العالم.

تهادت إلى سمعه أصوات طقطقة أغصان صغيرة يابسة من خلفه. فاستدار ليجد إيمبر تريمون، مساعد رئيس الجماعة، الساحر الوحيد من بين الآخرين الذي تمكن من مواكبته وللحاق به.

تجاهله جالدر في الوقت الحالي، وركز اهتمامه على إحكام قبضته على البناء الحجري وتعزيز تعاويذه الشخصية للحماية. كانت الترقية بطيئة في مهنة من سمتها التقليدية أن تمنح المرء حياةً طويلةً، وكان مما هو متعارف عليه أن السحرة الشُّبان كثيراً ما يسعون في العادة إلى إحراز السبق والترقي بالحصول على الأحذية المعوجَّة للأموات من كبار السحرة، ويتحقق ذلك بإفراغها سابقاً من مرتديها. إلى جانب ذلك كان هنالك شيء غير مريح بخصوص الشاب تريمون. إذ كان لا يُدخن، فما كان يشرب إلا الماء المغلي، ثم إن جالدر تملَّكه شك بغيض بأن تريمون كان ذا ذكاء ألمعي. فلم يكن يبتسم في كثير من الأحيان، وكان له ولَعُ بالأرقام والمخططات التنظيمية التي تعرض الكثير من المربعات التي بها أسهم تشير إلى مربعات أخرى. باختصار، كان ذاك النوع من الرجال الذين يستخدمون كلمة «طاقم عمل» ويعنيها.

وكان الجزء المرئي بالكامل من القرص تغطيه طبقة بيضاء براقه، وقد حفته من الجوانب كافة.

خفض جالدر نظره إلى يديه ورأهما مغطاتين بشبكة شاحبة من الخيوط اللامعة التي تحاكي كل حركة.

فعرف نوع هذه التعويذة، إذ قد استخدمها بنفسه. إلا أن تعويذته التي استخدمها كانت لها تأثير أصغر، أصغر بكثير من تلك الماثلة أمامه.

قال تريمون: «إنها تعويذة تغيير. العالم كله يخضع للتغير».

فكر جالدر مُتجهماً: أن بعض الأشخاص من الأدب بمكان يجعلهم يضعون علامة تعجب في نهاية جملة مثل هذه.

ثم تهادت إلى الأسماع أخفت الأصوات النقية، كانت عالية وحادة، كانكسار قلب فأر.

سأله جالدر: «ما هذا؟».

فأمال تريمون رأسه إلى أحد الجنبيين.

وأجابه: «أظن أنها نعمة دو مع الرفع⁽¹⁾».

لم ينبس جالدر ببنت شفة. واختفى البريق الأبيض ثم وصلت إلى أسماع الساحرَيْن بوادر أصوات المدينة المستيقظة. وبدا كل شيء كما كان على حاله تماماً من قبل. أحدث كل هذا حتى يجعل الأشياء كما هي؟ تحسس جالدر جيوب ملابس نومه دون تركيز، وفي نهاية المطاف عثر على ما كان يبحث عنه محشوراً وراء أذنه. فوضع عقب السيارة المشبّع بالماء في فمه، ثم استدعى ناراً سحرية من بين أصابعه،

(1) نغمة من نغمات النوتة الموسيقية التي تعلقو على نغمة دو بنصف نغمة. (المترجمة)

واستنشق السيجارة الملفوفة الرديئة بشدة حتى لَمع لهيب أزرق أمام عينيه. وسعل مرة أو مرتين.

كان مستغرقاً في التفكير بالتأكيد.

كان يحاول تذكُّر أكانت ثمة آلهة تدين له بأي معروف.

في حقيقة الأمر حارتِ الآلهة في أمر ما جرى مثلما حار السحرة، إلا أنهم كانوا بلا حيلة تُمكنهم من فعل أي شيء، وعلى أي حال كانوا متورطين في معركة قديمة قدم الدهر مع عمالقة الجليد على جزارة عُشب رفض عمالقة الجليد إعادتها.

غير أنه قد توجد بعض الأدلة بخصوص حقيقة ما حدث، التي ترجع إلى أن رينسويند الذي تحولت حياته السالفة إلى حياة في غاية التشويق عندما كان ابن الخامسة عشرة، فقد وجد نفسه فجأة حياً رغم سقوطه من على حافة القرص، وكان معلقاً رأساً على عقب في شجرة صنوبر.

ثم نزل من على الشجرة بسهولة ساقطاً بلا إرادة منه من غصن إلى آخر إلى أن نزل برأسه في كومه من إبر الصنوبر، حيث استلقى مُمدداً على الأرض لاهثاً يحاول التقاط أنفاسه، ويتمنى لو كان شخصاً أفضل عمًا هو عليه.

أدرك رينسويند في لحظة ما أنه لا بُدَّ من وجود صلة منطقية تمامًا بين ما يحدث. ففي لحظة يحدث أن يصارع المرء مَنِيَّتَه بسبب سقوطه من على حافة العالم، وفي اللحظة التالية يكون مُعلقاً رأساً على عقب متدلياً من شجرة.

وكما هو معهود في أوقات مثل هذه، انتفضتِ التعويذة في عقله.

كان ظنُّ معلمي رينسويند فيه بصورة عامة هو أنه ساحر بطبيعته مثلما تكون الأسماك متسلقةً للجبال بطبيعتها. وفي أغلب الظن كان سيُطرد من الجامعة الخفية على أي حال - فهو لا يتذكر التعاويذ وقد أعياه التدخين - إلا أن ما جلب عليه المشكلات والمتاعب كان تلك الفعلة الحمقاء، حين تسلل إلى الحجرة التي كان فيها كتاب الأوكتافو مغفلاً بالسلاسل وفتحَه.

وما زاد الطين بلَّةً هو أنه ليس بمقدور أيِّ أحد معرفة لم انفتحت كل الأقفال مدةً مؤقتةً.

لم تكنِ التعويذة التي تسكن رأس رينسويند مُقيماً مُتطلباً، بل قبعَتْ هناك مثل علجوم عجوز في قاع بركة. غير أنه في الأوقات التي كان يشعر فيها رينسويند بالإعياء الحقيقي أو الرعب الشديد، حاولتِ التعويذة أن تنطق نفسها. ولا يعلم أيُّ أحد ما قد يحدث لو قيلت تعويذة من التعاويذ الثمانية العظيمة أن من تلقاء نفسها، لكنْ كان الإجماع العام يقول إن أفضل مكان يشاهد المرء منه الآثار المترتبة على ذلك هو بعيداً في الكون المجاور.

لكم كان ورود مثل هذه الفكرة غريباً، وهو مستلقٍ فوق كومة من إبر الصنوبر بعد السقوط من على حافة العالم، لكنَّ رينسويند تملكه شعور بأن التعويذة أرادت أن تبقيه حياً.

فكر رينسويند: «هذا يُناسبني تماماً».

ثم نهض ونظر إلى الأشجار. كان رينسويند ساحراً من سحرة الحَضر، والشيء الوحيد الذي عرفه رينسويند يقيناً أن طرف الشجرة الخالي من الأوراق يكون منغرساً في الأرض، رغم معرفته بوجود اختلافات عدة بين أنواع الأشجار التي لا يعرف الفرق بينها إلا المُحبون

والولعون بالشجر. كان هنالك العديد منها، مُتراسة بلا أي حس نظامي. ولم يكن المكان قد كُنِسَ منذ زمان بعيد.

وقد أسعفته ذاكرته بمعلومة عن القدرة على تحديد المرء مكانه بالنظر إلى أيِّ جانب من الشجرة ينمو فيه الطحلب. وتلك الأشجار كانت عليها الطحالب والثآليل الخشبية والأغصان القديمة غير مكتملة النمو في كل أجزائها، ولو كانت الأشجار بشرًا، لجلست بحالتها هذه على الكراسي الهزازة كالعجائز.

سَد رينسويند ركلةً إلى أقرب شجرة. وبتصويبة لا تخطئ أسقطت الشجرة بلوطه عليه. فقال متألماً: «آه». رَدَّت الشجرة بصوت مثل صوت باب عتيق يفتح متأرجحًا قائلة: «أنت مَنْ جَنيت على نفسك». ساد الصمت مدةً طويلةً.

ثم سألها رينسويند: «أقلتِ هذا الكلام؟».

- أجل.

- وهذا أيضًا؟

- أجل.

فقال: «أوه»، وفكر وهلةً. ثم جَرَب قول: «أظن أنه لم يسبق لك معرفة طريق الخروج من الغابة بأي طريقة ممكنة؟».

أجابته الشجرة: «لا، فأنا لا أتجول في الأرجاء كثيرًا».

ردَّ رينسويند: «أتخيل أنها حياة مُملة جدًا».

قالت له الشجرة: «لستُ أدري، فلم يحدث أن كنتُ شيئًا آخر».

نظر إليها رينسويند من كذب، وكانت تشبه إلى حد كبير أي شجرة أخرى قد رآها من قبل.

سألها رينسويند: «هل أنتِ شجرة سحرية؟».

أجابت الشجرة: «لم يسبق لأحد أن أخبرني بهذا. أفترض أنني كذلك». فكر رينسويند: لا يُعقل أنني أتحدثُ إلى شجرة. فلو كنت أتحدثُ إلى شجرة لكنتُ قد فقدتُ صوابي، إلا أنني لم أفقد صوابي، لذا فالأشجار لا تتحدث.

قال بنبرة كلها حزم: «وداعًا».

واصلتِ الشجرة قائلةً: «تمهل، لا تذهب». ثم أدركتُ أن الأمر كُلّه ميوّوس منه. فراحتُ ترقبه وهو ينصرف متمايلًا شاقًّا طريقه خلال الأجرّاج، ثم استكانت حتى تستشعر ضوء الشمس على أوراقها، وصوت ارتشاف الماء وقرقرته في جذورها، وانحسار نُسْغِها وتدْفِقه استجابة لقوى التجاذب الطبيعي للشمس والقمر. وقالت الشجرة في نفسها: مُمل. يا له من شيء غريب قوله. يمكن للأشجار الشعور بالملل، طبعًا، وتشعر الخنافس بالملل طوال الوقت كذلك، لكن لا أظن أن هذا ما كان يحاول أن يرمي إليه. وكذلك: أيمن للمرء حقًا أن يغدو شيئًا آخر؟

في الواقع لم يتحدث رينسويند إلى تلك الشجرة بعينها مرة ثانية، إلا أنه من تلك المحادثة القصيرة التي قوّضت أساس أول عقيدة للأشجار انتشرت في غابات العالم مع مرور الوقت. وكان معتقدها الإيمانى هو: أن الشجرة التي كانت شجرة صالحة، وعاشت حياة نزيهة وكريمة ومميزة يمكنها أن تضمن حياة أخرى بعد الموت. وإذا بلغت مبلغًا عاليًا من الصلاح طبعًا سينتهي بها المطاف بأن يُعاد تجسيدها في شكل خمسة آلاف بكرة من ورق المرحاض.

على بعد عدة أميال كان توفلاور هو الآخر يتغلب على زهوله من أنه قد وَجد نفسه في القرص مرةً أخرى. فقد كان يجلس على هيكل سفينة

الفضاء بوتنت فوياجر وهي تقرر شيئاً فشيئاً وتغرق تحت المياه المظلمة لبحيرة كبيرة تحفها الأشجار.

لم ينتبه القلق ناحية شيء بعينه، وهو أمر غريب جداً. كان توفلاور سائحاً، أول نوع من الأنواع التي تطورت على سطح القرص، وكان جوهر وجوده الأساسي هو اعتقاده الراسخ بأنه لن يمسه سوء من أي نوع لأنه كان نائياً بنفسه عن كل ما يسبب ذلك، وأظن أن أي أحد يمكنه استيعاب أي ما يقوله ما دام أنه يتحدث بصوت عالٍ وبطيء، وأن الناس محل ثقة بالأساس، وأن أي شيء يمكن التعامل معه في ما بين الطيبين حسني النوايا لو أنهم تعاملوا بحكمة وروية فحسب.

في ظاهر الأمر، منح هذا المعتقد توفلاور مزية طفيفة للبقاء حياً أقل من، لنقل، سمكة رنجة مصنوعة من الصابون وموضوعة في الماء، إلا أنه لدهشة رينسويند بدا أن الأمر كله يفلح، وغفلة الرجل الصغير التامة عن كل أشكال الخطر نَبَّطت همة الخطر جداً لدرجة أنه استسلم ومضى بعيداً.

فحتى مجرد احتمالية مواجهته خطر الغرق لم تكن واردة. إذ كان توفلاور متقيناً تمام اليقين أنه في المجتمع المنظم تنظيماً جيداً لن يكون الناس عرضةً للاقتراب من خطر الغرق.

إلا أنه أصابه بعض القلق حيال المكان الذي انتهى إليه متاعه. لكنه بثَّ في روحه بعض الطمأنينة كونه عارفاً أن المتاع كان مصنوعاً من خشب الكمثرى الحكيم⁽¹⁾، ولا بدَّ له من أن يكون ذكياً كفاية حتى يعتني بنفسه...

*

(1) خشب حصين ضد التعاويذ تُصنع منه حاجات السحرة. (المترجمة)

في موضع آخر من الغابة كان هنالك شامان شاب يؤدي جزءاً أصيلاً من تدريبيه. وقد تناول فطر عيش الغراب المقدّس، ودخّن نبات الجذمور المُحرّم، وطحن الفطر السحري وأدخله إلى منافذ مختلفة من جسمه بكل عناية وحرص، وهو يجلس الآن عاقداً ساقيه مستظلاً بظل شجرة صنوبر. كان في بداية تدريبيه يصبُّ جاماً تركيزه على الاتصال بالأسرار العجيبة والغريبة الكامنة في جوهر الوجود، وفي الوقت ذاته يركز على منع الجزء الأعلى من رأسه من الانفكاك عنه والطفو بعيداً.

ولاحت في أفق نظره مثلثات رباعية الأضلاع زرقاء تدور بسرعة فائقة. فحانت منه ابتسامة لعلمه بأن هذا شيء لا يستحق الكثير من العَجَب، وتفوه بكلمات من قبيل 'عجباً' و'تباً'.

كانت هنالك حركة في الأجواء، وقد وصفها في ما بعد بـ 'كأنه انفجار من نوع ما لكنه إلى الداخل، أتعلم؟'، وفجأة ظهر أمامه صندوق خشبي كبير بالٍ في المكان الذي كان خالياً من قبل.

استقرّ الصندوق بثقله على طبقة أوراق الشجر العفنة، ومدّ عشرات من السيقان الصغيرة، والتفت والسأم بادٍ عليه ليلقي نظرة على الشامان. ويمكن القول بأن هذا الصندوق لم يكن له وجه، لكن حتى من خلال التشوّش والغبش الناجمين عن الفطر أدرك الشامان والرعب يدب في دواخله أن الصندوق كان ينظر إليه. كانت نظرة تخلو من أي وداعة أو لطف. ولكم كان مذهلاً كيف لتثقب المفتاح وعدة ثقوب في صندوق خشبي أن تثير الخوف في النفس.

وما بثّ الراحة والاطمئنان في نفس الشامان هو أن الصندوق الخشبي لم يعبأ به وهز جانبيه، ثم مضى سالكاً طريقه بين الأشجار بخفة.

تذكر الشامان بجهد جهيد التسلسل الصحيح لحركات النهوض مرة أخرى، حتى إنه قد تمكن من حَظو بضع خطوات قبل أن ينظر إلى الأسفل ويستسلم لأنه لم يجد ساقيه.

في تلك الأثناء عثر رينسوينا في سيره على طريق مُلتف في جانب كبير منه، وكانت سعادته لتكون أكبر لو كان طريقًا معبدًا بالحجارة، لكنَّ سيره في هذا الطريق قد منحه شيئًا ليفعله.

حاول الكثير من الأشجار بدء حديث معه، إلا أن رينسوينا كان شبه متيقن بأن هذا لم يكن سلوكًا من طبيعة الأشجار وتجاهلها.

طال النهار، ولم يُسمع أي صوت سوى همهمات الحشرات اللاسعة المقززة الصغيرة، وصوت انكسار غُصن ساقط من شجرة بين الفينة والأخرى، وهمس الأشجار التي تتناقش في أمور عقيدتها وخلافها القائم مع السناجب. ثم بدأ شعور الوَحْدَة الشديدة يتسلل إلى رينسوينا. فقد تخيل نفسه يقطن الغابات إلى الأبد، ويفترش أوراق الأشجار ويأكل... ويأكل... أيما يوجد في الغابات. وضرب مثلًا بالأشجار والجوز والتوت. وسيضطر إلى فعل...

- رينسوينا!

من هنالك جاء توفلاور سالكاُ الدرب، والماء يقطر منه من شدة البلل، إلا أن وجهه شَعَّ بالابتسام. كان المتاع يهرول من خلفه (كلُّ شيء مصنوع من الخشب يتبع مالكة إلى أيِّ مكان واستُخدم كثيرًا هذا الخشب لصُنع أمتعة وصناديق المُرَفقات الجنائزية للموتى من الملوك فاحشي الثراء الراغبين في التأكد من بدء حياة جديدة في العالم الآخر بملابس تحتانية نظيفة).

زَفَر رينسويند، فحتى اللحظة الحالية لم يخطر له أن من الممكن أن يسوء اليوم أكثر من ذلك.

بدأ الجو يُمطر مطراً يُصيب بالبلل والبرودة. فاحتَمى رينسويند وتوفلاور تحت شجرة وجلسا يُشاهدانه.

- رينسويند؟

- اممم؟

- لماذا نحن هنا؟

- حسناً، يُشاع على ألسنة البعض أن خالق هذا الكون قد خلق القرص وكل ما عليه، ويُشاع على ألسنة آخرين بأنها قصة معقدة للغاية تتضمن أحشاء إله السماء ولبن البقرة المقدسة، حتى إن آخرين يعتقدون أننا كلنا نتاج التراكم العشوائي الكلي لجسيمات الاحتمالات. لكن لو كنت تسأل لماذا نحن هنا بدلاً من أن نسقط من القرص، فليست عندي أدنى فكرة عن هذا. على الأرجح الأمر كله خطأ ما فظيع.

- أوه، أظن أنه يوجد شيء ما يؤكل هنا في هذه الغابة؟

قال الساحر في مرارة: «أجل، نحن».

ردَّت الشجرة مُساعدة إياهما: «لديَّ بعض البلوطات هنا، إن أحببتما».

جلسا في صمت مطبق بضع لحظات.

- رينسويند، قالت الشجرة...

ردَّ رينسويند سريعاً: «ليس بمقدور الأشجار الكلام. وإنه لأمر مهمُّ

تذكر ذلك».

- لكنك سمعتَ لتوك...

تنهّد رينسويند، وقال: «انظر، يرجع الأمر كله إلى التركيب البيولوجي البسيط، أليس كذلك؟ فلو كان للمرء أن يتحدث فسيحتاج إلى الأعضاء المناسبة، مثل الرئتين والشفتين و... و...».

ردّت الشجرة: «الأحبال الصوتية».

ردّ رينسويند: «أجل، الأحبال الصوتية». ثم أطبق فمه وحدق إلى المطر في وجوم وكآبة.

قال توفلاور في استياء: «لقد ظننتُ أن السحرة عارفون بكل ما يخص الأشجار والأطعمة البرية وتلك الأشياء». قلّمًا أوحى أيُّ شيء في نبرة صوته بأنه يعتقد في رينسويند أي شيء آخر سوى أنه سَحَّارٌ بارع، وحفَرَ هذا الكلام الساحر.

ردّ بسرعة: «أجل، أجل أعرف».

سأله السائح: «حسنًا، من أيّ فصيلة شجرية تكون تلك الشجرة؟». رفع رينسويند نظره إلى الأعلى.

وأجابه إجابة قاطعة: «شجرة زان».

بدأت الشجرة حديثها: «في الواقع...»، ثم سكتت سريعًا. إذ قد لمحت النظرة المرتسمة على سيماء رينسويند.

قال توفلاور: «تلك الأشياء بالأعلى تبدو كأنها بلوطات».

قال رينسويند: «أجل، حسنًا هذه فصيلة اللاطئة أو سُبَاعِيَةِ الزهرة. تبدو الجوزات متشابهة إلى حد كبير مع البلوطات في الواقع. فقد يختلط الأمر على أي أحد في التفريق بينهما».

قال توفلاور: «يا إلهي، إذن ما تلك الشُّجيرة الموجودة هناك؟».

- هَدَال.

- لكنْ بها أشواك وتوت أحمر!

ردّ رينسوينا متجهماً وحقق إليه بشدة: «ثم؟». فحوّل توفلاور نظره عنه.

وقال بوادة متراجعاً عن إصراره: «لا شيء، لا بد أنني أُخبرتُ بمعلومات خاطئة».

- حسناً.

- لكنّ هنالك بعض فطر عيش الغراب تحتها. هل يمكنك تناوله؟
نظر رينسوينا إلى الفطر مُمعناً. فبالتأكيد كان حجمه كبيراً جداً، وكانت له قطنسوات مرقطة حمراء وبيضاء. كان الفطر في الواقع من فصيلة قد يتناولها الشامان المحلي -الذي كان في هذا الوقت على بعد عدة أميال، يكوّن صداقة مع صخرة ما- فقط بعد أن يربط ساقه أولاً بحبل إلى حجرة ما. ولم يكن ثمة بُدٌّ إلا بالخروج تحت المطر وتفحصه.
جثا رينسوينا على ركبتيه على طبقة الأوراق العفنة وأنعم في النظر إلى الجزء الواقع تحت قطنسوة الفطر. ثم بعد مدة قال واهناً: «لا، ليست صالحة للأكل أبداً».

نادى توفلاور من بعيد متسائلاً: «لم؟ هل ثمة خطب في درجة صفار خياشيم الفطر؟».

- لا، ليس تماماً...

- أظن أن السيقان ليس بها التموج الصحيح، في تلك الحالة.

- في الواقع، إنها تبدو جيدة.

قال توفلاور: «إنها القطنسوة إذن، أظن أن لون القطنسوة غير صحيح».

- لست متأكداً حيال هذا.

- حسناً إذن، لم لا تستطيع تناوله؟

سعل رينسويند، وقال مُحبطاً: «إن تلك الأبواب والنوافذ الصغيرة ستكشف لنا هذا الأمر».

ضرب الرعد في شتى أرجاء الجامعة الخفيّة، وانهمر المطر فوق أسقفها فخرج الماء مُقرقراً من مزاريب الجريجول الزخرفية، رغم أن واحداً أو اثنين من أكثر تلك الجريجول ذكاءً قد غادر هارباً بخطوات قصيرة وسريعة للاحتماء بين متاهة البلاط.

بعيداً جداً في الأسفل في القاعة الكبرى، اجتمع أقوى ثمانية سحرة في عالم القرص كل منهم يقف على زاوية من زوايا النجمة الثمانية المستخدمة في ممارسات السحر. في واقع الأمر لم يكونوا أقوى السحرة لو انكشفت الحقيقة، غير أنهم بالتأكيد تمتعوا بقوى بقاء عظيمة جعلتهم الأقوى في عالم السحر الذي يتمتع بتنافسية شديدة على النفوذ والمناصب. وهذا يسوّغ وجود بضعة سحرة من الرتبة السابعة مترصدين لقتل ساحر من الرتبة الثامنة، والحتمية التي تُوجب على كبار السحرة تطوير سلوك استقصائي متأهب للكشف، مثلاً، عن العقارب المدسوسة في فراشهم. وقد أوجز مَثَلٌ قديم حالهم في قوله: عندما يَمَلُّ الساحر ويكفُّ عن البحث عن شظايا الزجاج في طعامه، يكون قد سَيِّمَ الحياة.

استند الساحر الأكبر سنّاً جريهولد سبولد، رئيس الحكماء الأقدمين أصحاب الأصالة التابعين للدائرة الحصينة، بثقله إلى صولجانه المنحوت وجرى حديثه على هذا النحو:

- تابع العمل يا ويذرواكس، فقدماي تؤولماني.

حدق إليه جالدر الذي بالكاد توقف لإضفاء سكتة درامية.

- جيد جدًا، في هذه الحالة، سأحدث باختصار...

- حسنًا جدًا.

- جميعنا نبتغي النصح والإرشاد من أجل مُجريات هذا الصباح. هل منا من أحد قد تلقى أيًا منها؟

تبادل السحرة النظر شزرًا في ما بينهم. لا يمكن لمكان ما بعيدًا عن مكان انعقاد أمسية المنفعة الأخوية لاجتماع النقابات العمالية أن يزخر بالكراهية والشك المتبادل مثلما هو موجود بين جَمع من كبار السحَّارين. إلا أن الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن أحداث اليوم كانت مُروعةً للغاية. وكانت الشياطين، التي من عاداتها الإفصاح عن الأخبار والأحداث عند استدعائها فجأة من زنازين الأبعاد، مرتبكةً وانسلتْ خُلُسة عند طرح الأسئلة عليها. وتكسّرت المرايا السحرية. وغدتْ أوراق التاروت فارغةً وانمحت منها الرسوم والكتابة بصورة غامضة. وعمَّ الكرات البلورية الضبابُ فلم يظهر نبأ ولا خبر. وحتى أوراق الشاي التي لطالما استهزأ بها السحرة وعدّوها بلا فائدة وغير جديرة بالتأمل، قد تكدّست معًا في قاع الأكواب وأحجمت عن التحرك.

في مجمل القول، كان السحرة المجتمعين متخبطين في حيرة من أمرهم، وسرت غمغمة عامة توحى بإجماع السحرة.

قال جالدر بطريقة درامية: «وعليه، أقترح أن نُؤدي طقس أشكينت⁽¹⁾».

لا بُدَّ له أن يُقر بأنه كان يأمل الحصول على رد أفضل، شيء ما من قبيل، حسنًا، 'لا، ليس طقس أشكينت! ليس لابن آدم أن يعبث بمثل هذه الأمور!'.

(1) شعيرة استدعاء شخصية الموت. (الترجمة)

في الحقيقة، سُمِعَتْ غمغمة عامة تنمُّ عن الموافقة.

- رأي سديد.

- يبدو معقولاً.

- أقدم على فعل هذا، إذن.

استدعى جالدر وبه شيء من الإحباط من ردة فعلهم موكباً من السحرة الأضعف الذين أتوا حاملين أدوات سحرية عدّة إلى القاعة. وقد ألمح سابقاً أنه في هذا الوقت تدبُّ الخلافات بين أخوية السحرة بخصوص طريقة ممارسة السحر.

فقد ذهب السحرة اليافعون إلى القول بأنه قد حان الوقت لبدء السحر في تجديد صورته، وأن عليهم أن يتوقفوا عن إضاعة أوقاتهم في التعامل مع فتات الشمع والعظم ووضع الأمر كله في نصاب مرتب منظم، مع تطبيق برامج بحثية وعقد اجتماعات كل ثلاثة أيام في الفنادق الفاخرة حيث يمكنهم قراءة الصحف المعنونة بـ 'حال علم الرمل'⁽¹⁾ إلى أين؟، وكذلك عنوان 'دور حذاء الفراسخ السبعة'⁽²⁾ في مجتمع حريص، فمثلاً قلماً مارس تريمون أيّ سحر في الأيام الحالية لكنه أدار الجماعة بكفاءة فائقة وكتب العديد من المذكرات وعلق مخططاً كبيراً على حائط مكتبه مغطىً بنقاط وأعلام وخطوط ملونة لا يفهمها أحد غيره إلا أنها تستلب العقول.

(1) هو ضرب من العرافة يُستعان به لقراءة الغيب. (الترجمة)

(2) هو حذاء مشتق من التراث الفلكلوري يهبُ مرتديه قدرة سحرية على المشي بقدر سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة. (الترجمة)

أما الفصيل الآخر من السحرة فظنوا أن كل هذا بسبب كثرة غاز المستنقعات، ولا علاقة له بأي صورة إلا إذا كانت مصنوعة من الشمع وتنغرس فيها الدبابيس.

كان رؤساء الجماعات الثمانية يؤمنون بتلك القناعة، إذ كانوا جميعهم تقليديين، وكان للأواني المتكدسة حول زوايا النجمة الثمانية مظهر سحري غامض عملي. وكانت قرون الكباش والجماجم والمشغولات المعدنية ذات الطراز الباروكي والشموع الثقيلة ظاهرة للعيان، رغم اكتشاف صغار السحرة أن طقس أشكينت يمكن تأديته على أكمل وجه بالاستعانة بثلاث قطع خشبية صغيرة، وأربعة سم مكعب من دم الفئران فحسب دون الحاجة إلى كل هذا.

في العادة يستغرق التحضير بضع ساعات عدّة، لكنّ اجتماع قوى السحرة الكبار قد اختصر الوقت اختصارًا كبيرًا، فبعد أربعين دقيقة فحسب، ردّد جالدر الكلمات الأخيرة في التعويذة. وقد لاحت أمامه كلمات التعويذة لحظة في الهواء قبل أن تتلاشى.

لمع الهواء الموجود في مركز النجمة الثمانية وثُخن، وفجأة ظهر فيه جسم طويل أسود. كأن أغلب الجسم مخفي بعباءة سوداء وقلنسوة، وكان رداؤه لا بأس به على أي حال. وحمل في إحدى يديه منجلاً طويلاً، ولا يخفى على المرء ملاحظة أن ما يجب أن تكون الأصابع عندنا نحن البشر هي مجرد سلاميات بيضاء عنده.

أمسكت اليد العظمية الأخرى بعود من مكعبات الجبن والأناناس. قال الموت بصوت بارد معدوم المزية مثل جبل جليدي: ماذا هنالك؟ ولمح النظرة المرتسمة على وجوه السحرة، ثم خفض بصره ناظرًا إلى العود الذي في يده.

وأضاف بنبرة توحى بشيء من الاستياء: كنت أحضر حفلًا.

استهل جالدر الكلام بصوت حازم أمر: «يا مخلوق الأرض والظلام،
نأمرك بالأ توقع أدنى على أحد...».

فأوماً الموت، وقال: أجل، أجل، أعرف كل ذلك، لم استدعيتني؟
أجابه جالدر وعلى وجهه شيء من التجهم؛ ذلك لأن الحديث عظيم
القدر عن التقييد والاستحضار كان أمرًا محببًا إليه وقال الناس إنه بارع
فيه: «يُقال إنه يمكنك رؤية الماضي والمستقبل».

- هذا صحيح تمامًا.

فسأله جالدر: «إذن ربما بمقدورك إخبارنا بما وقع هذا الصباح؟».
واستجمع شتات ذاته وأضاف بصوت عالٍ: «أمرك بهذا باسم أزيمروث،
باسم تشيكيل⁽¹⁾، باسم...».

قال الموت: حسنًا، لقد بينت مقصدك، ما الذي ترغب في
معرفته على وجه التحديد؟ فقد حدثت العديد من الأمور هذا
الصباح، فقد وُلِدَ أناس ومات أناس وطالت جميع الأشجار قليلًا
وشكَّلت التموُّجات أشكالًا عجيبة على سطح البحار...
قال جالدر ببرود: «أعني بخصوص كتاب الأوكتافو».

- ذاك؟ أوه، كان هذا مجرد تصويب للواقع. أعني أن الأوكتافو
كان قلقًا حيال فقدان التعويذة الثامنة. إذ كانت التعويذة
تسقط من على القرص، على ما يبدو.

قال جالدر وهو يحكُّ ذقنه: «تريث، تريث. هل يدور الحديث عن تلك
التي بداخل رأس رينسويند؟ ذاك الرجل الطويل النحيل الهزيل؟ ذاك
الشخص...».

(1) أسماء كيانات خارقة للطبيعة لها إمرة على شخصية الموت. (المتريجة)

- ... ذاك الذي كان يحملها معه في كل الأرجاء طوال تلك السنوات، أجل.

علا العبوس وجه جالدر، إذ اتضح أن الأمر سيكلفهم الكثير من العناء. فمعروف لدى الجميع أنه بموت الساحر تتحرر كل التعاويذ الموجودة في رأسه، لذا لمَ الاهتمام بإنقاذ رينسويند؟ فالتعويذة ستطفو عائدة في نهاية المطاف.

قال بلا أيِّ تفكير: «أليدك أي فكرةٍ عن السبب؟»، وأضاف على عُجالة بعدما أدرك ذاته في الوقت المناسب: «باسم إبيرف وكتشرلا آمرك بألا توقع أذىً على أحدٍ وكذلك...».

قال الموت: أتمنى لو أنك تكفُّ عن فعل هذا. فكلُّ ما في علمي أنه يجب نطق التعاويذ معاً في ليلة الهوجسووتش⁽¹⁾ القادمة وإلا سيقتدمر القرص.

قال جريهولد سبولد مُطالباً: «تحدث يا أنت!».
ردَّ جالدر: «أخرس!».

- أنا؟

- لا، هو. ذاك السخيف الشيخ...

ردَّ سبولد من فوره في غضب: «لقد سمعتُ ذلك! أنتم أيها الشبان...». وأحجم عن الكلام. كان الموت ينظر إليه بإمعان، كأنه يحاول تذكر وجهه.

قال جالدر: «انظر، كرر هذا الجزء من كلامك ثانية، هلأ فعلت؟ سيحدث للقرص ماذا؟».

(1) ليلة تشبه ليلة عيد الميلاد في العالم الحقيقي، وترجمتها هي ليلة مشاهدة الخنازير، وأبو الخنازير هو الشخصية المقابلة لشخصية سانتا كلوز. (الترجمة)

أجابه الموت: يتدمر. هل لي بالذَّهَاب الآن؟ لقد تركتُ مشروبي.
قال جالدر سريعاً: «تريث، باسم تشيليلكي وأوريزون وكل هؤلاء، ما
الذي تعنيه بـ يتدمر؟».

- إنها نبوءة قديمة مخطوطة على الجدران الداخلية للهرم
العظيم تسورت⁽¹⁾. وتبدو كلمة يتدمر شارحة لنفسها تماماً
بالنسبة إليّ.

- أهذا كل ما عندك من خَبْر؟

- أجل.

- لكن يفصلنا عن ليلة الهوجسووتش شهران فحسب!

- الأمر كذلك.

- على الأقل بمقدورك إخبارنا بالمكان الذي فيه رينسويند الآن!

هزَّ الموت كتفيه. وكانت هذه إشارة تتناسب تماماً مع بنيته.

- غابة سَكْنَد باتجاه الحافة عند جبال رامتوب.

- ما الذي يفعله هناك؟

- شاعر بالأسى لحاله.

- أوه.

- والآن هل لي بالذَّهَاب؟

أوماً جالدر بالإيجاب، والتشتت والحيرة يملكانه. كان يفكر والندم
يملاه في طَقْسِ عِقَابِي، يبدأ بقول 'أغرب عن وجهي، أيها الشبح البذيء'،
وكان عنده من كلام يستهوي الآذان مما قد تمرَّس عليه، غير أنه بطريق
ما لم يجد الحماس لقوله.

(1) تسورت هي مملكة عالية الأسوار في قارة كلاتش. (الترجمة)

فأردف: «أوه، أجل. شكرًا لك، طبعًا». ولأنه يُحبذُ للمرء ألا يُعادي مخلوقات الليل، فقد أضاف بأدب: «أمل أن يكون حفلًا ممتعًا».

ولم يَجِرِ الموت جوابًا، إذ كان يحدق إلى سبولد كما يحدق الكلب إلى عَظْمَةٍ، وفي هذه الحالة فقط كان الوضع معكوسا بعض الشيء.

ردد جالدر بصوت عالٍ: «قُلْتُ أمل أن يكون حفلًا ممتعًا».

ردَّ الموت بنبرة تخلو من أي شعور: في الوقت الحالي هو كذلك.

أظن أنه قد يغدو الحفل أسوأ سريعًا بحلول منتصف الليل.

- لمَ؟

- لظنهم أنني في هذا الوقت سأظهر على حقيقتي.

ثم اختفى مخلفًا وراءه عودَ عصير الكوكتيل وشريطَ زينة ورقياً

قصيرًا فحسب.

كان هنالك شاهد متخفٌ على كل هذا. كان بلا شك مخالفًا للقواعد كليةً، غير أن تريمون فعل هذا عن عمد، فهو يعرف كل ما يتعلق بالقواعد، ولطالما عدَّها خُلقت لتُسَنَّ، لا لتتبع.

فقبل وقت طويل من انهماك السحرة الثمانية في جدال حاد حيال المقصود من كلام الشبح، كان قد نزل إلى الطوابق الرئيسية التي تضم مكتبة الجامعة الخفية.

كان مكانًا مثيِّرًا للعجب والذهول. ففيه العديد من الكتب السحرية، والشيء المهم تذكُّره هو أن كُتِبَ الجريموار تكون خِطْرَةٌ ومُميّتَةٌ في يد أيِّ أمين مكتبة مَوْلَعٍ بالنظام والترتيب، إذ إنه مُلْزَمٌ بوضعها جميعًا على الرف نفسه لأنها بنت صنف واحد. وهذا ليس بالرأي السديد عندما يكون الحديث عن الكتب التي كثيرًا ما يتسرب منها السحر، لأنه يُشكَلُ أكثر

من واحد أو اثنين من الكتب السحرية كتلةً سوداءً في غاية الخطورة. وإضافة إلى ذلك، كانت العديد من التعاويذ الأقل قوة شديدة الانتقائية للصحبة التي تُبقي عليها، وكثيراً ما تُبدي اعتراضها بإلقاء الكتب التي تكون التعاويذ موجودة فيها بوحشية في أرجاء القاعة. وقطعاً، دائماً ما كان هنالك حضورٌ شبه محسوس للأشياء القاطنة في زنازين الأبعاد، تحوم حول التسرب السحري وتداوم على تحسس جدران العالم الواقعي للولوج إليه.

وتتسم وظيفة أمين المكتبة السحري، الذي يقضي أيام عمله في ذاك النوع من الجوّ المشحون جداً، بأنها مهنة عالية الخطورة. كان أمينُ المكتبةِ الرئيسي الذي قد تحوّل الآن إلى قرد جالساً أعلى مكتبه يُقشّر برتقالة في هدوء، وكان على دراية تامة بهذا. ورفع بصره عند دخول تريمون.

قال تريمون: «أنا أبحث عن أي شيء في جعبتنا عن هرم تشوت». وقد أتى مستعداً، فقد أخرج ثمرة موز من جيبه.

نظر أمين المكتبة إلى الموزة وعليه أمارات الحزن، وارتدى أرضاً بكل ثقله مُمدداً على ظهره. ثم وجد تريمون يداً ناعمة انسلت برفق إلى يده وقاده أمين المكتبة إلى الطريق، متمائلاً في مشيته حزيناً كئيباً بين أرفف الكتب. كان إمساك يده أشبه بإمساك قفاز جلدي صغير.

أصدرت الكتب من حولهما أصوات هسهسة وراحت تبرق متلاثلة بفعل التفريغ العرَضِي لِشحنات السحر غير الموجّه الذي يومض، حتى يتجمع عند أقطاب التآريض الموضوعة بعناية والمثبتة بمسامير إلى الأرفف. فاحت رائحة زرقاء طفيفة كريهة وعلى مشارف الأسماع تصل الثرثرة المخيفة لمخلوقات الزنازين.

كحال الكثير من أقسام الجامعة الخفية شغلت المكتبة مكاناً أكبر بكثير عما توحى أبعادها الخارجية، ذلك لأن السحر يُشوّه المكان بطرق غريبة، وكانت على الأرجح المكتبة الوحيدة في هذا العالم التي تحتوي على أرفف مصنوعة من أشرطة موبايوس. لكن كان الفهرس العقلي لأمين المكتبة يعمل بسلاسة على نحو مثالي. فتوقف عند كومة من الكتب لها رائحة عفنة ترتفع في الهواء ثم بحركة مباغته قفز أمين المكتبة عاليًا في الظلام. سُمع صوت خشخشة الأوراق، وحطت على تريمون سحابة من الغبار. ثم بعدها عاد أمين المكتبة وفي يده مجلد بسيط الحجم.

قال: «أوك»⁽¹⁾.

أخذه تريمون بحذر شديد.

كان الغلاف مخدوشًا ومطويّ الزوايا في مواضع كثيرة، واللون الذهبي الذي يكسو حروفه قد زال منذ مدة طويلة، إلا أنه استطاع رؤية كلمات بلغة وادي تسورت السحرية القديمة:

المعبد العظيم المُسمى تسورت، تاريخ روحاني.

قال أمين المكتبة في قلق: «أوك؟».

قلّب تريمون الصفحات بحذر. فهو لم يكن ضليعًا في اللغات، إذ لطالما وجدها أشياء غير مجدية بدرجة كبيرة، وحقّ أن يُستبدل بها نظام رقمي سهل الفهم من نوع ما، لكنّ بدا أن هذا ما كان يرنو إليه. فقد وقع على العديد من الصفحات الكاملة التي تزخر بكتابة مفهومة باللغة الهيروغليفية.

قال بتأنٍ: «أهذا هو الكتاب الوحيد في حوزتك عن هرم تسورت؟».

(1) في قاموس أمين المكتبة الذي تحول إلى قرد كلمتان لا غير، وهما: أوك بمعنى نعم، وإييك بمعنى لا. (الترجمة)

- أووك.

- أنت متأكد تمامًا من هذا؟

- أووك.

أصغى تريمون. وتمكّن من التقاط صوت وقع الأقدام المقتربة والأصوات المتجادلة من مسافة بعيدة. لكنه قد أعدّ عدته لهذا أيضًا. ومدّ يده في جيبه.

ثم سأل أمين المكتبة: «هل ترغبُ في ثمرة موز أخرى؟».

كانت غابة سَكْنَد مسحورةً بلا ريب، وهو أمر لم يكن غريبًا في القرص، وكانت الغابة الوحيدة كذلك في الكون كله التي تُسمى -في اللغة المحلية- إصبعك أيها الأحمق، وهو ما كان المعنى الحرفي لكلمة سَكْنَد.

وكان السبب الكامن وراء هذه التسمية شائعًا جدًا إلى حد يدعو إلى الأسف. فعندما سافر المستكشفون الأوائل من الأراضين الدافئة المتاخمة للبحر الدائري قاطعين الأراضي النائية الباردة، فقد ملأوا الفراغات الموجودة في خرائطهم بالإمساك بأقرب فرد من السكان الأصليين تقع عليه أعينهم، ثم كانوا يشيرون إلى معلم ما بعيد، ويتحدثون بوضوح بصوت عالٍ، ويدونون أيّما يمليه عليهم الرجل المُرتبك. لذا فقد ترسّخت وخُلّدت في أجيال من الأطالس تلك النوعية من الغرائب الجغرافية المتمثلة في تلك المسميات التي تُطلق على الأماكن، مثل 'مجرد جبل' و'لا أعرف، ماذا؟' وطبعًا 'إصبعك أيها الأحمق'.

تجمعت سُحب الأمطار حول المرتفعات الجرداء لجبل أولسكنراهود (ومعناه في اللغة المحلية «مَن هذا الأحمق الذي لا يعرف ماذا يكون

«الجبل») وحط المتاع رحاله مستريحًا تحت شجرة تُقطر ماءً، وحاولتُ بلا جدوى أن تتجاذب معه أطراف الحديث.

كان توفلاور ورينسويند في خضم جدال في هذا الحين. وكان الشخص محلّ الجدل قد جلس على فطر عيش الغراب وراح يرقبهما بفضول. فقد بدا مثل شخص تفوح منه رائحة تشبه رائحة من اتخذ من فطر عيش الغراب بيتًا له، وقد أثار هذا ضيق توفلاور.

- حسنًا، لم لا يرتدي قبعة حمراء؟

حاز رينسويند، محاولًا بياس تصوّر ما يقصده توفلاور من كلامه. ثم سأله مستسلمًا: «ماذا؟».

أجابه توفلاور: «لا بدّ أن يرتدي قبعة حمراء. وطبعًا يجب أن يكون له مظهر مهندس نظيف عن هذا، ويعلو على ذلك أن تشع سيماءه بالبهجة والسرور. فلا تتجلى لي فيه صفات أقزام النّوم ذوي القبعات الحمراء⁽¹⁾».

- ما الذي تتحدث عنه؟

قال توفلاور بحزم: «انظر إلى تلك اللحية. لقد رأيتُ لحي أفضل في قطعة جُبِن».

قال رينسويند في غضب: «إن طوله يقرب من شبر أو يزيد، ويعيش في فطر عيش الغراب، طبعًا إنه قزم نُوم لعين».

- لا سبيل أمامنا إلا ما يقوله هو.

خفض رينسويند بصره ناظرًا إلى قزم النّوم.

وقال: «عذرًا». ثم اصطحب توفلاور إلى الجانب الآخر من الحقل.

(1) (Gnome) قزم ميثولوجي في الفلكلور الغربي يُقال إنه يعيش في أعماق الأرض ويحرس كنوزها. (المترجمة)

قال وهو يكرُّ أسنانه: «اسمع، لو أن طولَه يقرب من ستة أمتار وقال إنه عملاق، أكنا لنثق بكلامه بخصوص هذا أيضًا، أكنا لنفعل؟». أجابه توفلاور في تحدُّ: «ربما يكون عفريتًا».

عاد رينسوينا بصره إلى الجسم النحيف، الذي كان يزيل المخاط من أنفه بإصبعه بجديّة.

قال: «حسنًا؟ وإن يكن؟ قزم نُوم، عفريت، جنية، وإن يكن؟».

قال توفلاور بصرامة: «ليس جنيّة. فالجنيا تُتردي ذاك المزيج من الملابس الخضراء وتردي تلك القبعات الحادة، ولها تلك الهوائيات الصغيرة كثيرة العقد التي تبرز من رؤوسها. لقد رأيتُ صورًا لها».

- أين؟

تردد توفلاور ونظر إلى قدميه، وقال: «أظن أن اسمها كان ال'تمتمة، تمتمة، تمتمة».

- ال ماذا؟ اسمها ال ماذا؟

واسترعى الرجل الصغير اهتمام مفاجئ بظهري يديه.

تمتم توفلاور: «كتاب جنيا الأزهار للقوم الصغار».

خلا وجه رينسوينا من أي تعبير.

ثم سأله: «أهو كتاب عن كيفية تجنبها؟».

أجابه توفلاور بسرعة: «أوه، لا. إنه يسرد لك أماكن البحث عنهم.

تسغفني ذاكرتي بصورهم الآن». وارتسمت على وجهه سيماء حالم

غارق في الأحلام، وكظم رينسوينا غيظه. استطرده توفلاور: «كانت ثمة

جنية متخصصة تأتي لتأخذ أسنانك».

- ماذا، تأتي وتنزع أسنانك الحقيقية...؟

- لا، لا، أنت مخطئ. أقصد بعد سقوطها، فما تفعله أنت هو، وضع السن أسفل وسادتك وتأتي الجنية وتأخذها وتترك مقابلها عملة رينو⁽¹⁾».

- لم؟

- لم ماذا؟

- لم تجمع الجنية الأسنان؟

- هذا عملها فحسب.

كُون رينسوينا صورةً ذهنيةً في عقله لكيان غريب من نوع ما يقطنُ قلعة مصنوعة من الأسنان. كانت الصورة من تلك النوعية التي يحاول المرء نسيانها، لكن بلا جدوى.

ثم قال: «تبا».

قبعاتُ حمراء! تساءل رينسوينا أكان عليه تنوير الساحر بما كانت عليه طبيعة الحياة لَمَّا كان الضفدع يمثلُ وجبة طعام طيبة، وعن مدى نفع جحر الأرنب كمكان يؤوي إليه المرء محتمياً من المطر، وعن البومة وكونها مصدرَ رعبٍ صامتٍ سابحٍ في ظلام الليل. بدا البنطال المصنوع من فرو الخلد غير مألوف إلى حد يثير الإعجاب إلا حال لزم على المرء خلعُه عن الخلد مالكة الأصلي بنفسه عندما يكون البغيض المتوحش الصغير مُحاصراً في جُحره. وأما بخصوص القبعات الحمراء، فأَيُّ أحد يتجول مُشعاً بالبهجة والبهاء في أرجاء غابة ما، فتلك البهجة والبهاء لن يدوماً طويلاً.

أراد أن يقول: انظر، إن حياة الأقرام والعفراريت مقززة وبهيمية وقصيرة. ومن ثمَّ هم كذلك.

(1) عملة ذهبية في إمبراطورية العقيق أو الأجتية. (المتجمة)

أراد قول كل تلك الأمور، لكن لم يقوَ على ذلك. فالرجل يتوق إلى رؤية الأبدية كاملة ويحيا حياة تامة، فإن توفلاور مُغيب عن الواقع تمامًا. وسيكون إخباره بالحقيقة أمرًا بالغ القسوة.

ثم قال صوت بجوار قدمه: «سوي هوي وييدل وييت». فنظر إلى الأسفل. ورفع قزم النُّوم الذي قَدَّمَ نفسه باسم سوايرز بصره إلى رينسويند. وكان رينسويند قد حُبي بملكة فهم اللغات واستيعابها. فما قاله قزم النُّوم لتوّه كان: «لديّ بعض شربات سمندل الماء متبقٍ من يوم أمس».

قال رينسويند: «يبدو شيئًا رائعًا».

لكزه سوايرز لكزة أخرى في كعبه.

ثم سأله سؤالًا ينم عن اكتراث: «ذاك الآخر الكبير، هل هو على ما يرام؟».

فأجابه رينسويند: «إنه يعاني فحسب صدمة الواقع».

- أنت لا تملك قبعة حمراء، على أي حال؟

- وييت؟

- مجرد خاطر خَطَر لي.

قال قزم النُّوم: «أعرف مكانًا يوجد به طعام لكبار الجسم، ومآوي كذلك. وهو ليس ببعيد عن هنا».

رفع رينسويند بصره إلى السماء المكفهرة والملبدة بالغيوم. كان ضوء النهار ينسحب من الأفق وبدأت الغيوم كأنها قد عرفت ما الثلج وراحتُ تفكر في أن تنتثر بعضه. وطبعًا، لم يكن قاطنو فطر عيش الغراب محلّ ثقة تمامًا، غير أنه في الوقت الحالي وجود فخٍ به وجبة

ساخنة وفراش وثير نظيف كطعم يُستدرج به كان ليجعل الساحر يُقاتل من أجل الوقوع في هذا الفخ.

لذا فقد انطلقوا في طريقهما. بعد بضع ثوانٍ، هبَّ المتاع على قدميه بحذر وبدأ في المشي وراءهم.

- بَست!

فاستدار الصندوق في حذر وكانت سيقانه الصغيرة تتحرك في نمط سير معقد، وبدأ أنه ينظر إلى الأعلى.

قالت الشجرة بنبرة تنم عن قلق: «أهو أمر جيد، أن تكون من المشغولات الخشبية؟ هل الأمر مؤلم؟».

بدا أن المتاع يفكر في السؤال. وراح كل مقبض نحاسي، كل ثقب في جسم الصندوق يظهر تركيزًا شديدًا في إجابة هذا السؤال.

ثم هزَّ غطاءه وأخذ يتهادى في مشيه مبتعدًا عن المكان.

تنهدت الشجرة، واهتزت لتنفض الأوراق الميتة عن أغصانها الصغيرة.

كان الكوخ صغيرًا ومتداعيًا وكثير الزخرفة مثل مفرش المائدة. فخلَّص رينسوينا إلى أن حَفار خشب غاضب أُجبر على العمل في الكوخ، وقد أحدث فوضى عارمة قبل أن يجروه بعيدًا. ورسم على كل باب وكل مصراع نافذة عناقيد عنب وأشكال أهلة خشبية، إلى جانب انتشار كبير لمجموعات من أكواز الصنوبر ذات النقش الشبكي على أنحاء الجدران. وكان رينسوينا شبه متوقع لخروج وقواق عملاق يندفع من النافذة العليا.

وكان مما لاحظته رينسوينا كذلك، هو الإحساس اللزج المميز في الهواء. وومضت شرارات صغيرة خضراء وأرجوانية من أظفاره.

تمتم: «مجالٌ سحريٌّ قوي، مئة مليون⁽¹⁾* على الأقل».

فقال سوايرز: «السحر منتشر في جنبات الكوخ، فقد عاشت ساحرة قديمة في هذه الأرجاء، وقد ماتت منذ زمن طويل لكنَّ السحر لا يزال يُدير المنزل».

قال توفلاور: «هنا، يوجد شيء غريب حيال هذا الباب».

سأله رينسوينا: «لَمْ قد يحتاج منزل ما إلى السحر حتى يبقى موجودًا؟». ولمس توفلاور أحد الجدران في حذر شديد.

- إنه دبق بأكمله!

قال سوايرز: «حلوى النوجا».

- يا للروعة! كوخ حقيقي مصنوع من كعك الزنجبيل! رينسوينا، كوخ حقيقي...

أوما رينسوينا في كآبة، وقال: «أجل، صُمِّم وفق نهج جامعة السكاكر المعمارية. لم ينجح قط».

ونظر بارتياح إلى مقرعة الباب المصنوعة من حلوى العرقسوس.

قال سوايرز: «إن الكوخ يُجدد نفسه، وإنه لباهر بحق. ولا يحظى المرء بمثل هذا المكان هذه الأيام، بل حتى لا يمكنك الحصول على كعك الزنجبيل».

ردَّ عليه رينسوينا متسائلًا حزينًا: «حقًا؟».

(1) * الثَّم هي الوحدة الأساسية لقوة السحر. وقد تقررت عالميًا على أنها قدر السحر المطلوب لإنشاء حمامة بيضاء صغيرة أو ثلاث كرات بلياردو من الحجم العادي.
(المؤلف)

قال قزم النُّوم: «هَلَمَّا إِلَى الدَاخِل، لَكِنِ انْتَبِهْهَا لِمَسْحَةِ البَابِ».

- لَمْ؟

- لَأَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مِنْ حَلْوَى غَزَلِ البَنَاتِ.

دار القرص العظيم ببطء تحت شمس الكادحة، وتَجَمَّع ضوء النهار في الأودية ثم انزوى في نهاية المطاف ليرخي الليل سدوله.

انكبَّ تريمون في غرفته الباردة في الجامعة الخفية على الكتاب يقرأه في حرص، وكانت شفتاه تتحركان فيما يتتبع بإصبعه النص غير المألوف القديم. قرأ أن هرم تسورت العظيم، الذي اختفى أثره الآن منذ أمد بعيد، كان قد بُنِيَ من مليون وثلاثة آلاف وعشرة أحجار بناءً جيريَّة. وقرأ أن عشرة آلاف عبدٍ قد عملوا في بنائه حتى لاقوا مصرعهم. وعرفَ أن الهرم كان بمنزلة متاهة كوَّنتها الممرات السرية التي بداخله، ويُشاع أن جدران الممرات نُقِشَتْ عليها الحِكم الخالصة لمملكة تسورت القديمة. كما قرأ أن ارتفاعه زائد طوله مقسومًا على نصف عرضه يساوي بالضبط 1.67563 أو على وجه الدقة 1237.98712567 أضعاف الفرق بين البُعد بين الشمس ووزن برتقالة صغيرة. وعرف أنه قد كُرِّسَتْ ستون سنة كاملة لبنائه.

فكر تريمون: لقد تُكَلَّف الكثير من المشاق في بناء الهرم فقط من أجل سَنِّ شَفَرَاتِ الأَنْصَالِ.⁽¹⁾

(1) وفق خرافية أسطورية تسمى قوة الأهرام، فإن للهرم القدرة على حفظ الطعام وسنِّ الأنصال أو الحفاظ على حدتها والحفاظ على الصحة وغيرها. (المترجمة)

وفي غابة سَكَّند، حطَّ توفلاور ورينسويند رحالهما ليتناولوا وجبة كعكة الزنجبيل التي على شكل رف الموقد، وفكرا باشتياق في مخلل البصل.

وبعيدًا جدًّا، لكنْ كَمَنْ قُدِّر له أن يسلك مسارًا تصادميًا، لَفَّ أعظم بطل أنجبه القرص على الإطلاق لنفسه سيجارة، غير دارٍ تمامًا بالدور الذي يخبئه له القدر.

لقد كانت سيجارةً ملفوفةً ببراعةٍ إذ برَمها بمهارة الخبير بين أصابعه، شأنه شأن العديد من السحرة الجِوالَة الذين أخذ عنهم هذا الفن، فقد اعتاد الاحتفاظ بأعقاب السجائر في حقيبة جلدية ولَفَّها لتكون سجائر جديدة. وتقرر وفق قانون المتوسطات الذي لا هواده فيه أن بعض هذا التبغ قد استدام تدخينه لسنوات حتى الآن. وكان الشيء الذي يحاول إشعاله بلا فائدة، حسنًا، كالزفتِ بإمكانك دهن الطُّرق به.

ومن شدة ذبوع سُمعة هذا الشخص كان يدعوهِ الخيَّالة الرُّحل البرابرة بكل إجلال لينضم إليهم في مجلسهم حول نارهم الموقدة من روث الخيل. ويرتحل رَحالة أرضي المحور في أغلب أحوالهم تجاه الحافة لقضاء موسم الشتاء، وكانت تلك ناحية من نواحي قبيلة قد نَصَبوا خيامهم المنسوجة من اللبَّاد في موجة الحر اللافحة التي تبلغ عند أدنى حد لها أقل من 3 درجات وكانوا يتجولون بأنوفهم المتقشرة ويشتكون ضربات الشمس.

قال زعيم القبيلة البربري: «إذن ما أعظم الأشياء التي قد يجدها المرء في الحياة؟». وكان هذا نوعية الكلام الذي ينبغي للمرء قوله لضمان قَبوله بين أهل السهول في الأوساط البربرية.

وانطلق لسان الرجل عن يمينه الغارق في أفكاره وهو يشرب خليطاً حليب الفرس ودم القط الثلجي على النحو التالي: «أفق السهل المنعش البارد، مغامرة ممتعة في الهواء الطلق، حصان جامح تمتطيه».

فقال الرجل عن يساره: «صيحة النسر الأبيض في أعالي المرتفعات، تساقط الثلوج في الغابات، سهم صائب في قوسك».

أوماً زعيم القبيلة، وقال: «بلا ريب إنه مشهد مقتل عدوك وذُل قبيلته ونواح نسائه».

وانتشرت غمغمة عامة توحى بإجماع الرجال ذوي الشوارب على هذا الاستعراض الشائن.

ثم التفت زعيم القبيلة في إكبار وإجلال لضيفه، الذي كان رجلاً ذا بنية صغيرة ويدفئ أصابعه المتورمة من الشرث قرب النار، وقال: «لكنَّ ضيفنا الذي يمثل اسمه أسطورة من أساطير الزمان، لا بُدَّ له أن يُخبرنا على وجه الحقيقة: ما الأمور التي للمرء أن يُسميها أعظم الأشياء في الحياة؟».

توقف الضيف في منتصف محاولة أخرى غير ناجحة لإشعال السجارة.

سأله الضيف الأثرم: «ماشًا⁽¹⁾ تقول؟».

- لقد قلت: ما الأمور التي للمرء أن يُسميها أعظم الأشياء في الحياة؟ مال نحوه المحاربون، فمثل هذا الكلام حري أن يُنصت له.

فكر الضيف ملياً وجدياً، ثم قال بعد طول تفكير: «الماء الحار والعناية الجيدة بالأسنان ومناديل مرحاض ملشاء».

(1) مع هذه الشخصية تُقلب كل الحروف القريبة من مخارج الأسنان إلى شين لفقدانه أسنانه. (المترجمة)

توهج ضوء بلون الأوكتارين الباهي في مسبك الحدادة. زرَّ جالدر
ويذرواكس العاري حتى خصره بوجهه المخبأ خلف قناع من الزجاج
المشوب بالدخان عينيه في الوهج ونزل بمطرقة بدقة بالغة. فصرخ
السحر وتلوى في قبضة الملقط، لكنه نجح في طرقه، ساحبًا إياه إلى
خط من النيران المستعرة.

أصدر لوح من ألواح الأرضية صريرًا. وقد قضى جالدر غير ساعة
يضبط إيقاعها، فقد كان ذلك إجراءً احترازيًا داوم عليه مع وجود مساعد
طموح مُتطلع يمشي بخفة كالقطط.

ري بيمول⁽¹⁾. ما دل على أنه كان عن يمين الباب تحديدًا.

قال: «آه، تريمون»، دون التفات وقد لاحظ ببعض الرضا شهيقة
المتهدج من خلفه. وتابع: «من الجيد أنك أتيت. أغلق الباب، هلا فعلت؟»
دفع تريمون الباب الثقيل ووجهه يخلو من أي تعبير.

وفوق رأسه على الرف المرتفع أخذت العديد من المُستحيلات المعبأة
تتقلب وتتمرغ في جرار المخللات وراحت ترقبه في اهتمام.

وكشأن ورش كل السحرة، بدا المكان كأن مُحنطًا ما قد أسقط
كل مؤنه في مشغل حديد ثم اشتبك في عراك مع نافخ زجاج شديد
الغضب، ضاربين تمساحًا مارًا بهما على رأسه في أثناء العراك (كان
التمساح يتدلى من السقف وفاحت منه رائحة الكافور النفاذة). كما
كانت هنالك مصابيح وحلقات رغب تريمون بشدة في فركها، ومرايا
يبدو كأن بإمكانها مبادلتك النظرات. وتقلب حذاء الفراسخ السبعة بلا
سكون في قفصه. وأصدرت مكتبة كاملة من كُتب جرايموار السحر،
التي طبعا ليست بقوة كتاب الأوكتافو لكنها لا تزال مُثقلة بالتعاونيد،

(1) نغمة من نغمات السُّلم الموسيقي. (المترجمة)

خشخشة وصَرَّتْ سلاسلها لما استشعرت نظرة الطمع والتطلع التي رمقها الساحر بها. وقد أثارت القوة المجردة لتلك الكتب الحماس في نفس الساحر كما لم يسبق لأي شيء فعل ذلك، ولم يمنعه هذا من ازدياد تلك الفوضى وجس جالدر الدرامي.

ومثال على ذلك، حدث أن عرف لما رشى أحدَ الخدم أن السائل الأخضر المُبقب على نحو غريب في متاهة سلسلة الأنايبب الملتفة والملتوية كان مجرد صبغة خضراء بها صابون.

فَكَّرَ في نفسه قائلاً: ذاتَ يوم سينتهي كل ذلك. بدءاً من ذلك التمساح اللعين. وتملكته حالة من الرعب الشديد...

قال جالدر مبتهجاً وهو يعلق منزره ويجلس مسترخياً في كرسيه الذي له ذراعان من مخالب الأسد ورجلان من أرجل البط: «حسناً إذن، لقد أرسلت إليّ ذاك الشيء الميمي».

هَزَّ تريمون كتفيه، وقال مُصححاً: «مذكرة. لقد ألمحتُ فحسب يا سيدي إلى أن الجماعات الأخرى قد أرسلتُ أتباعها إلى غابة سَكَّند من أجل إعادة الإمساك بالتعويذة، في حين أنك لم تُقدم على فعل أي شيء. ولا شك في أنك ستكشف عن أسبابك في الوقت المناسب».

ردَّ عليه جالدر: «إيمانك يُخجلني».

قال تريمون له: «سيجلب الساحر الذي يُمسك بالتعويذة مجدداً تليداً لنفسه ولجماعته. وقد استعان الآخرون بالأحذية وجميع سبل الاستعانة بالتعاون من كل حذب وصوب. فما الذي يقترحه سيادتكم لنستعين به؟».

- هل أستشعر مسحة من السخرية في كلامك؟

- قطعاً، لا سيادتكم.

- ولا حتى مثقال ذرة؟

- ولا حتى مثقال حبة من خردل سيادتكم.

فردَّ جالدر قائلاً: «جيد. لأنني لا أقترح الذَّهاب». ومدَّ جالدر يده والتقط كتاباً قديماً. وتمتم بأحد الأوامر ثم صرَّ الكتاب مفتوحاً، فرجعت علامة تصفح الكتاب التي تُشبه اللسان إلى حد مريب بحركة سريعة مفاجئة إلى التجليد.

تحسس جالدر بيده مكاناً بالأسفل جانب الأريكة ثم أخرج حقيبة جلدية صغيرة بها تبغ وغلليون بحجم محرقة قمامة. وبمهارة مدمن شديد على النيكوتين، حكَّ لفة من التبغ بين يديه وحشا بها الفوهة. ثم طرّق أصابعه فتوهجت منها نارٌ. فسحب نفساً عميقاً، ثم أخرجه والشعور بالرضا التام يغمره...

...ثم رفع بصره.

- أما زلت هنا يا تريمون؟

ردَّ عليه تريمون بنبرة بنبرة فاترة: «لقد استدعيتني يا سيدي»، أو هذا ما قاله صوته. لكن بدا في عمق عينيه الرماديتين بريق خافت يوحي بأن تريمون قد احتفظ بقائمة أدرج فيها كل احتقار وكل بريق استعلاء وكل توبيخ مستتر باللباقة واللفظ وكل لمحة مدروسة مخادعة صدرت من جالدر، ومقابل كل واحدة منها كان مصير دماغ جالدر أن يوضع حياً في الحمض لمدة عام.

قال جالدر مفعماً بالسرور: «أوه، أجل، فعلت هذا. الفكاهاة نقيصة في حق الشيخ». ورفع الكتاب الذي كان يطالعه.

وقال: «أنا لا أتفق مع كل هذا الذي يجري. فإضاعة الوقت بامتطاء البُسط السحرية وكل تلك الأشياء شيء درامي للغاية، لكن هذا ليس

ضربًا حقيقيًا من السحر في رأيي. على سبيل المثال، حذاء الفراسخ السبعة في هذه اللحظة. فلو كان الإنسان خُلِقَ ليمشي ما يقرب من أربعة وثلاثين كيلومترًا في الخطوة الواحدة، فأنا على يقين بأن الإله كان ليمنحنا سيقانًا أطول... في أيِّ موضع كنتُ أنا؟

أجابه تريمون بنبرة باردة: «لستُ متأكدًا».

- آه، أجل، غريب أننا لم نعثر على شيء بخصوص هرم تسورت في المكتبة، كنتَ لتظن أنه سيكون ثمة شيء، أليس كذلك؟

- قطعًا سيُعاقب أمين المكتبة.

فنظر جالدر إليه مرتابًا، وقال: «لا تقسو عليه، قد تمنع عنه الموز فحسب».

وتبادلا النظرات مع بعضهما لحظةً.

أشاح جالدر بصره أولاً، إذ إن إمعان النظر إلى وجه تريمون دائماً ما أرقّه. فالنظر إليه له التأثير المربك ذاته كأن ينظر المرء إلى المرأة ولا يجد فيها انعكاسًا.

- على أي حال كان غريبًا بما يكفي أنني وجدت المساعدة في مكان آخر. في رف كتبي المتواضع في الحقيقة. مذكرات سكريلت تشاينجباسكت، مؤسس جماعتنا. وأنت، يا رجلي الصغير المجتهد الذي سيغادر على عجلة عما قريب، أتعرف ما الذي يحدث عند موت أحد السحرة؟

- أي تعاويد قد حفظها تنطق نفسها. إنه من أوائل الأشياء التي نتعلمها.

- في الواقع هذا ليس صحيحًا بالنسبة إلى التعاويد الثمانية العظيمة الأصلية. فقد عَرَفَ سكريلت بالدراسة الممعنة أن واحدة من

التعويذات العظيمة ستلجأ ببساطة إلى اتخاذ أقرب عقل مفتوح
ومستعد لاستقبالها مسكناً لها. ادفع المرأة الكبيرة إلى هنا، هلا
فعلت؟

هَبَّ جالدر واقفاً وراح يمشي مجرّباً قدميه إلى أن وصل إلى مسبك
الحدادة الذي كان قد برّد في هذه اللحظة. كان خيط السحر لا يزال
يَتَلَوَّى، رغم ذلك، فهو موجود وغير موجود في آن واحد، مثل مَقْطَع
طولي في عالم آخر يشع بضوء أزرق ساخن. فالتقطه بسهولة وأخذ
قوساً طويلاً من على أحد الأرفف ثم نطق بكلمة من كلمات القوة، وشاهد
في رضا السحر وهو يقبض على طرفي القوس ثم شدد في التصاقه به
حتى صرَّ الخشب. ثم اختار سهماً.

شدَّ تريمون مرآة ثقيلة طويلة بكل قوته إلى منتصف الأرضية. وقال
لنفسه: عندما أكون رئيس الجماعة، لن أمشي أجرد قدمي مرتدياً خفاً
نسيجياً.

شعر تريمون، كما ذُكِرَ قبلاً، أنه يمكن للشباب فعل الكثير حال جرى
التخلص من الرؤساء القدماء الشيوخ لكن، للحظة الآتية، كان مهتماً
اهتماماً بالغاً برؤية ما سيفعله الشيخ الأخرق تالياً.

وربما قد استشعر بعض الرضا لو أنه عرف أن جالدر وسكيرلت
تشاينجباسكت كانا مخطئين تماماً.

مرَّ جالدر من أمام المرأة عدة مرات، والتي تلبدت بالغيوم ثم ما لبثت
أن انقشعت لتُظهر مشهداً جويّاً لغابة سَكُنْد. نظر إليها بإمعان وهو
ممسك بالقوس وموجه السهم إلى السقف بطريقة مبهمة. وتمتم ببضع
كلمات مثل: 'ضع في الحسابان سرعة الرياح، لنقل، ثلاث عُقد' و'ضع
في الحسابان درجة الحرارة'، ثم، بحركة مخيبة للآمال، أطلق السهم.

لو كان لقوانين الفعل وردُّ الفعل صلة بالأمر، لسقط السهم على الأرض على بُعد عدة أمتار. إلا أنه لم يكن أحد يُعير هذه القوانين أي اهتمام.

اختفى السهم مصدرًا صوتًا يستعصي على الوصف، لكن للإلمام بكل الجوانب يمكن وصف الصوت بـ 'حاد!' إضافة إلى ثلاثة أيام من العمل الجاد في أي ورشة صوتية إذاعية مجهزة تجهيزًا مناسبًا.

رمى جالدر القوس جانبًا وابتسم: «قطعًا، سيستغرق قرابة الساعة حتى يصل إلى هناك. بعدها ستتبع التعويذة ببساطة المسار المتأين راجعة إلى هنا، إليّ».

- مذهل، لكن يمكن لشخص مار بهما وله قدرة على التخاطر أن يقرأ نصًّا على علوِّ عشر ياردات ما قاله تريمون في نفسه: إذا كان أنت، فلم لا يكون أنا؟ وخفض بصره إلى منضدة العمل الفوضوية، حيث كان ثمة خنجر طويل وحاد للغاية يبدو أنه قد صنُع خصوصًا للغرض الذي انبثق فجأة في عقل تريمون.

لم يكن العنف أمرًا يحبه تريمون حتى يتورط فيه، إلا إذا تورط فيه شخص آخر. غير أن هرم تسورت كان واضحًا تمام الوضوح بخصوص العطايا التي سينالها من يأتي بالتعاونيد الثمانية كلها معًا في الوقت المناسب، ولن يدع تريمون سنوات من العمل الدؤوب تذهب سُدى لأن شيئًا أخرق ما خطرت له فكرة نيرة.

قال جالدر وهو يعرج ماشيًا في الحجرة وصولًا إلى جرس الخدم: «أتريد بعض شراب الكاكاو في أثناء انتظارنا؟».

قال تريمون: «طبعًا». والتقط الخنجر وراح يُقدِّر ثقله في يديه من أجل معرفة توازنه ودقته. واستطرد: «عليّ تهنئتك يا سيدي، أرى أن علينا جميعنا أن نستيقظ في الصباح الباكر حتى نتغلب عليك».

ضحك جالدر. وترك الخنجر يد تريمون بسرعة فائقة حتى إنه -بسبب طبيعة ضوء القرص المتكاسلة نوعًا ما- قَصُرَ طوله قليلًا وزادت كتلته بعض الشيء وهو يندفع في الهواء، بتصويب بالغ الدقة، نحو عنق جالدر.

غير أن الخنجر لم يصل إلى عنق جالدر. فبدلاً من ذلك انحرف إلى أحد جوانب عنقه وراح يدور في مدار سريع -سريع للغاية- حتى بدا جالدر فجأة كأنه يرتدي طوقاً معدنيًا. وحانت منه التفاتة، فبدا لتريمون أن طوله قد زاد عدة أمتار وزادت قوته أكثر فأكثر.

توقف الخنجر عن الدوران ثم انغرس في الباب وراح يهتز على بُعد مسافة لا تذكر من أذن تريمون.

ثم قال جالدر في سرور: «في الصباح الباكر؟ ستحتاج إلى الاستيقاظ طوال الليل يا فتاي العزيز».

قال رينسويند: «أكمل طعامك».

ردَّ عليه توفلاور: «لا، شكرًا، لا أحب المرصبان، وعلى كل حال، أنا على يقين أنه لا يصح أكل أثاث الآخرين».

قال سوايرز: «لا عليك، فالمشعوذة العجوز لم تُرْ منذ سنوات. إذ يُقال إن بضعة يافعين مشاكسين قد قضاوا عليها تمامًا».

علق رينسويند: «صغارُ هذه الأيام».

قال توفلاور: «أنا ألوم على الوالدين».

حالما يتكيف المرء ذهنيًا كما ينبغي، يغدو كوخ كعك الزنجبيل مكانًا مبهجًا للغاية. فبقايا السحر تُبقية قائمًا وكانت تتجنبه الحيوانات البرية المحلية التي لم تقضِ نحبها بفعل نخر الأسنان الكلي. احترقت نار

حَطَب شجر العرقسوس الزاهية بصورة فوضوية للغاية في المُصطلى، حاول رينسويند أن يُجمع الخشب من الخارج، غير أنه قد تخلى عن هذه الفكرة. فصَعِب على المرء أن يحرق الخشب الذي يتحدث إليه.

تجشأ رينسويند: «هذا ليس صحيحاً أبداً، أقصد، لم الحلوى بعينها التي صُنِع منها المنزل؟ لم لا يكون خبزاً محمصاً بلا سكر ومعه جبن؟ أو سَلامي، الآن؛ كنت لأحب أريكة جميلة من السَلامي».

قال سوايرز: «لا أعرف. لم تصنع جراني ویتلو العجوز سوى الحلوى، وكان عليك أن تتذوق كعك المرينج الذي كانت تصنعه...».

فقال رينسويند: «لقد فعلتُ. لقد لاحظت مرتبة السرير...».

قال توفلاور: «إن كعك الزنجبيل تقليدي أكثر».

- ماذا؟ لمراتب السرير؟

قال توفلاور بعقلانية: «لا تكن سخيّاً، فَمَن الذي قد سمع بمرتبة سرير مصنوعة من كعك الزنجبيل؟».

نَخر رينسويند، إذ كان يفكر في الطعام، أو للدقة، الطعام في عنخ-موربورك. فمضحك أن يكون مكانه القديم أكثر جاذبية كلما بَعُد عنه. كل ما يملكه هو أن يُغمض عينيه ليتخيل، بتفاصيل تُسيل لعابه، أكشاك الطعام من مئات الثقافات المختلفة في أماكن السوق. إذ يمكن للمرء أن يتناول حَساء الإسكويشي أو زعانف سمك القرش الطازج جدّاً لدرجة أن السباحين لا يجرؤون على الاقتراب منها، وكذلك...

سأله توفلاور: «أتظن أن بمقدوري شراء هذا الكوخ؟». تردد رينسويند، فدوماً ما يظن أن التفكير بعناية قبل الإجابة عن تساؤلات توفلاور التي تصيبه بذهول كبير أمرٌ يستحق العناء.

رَدَّ متسائلاً في حذر: «لأي غرض؟».

- حسنًا، لأنه مفعم بالأجواء الغريبة.

- أوه.

سأل سوايرز: «أيُّ جوِّ؟»، وراح يُشمشم في حذر وارتسم على وجهه تعبير من نوع ما يقول بأنه لم يفعلها، أيّما كان ذلك.

ردّ عليه رينسويند: «أظن أنه ضفدع ما، فعلى أي حال، لا يمكنك شراء هذا الكوخ لأنه ليس هنالك أحد تبتاعه منه...».

قاطعته سوايرز قائلاً وهو يحاول تحاشي نظرة رينسويند: «أظن أنني بمقدوري ترتيب أمر الشراء، نيابة عن مجلس إدارة الغابة بالتأكيد».

قال رينسويند مشيرًا إلى المتاع: «...وعلى أي حال، لا يمكنك أخذه معك، قصدي أنه يتعذر عليك حزمه في المتاع، أليس كذلك؟»، كان المتاع يرقد بجوار النار وتأتى له بطريقه ما مستحيلة أن يبدو مثل نمرٍ شبعان لكنه متيقظ، ثم عاود النظر إلى توفلاور. بدت على وجهه أمارات الحزن والإحباط.

وردّد: «أيمكنك ذلك؟».

لم يستوعب قط حقيقة أن الجزء الداخلي من المتاع لا يبدو أنه موجود في العالم نفسه تمامًا كالجزء الخارجي منه. كان هذا ولا ريب مجرد استنتاج بسيط لغرابته الجوهرية، غير أنه كان أمرًا مربكًا أن تشهد توفلاور يملأه عن آخره بالقمصان المتسخة والجوارب القديمة البالية، ثم يُعاود فتح الغطاء ليجد كومة من الملابس الجميلة النظيفة وتفوح منها نسائم رقيقة لرائحة الخزامى. كما قد اشترى توفلاور الكثير من التُّحف القديمة الأصلية أو، كما يسميها رينسويند، خردة بالية وحتى عصا دغدغة احتفالية على شكل خنزير بطول مترين بدا أنها ستجد لها مكانًا مناسبًا داخل الصندوق بسهولة تامة دون أن تبرز إلى الخارج من أي مكان.

قال له توفلاور: «لا أعرف، أنت ساحر وعليم بتلك الأمور».

ردَّ عليه رينسويند: «أجل، حسنًا، طبعًا، غير أن سحر الأمتعة فنُّ رفيع التخصص. وعامة، أنا واثق بأن أقزام النُّوم لن تكون لهم رغبة في بيعه، إنه، إنه...»، وراح يبحث في عقله عما يعرفه من كلام توفلاور غير العقلاني، ثم أضاف: «...إنه معلّم سياحي».

سأله سوايرز في فضول: «وماذا يكون هذا؟».

أجابه رينسويند: «يعني أن العديد من الناس من أمثاله يأتون قاصدين رؤيته».

- لماذا؟

«لأن...»، بحث رينسويند عن الكلمات المناسبة وأردف: «...لأنه عتيق. إمام، من العالم القديم. فلكوري. وهو، مثال مبهج عن فنِّ قوم ماضين، مُشبعٌ بتقاليد من زمن غابر».

سأل سوايرز وهو ينظر إلى الكوخ في ذهول: «هل هو كذلك؟».

- أجل.

- كل تلك الأشياء؟

- أخشى أنه كذلك.

- سأساعدك على حزمه.

وانقضى الليل تحت ستار من الغيوم المظلمة التي تغطي معظم القرص وهو أمر وليد المصادفة، لأنه عندما تنقشع ويرى العرافون مشهدًا صافيًا للسماء، فسيستأون ويغضبون.

وفي العديد من نواحي الغابة كانت مجموعات السحرة تضلُّ طريقها، وتدور في دوائر، وتختبئ من بعضها، وينزعجون لأنه لما يصطدمون

بشجرة ما، فإنها تعتذر إليهم. لكنْ كان أكثرهم يقتربون من الكوخ، حتى إن كان تقدمهم في مسار غير ثابت...

وهو وقتٌ مناسبٌ للرجوع إلى أبنية الجامعة الخفية كثيرة الممرات وبالأخص جناح جريهالد سبولد، الذي يُعد في الوقت الحالي أقدم وأكبر ساحر في القرص، وهو عازم على إبقاء الأمر كذلك.

لقد أصابه الذهول والإحباط الشديدان تَوًّا.

فقد شغَلَ جريهالد على مدار الساعات القليلة الماضية، وربما يكون أصمَّ وأبلةً بعض الشيء، لكنَّ السحرة كبار السن يتمتعون بغرائز بقاء قد تمرسوا عليها جيدًا، ويعلمون بأنه عندما يبدأ جسم طويل يرتدي رداءً أسودَ ويحمل في يده أحدث أداة يدوية زراعية في النظر إليك بإمعان، فقد آن الأوان حتى تتصرف سريعًا. فقد سُرِّحَ الخدم وسُدَّتِ المداخل بمعجون مصنوع من مسحوق ذبابة مايو، ورُسِمَتْ على النوافذ نجوم ثمانية للحماية. وسُكِبَتِ الزيوت النادرة نفاذة الرائحة في أنماط معقدة على الأرضية، في نقوش تؤذي الأعين وتوحي بأن الذي رسمها كان ثملًا أو ربما كان من بُعد آخر أو، على الأرجح، كلا الأمرين. وفي قلب الحجرة بالتحديد تربعتُ نجمة الحَجَبِ الثمانية، تُحيطها شموع حمراء وخضراء. وفي منتصف النجمة تربع صندوق مصنوع من خشب صنوبر السرخس الملتوي الذي ينمو ويُعمرُّ طويلًا، وقد بُطِّنَ بحرير أحمر ووُضِعَ عليه المزيد من تَمائم الحماية. ذلك لأن جريهالد سبولد يعلم بأن الموت كان يبحث عنه، وقد قضى سنواتٍ طُوًّا في تصميم مخبأٍ منيع يصعب الوصول إليه.

وقد جهز أخيرًا العمل الدقيق والمعقد للقفل وأغلق الغطاء، مستلقيًا وهو عارف أن هنا على الأقل هو الحصن الأفضل ضد أعدى أعدائه،

رغم أنه لم يضع في حسبانته حتى الآن الدور المهم الذي تؤديه فتحات التهوية بلا ريب في عمل من هذا النوع.

وبجانبه تمامًا، قريبًا جدًا من أذنه، قال صوت: **الظلام يُعْمُ المكان هنا، أليس كذلك؟**

بدأ الثلج يتساقط. وبدتْ نوافذ الكوخ المصنوعة من حلوى سكر الشعير لامعةً ومبهجةً في الظلمة الحالكة.

في أحد جوانب الحقل كان هناك ثلاث نقاط ضوئية حمراء صغيرة تضيء في الوقت نفسه، وكان هناك صوت سعال جاف أُسكِتَ فجأةً. قال ساحر من الرتبة الثالثة: «اصمت! سيسمعوننا!».

- مَنْ سيسمعنا؟ لقد هربنا مَنْ كانوا يتبعوننا من أخوية الخداع في المستنقع، والحمقى الآخرون من مجلس العرافين الموقرين قد سلكوا طريقًا خاطئًا على أي حال.

قال أصغر ساحر بينهم: «أجل، لكن مَنْ يواصل التحدث إلينا؟ إنهم يقولون إن هذه غابة سحرية، وهي مليئة بالعفاريت والذئاب و...».

قال صوت من قلب الظلام من الأعلى. واتسم بما يمكن وصفه فحسب بطابع الصوت الخشبي: «الأشجار».

قال أصغر السحرة: «أجل». وسحب نفسًا من عقب السيارة وارتجف خوفًا.

اختلس قائد المجموعة النظر من فوق الصخرة وراقب الكوخ.

قال وهو ينفض غليونه في عقب حذاء الأقدام السبع، الذي صرَّ معترضًا: «حسنًا إذن، نُهرَع إلى الداخل، نمسك بهم، نبتعد. موافقون؟».

قال أصغر السحرة في انفعال: «هل أنت متأكد من أن الموجودين في الداخل أناس فحسب؟».

زمجر القائد قائلاً: «قطعاً أنا متأكد، ما الذي تتوقعه، ثلاثة دبية؟».

- ربما يكون هناك ثلاثة وحوش، فتلك هي الغابة التي توجد فيها الوحوش.

قال صوت ودود من بين الأغصان: «والأشجار».

علق القائد حذرًا: «أجل».

نَظَرَ رينسويند باهتمام إلى السرير، كان سريرًا صغيرًا أنيقًا ومصنوعًا من حلوى التوفي الصلبة المُطعمَة بالكراميل، لكنه كان ليأكله بدلًا من النوم فيه، وقد بدا كأنَّ أحدهم قد فعل ذلك فعلًا.

فقال: «كان أحدهم يأكل سريري».

ردَّ عليه توفلاور بنبرة دفاعية: «أحبُّ التوفي».

قال له رينسويند: «إن لم تحترس، فستأتي الجنية وتأخذ كل أسنانك».

قال سوايرز من عند منضدة التزين: «لا، إنهم الجان. الجان مَنْ يفعلون هذا. ويأخذون أظفار أصابع الأقدام أيضًا. ثم إنهم سريعو الانفعال في بعض الأحيان».

جلس توفلاور بكل ثقله على سريره: «أنت مخطئ. الجان قوم يتمتعون بالنبل والجمال والحكمة والعدل. أنا على يقين بأنني قرأت هذا الكلام في موضع ما».

فتبادل سوايرز القزم الصغير النظرات التي بالكاد وصلت إلى رصفة
ركبة رينسوينا.

قال قزم النوم بتأن: «لا بدُّ أنك تتحدث عن قوم آخرين من الجان. ولا
يوجد سوى هذا النوع الآخر في الجوار». وأضاف سريعاً: «وليسوا من
تسميهم سريعى الغضب. إلا إذا أردت أن تأخذ أسنانك في قبعتك في
عودتك إلى موطنك على أي حال».

كان هنالك صوت ضئيل مميز لفتح باب مصنوع من النوجا. وفي
الوقت نفسه، من ناحية الكوخ الأخرى، أتى صوت خشخشة من أخفت
الأصوات، مثل حجر يهشم نافذة مصنوعة من حلوى سكر الشعير برقة
بالغة.

سأل توفلاور: «ما هذا؟».

فتساءل رينسوينا: «أي واحد؟».

كان هناك صوت اصطدام غصن بعتبة النافذة. وبصرخة صاح
سوايرز قائلاً: «الجان!». وزحف على الأرضية حتى وصل إلى جحر فأر
ثم اختفى.

سأل توفلاور: «ما الذي ينبغي لنا فعله؟».

تساءل رينسوينا مؤملاً: «الفرع؟». فدوماً ما اعتقد أن الفرع هو
أفضل منجاة. قديماً في غابر الأزمان، وفق نظريته، يمكن ببساطة
تقسيم الأشخاص الذين يواجهون النمر مسيئة الأسنان النهمة إلى:
الفرعين وإلى المتسمرين في أماكنهم فحسب قائلين: 'يا لشراستك
الهائلة، ويقولون في تحدٍّ: 'تعال إليَّ أيها الجبان'.

قال توفلاور: «ثمة خزانة»، وأشار إلى باب ضيق منحشر بين الحائط وواجهة المدخنة. فتحركا سريعًا ليجدا نفسيهما في ظُلمة يسودها مزيج بين الحلاوة والعفونة.

وتهادى صوت صرير صادر عن لوح أرضية مصنوع من الشكولاتة بالخارج، وقال أحدهم: «لقد سمعتُ أصواتًا».

وقال آخر: «أجل، في الأسفل، أظن أنهم أعضاء أخوية الخداع».

- أظنك قلتَ إننا قد هربنا منهم!

- يا أنتما، يمكنكما أكلُ هذا المكان! هنا، انظرا يمكنكم...

- اخرس!

علا صوت الصرير أكثر فأكثر، وصوت صرخة مكتومة من الأسفل حيث كان هناك عضو من مجلس العرافين الموقرين يتسلل حذرًا تحت ستر الظلام داخلًا من النافذة المكسورة وخطا على أصابع عضو من أعضاء أخوية الخداع الذي كان يختبئ تحت المنضدة. وانتعشتُ حيوية السحر ونشاطه المفاجئين.

قال صوت من الخارج: «أيها الأغبياء! لقد أمسكوا به! لندخل!».

علا الصرير أكثر فأكثر عمًا قبل، ثم حل الصمت. وبعد هُنيئة قال توفلاور: «أظن أنه توجد عصا مكنسة في هذه الخزانة».

- حسنًا، ما الغريب في هذا؟

- يوجد في تلك المكنسة مقاود.

ومن الأسفل أتت صرخة تصمُّ الآذان. ففي الظلام حاول أحد السحرة أن يفتح غطاء المتاع. وأشار صوت التحطم الآتي من الغرفة الملحقة بالمطبخ إلى الوصول المفاجئ إلى مجموعة من سحرة الدائرة الحصينة المستنيرين.

همس توفلاور متسائلًا: «ما الذي تظنهم يسعون خلفه؟».

قال رينسوينا وهو غارق في أفكاره: «لا أعرف، وأظن أنه لرأي سديد ألا نعرف».

- قد تكون مُصيبًا.

دفع رينسوينا الباب ليفتحه في حذر بالغ. كانت الحجرة فارغة فمشى إلى النافذة، ثم نظر إلى أوجه ثلاثة من إخوان جماعة منتصف الليل الذين كانوا يحدقون إلى الأعلى.

- هذا هو!

تراجع سريعًا وأسرع تجاه الدَّرَج.

كان المشهد في الأسفل يستعصي على الوصف، ولأن تعبير يستعصي على الوصف هذا يستجلب على قائله عقوبة الموت تحت حكم أولاف كويمبي الثاني فلا بأس بمحاولة وصفه. أولًا، كان أغلب السحرة المتعبين يحاولون إنارة المكان الموجودين فيه بالعديد من أشكال اللهب وكرات النار والوهج السحري، لذا فإن الإنارة الكلية أعطت انطباع إنارة ملهى الرقص في مصنع المصابيح الوماضة؛ كل رجل كان يحاول العثور على موضع يُمكنه من رؤية بقية الغرفة دون أن يهاجمه أحد، وبلا شك حاول الجميع تحاشي طريق المتاع الذي كان به اثنان من العرافين الموقرين معلقين في زاوية، وكان يغلق غطاءه على أي أحد يقترب منه. لكن حدث أن نظر أحد السحرة إلى الأعلى.

- إنه هو!

تراجع رينسوينا فجأة، واصطدم به شيء ما. فنظر من حوله سريعًا، وحملق لَمَّا رأى توفلاور يجلس على عصا المكنسة التي كانت تطفو في الهواء.

قال توفلاور: «لا بدَّ أن المشعوذة قد تركتها خلفها. عصا مكنسة سحرية حقيقية».

تَرَدَّدَ رينسوينا في الركوب، وكانت شرارات بلون الأوكتارين تتطاير من شعيرات عصا المكنسة، ولطالما كره المرتفعات أكثر من أي شيء آخر، لكنَّ أكثر ما كرهه على الإطلاق هو حَفنة من السحرة شديدي الغضب والمنفعلين يصعدون الدرج بكل سرعتهم تجاهه، وهذا ما كان يحدث.

قال: «حسنًا، لكنَّ أنا مَنْ سيقود».

وضرب بحذائه واحدًا من السحرة كان على وشك إلقاء تعويذة ربط، ثم قفز رينسوينا على عصا المكنسة التي تمايلت إلى أسفل الدرج، ثم انقلبت رأسًا على عقب حتى أصبح رينسوينا وجهًا لوجه بطريقة مخيفة مع فرد من جماعة إخوان منتصف الليل.

فصرخ صرخة مُدوِّية ثم لَفَّ المقاود لفة شديدة.

حدثت أشياء عدة مرة واحدة، إذ اندفعتِ المكنسة إلى الأمام واخترقت الحائط مخلفَةً وراءها سيلاً من الفتات، أسرع المتاع إلى الأمام وعَضَّ عضو إخوان منتصف الليل من قدمه، وبصوت صفير غريب ظهر سهم غريب من المجهول، مخطئًا رينسوينا ببضعه سينتيمترات، وضرب غطاء المتاع ضربة صلبة مكتومة شديدة.

ثم اختفى المتاع.

في قرية صغيرة في قلب إحدى الغابات ألقم شامان قديم نيرانه المزيد من الأغصان الصغيرة وحدق خلال الدخان إلى متدربه الذي علا وجهه الشعور بالخزي.

سأل: «صندوق له أرجل؟».

قال المتدرب: «أجل يا سيدي، لقد ظهر على حين غرة ونظر إليّ».

- من ثمَّ كان لهذا الصندوق أعين؟

بدأ المتدرب كلامه قائلاً: «ل...»، ثم أحجم عن الكلام والحيرة تتملكه. فتجههم منه الشيخ.

- لقد رأى العديد توباكسي، إله الفطر الأحمر، وينالون لقب الشامان. ورأى البعض سكيلد، روح الدخان، ويطلق عليهم لقب السحرة. وحظي قلة من الناس بشرف رؤية أومشيريل، روح الغابة، ويعرفون بسادة الأرواح. لكن لم يرَ أحدٌ صندوقاً له العديد من الأرجل يرمقهم بنظرات دون أن تكون له أعين، وهم يُعرفون بالحُمق...

كان سبب انقطاع الكلام صوت صراخ مُدوّ مفاجئ وزخة من ثلج وشرارات نفتت النار في أرجاء الكوخ المُظلم المصنوع من القش. كانت الرؤية مغبشة لوهلة، ثم وقع الجدار المقابل على جانبه منفجراً، واختفى الشبح.

حل صمتٌ طويلٌ، ثم بعده صمت آخر أقصر بقليل. فقال الشامان الشيخ بحذر: «ألم ترَ للتو رجلين يقطعان الطريق رأساً على عقب راكبين مكنسةً، ويصرخان ويصيحان على بعضهما، أليس كذلك؟ نَظر إليه الفتى ووجهه خالٍ من أي تعبير، وقال: «طبعًا لا».

زَفر الشيخ زفرة ارتياح، وقال: «حمدًا للرب على ذلك، ولا أنا رأيتُ».

*

كان الكوخ تعمه الفوضى والاضطراب، ذلك لأن السحرة لم يريدوا فحسب أن يتتبعوا المكنسة، بل أرادوا أن يمنعوا بعضهم من فعل ذلك،

وقد أفضى هذا إلى العديد من الحوادث المؤسفة. وكان أبرز حادث، والأكثر مأساوية طبعًا، قد حدث عندما حاول أحد العرافين الاستعانة بحذاء الفراسخ السبعة دون ذكر التسلسل السليم للتعاويد والإعدادات للانطلاق به. وكما أُلْمِح من قبل أن حذاء الفراسخ السبعة هو ضرب مُحْتال مُشاغب من السحر في أغلب أحواله، وقد تذكر الساحر بعد فوات الأوان أنه لا بدَّ من اتخاذ الحيطة الكلية في استخدام وسيلة انتقال، بعد وضع كل الأمور في الحساب، تعتمد في فعاليتها على محاولة وضع قدم واحدة على بُعد ما يقرب من 34 كيلومترًا أمام القدم الأخرى.

هبّت أول عاصفة ثلجية من عواصف الشتاء وضربت الأجواء، وفي الواقع خيمَ غطاء ثقيل من السحب مثير للريبة على أغلب سماء القرص. إلا أنه، بعيدًا من الأعلى وعلى الضوء الفضي لقمير عالم القرص، شكّل القرص واحدًا من أجمل المشاهد في الأكوان المتعددة.

دارتْ أشرطة طويلة رفيعة من السُّحب، ممتدةً على طول مئات الأمتار، في شكل دُوَامات بدءًا من الشلال الموجود عند الحافة وصولًا إلى جبال المركز. وفي هذا الصمت البَلُوريّ البارد، لَمَع الشكل الحلزوني الأبيض الضخم ببريق يشبه بريق الثلج تحت النجوم، وراح يدور بطريقة غير محسوسة، كأنَّ إله القرص قد قَلَّب قهوته ثم صَبَّ الكريمة فيها.

ولم ينغصِ المشهد المتلألئ، الذي...

اخترق شيء صغير وبعيد طبقة السحاب مخلفًا وراءه ذرات من البخار. ومن هدوء طبقة الستراتوسفير أتى صوتُ شجارٍ حاد وواضح.

- لقد قلت إن بإمكانك التحليق بوحدة من هذه الأشياء!

- لا، لم أفعل، قلت فقط إنك لا تستطيع.

- لكنني لم أركب واحدة مثلها من قبل!

- يا للمصادفة!

- على أي حال، لقد قلت... انظر إلى السماء!

- لا، لم أفعل!

- ماذا جرى للنجوم؟

وبهذا كانا رينسوينا وتوفلاور أول شخصين في القرص يريان ما
خبأه المستقبل.

وعلى بعد آلاف الكيلومترات من خلفهما، كان جبل كوري سليستي
الواقع في مركز القرص تطعن قمته كبد السماء ويلقي بظل ساطع له
شكل سكين على الغيوم المضطربة شديدة الحرارة، لذلك ربما قد لفت
هذا انتباه الآلهة كذلك، غير أن الآلهة لم تكن تنظر عادةً إلى صفحة
السماء، وعلى أي حال كانت مشغولة بالتقاضي مع عمالقة الجليد الذين
رفضوا إغلاق الراديو.

تجاه الحافة في الناحية التي يسبح فيها أتوين العظيم، كانت السماء
قد كُنِسَتْ من النجوم.

وفي تلك الدائرة من الظلام كان ثمة نجم واحد، نجم أحمر ينذر
بالدمار، نجم يشبه البريق اللامع في محجر حيوان منك مسعور. لقد
كان النجم صغيرًا ومريبًا ومخيفًا. وكان القرص يُحْمَلُ تجاهه.

لقد عرف رينسوينا ما عليه فعله بالتحديد في هذه الظروف. فقد
صَرَخَ ووجَّه مكنسته إلى الأسفل.

وقف جالدر ويدرؤاكس في مركز النجمة الثمانية ورفع يديه.

- أورشالو، ديلبتور، كخولا، افعلوا ما أمركم به!

فتشكّل خيط من ضباب صغير فوق رأسه، ونظر جالدر شزراً إلى تريمون الذي كان ينظر متجهماً من على حافة الدائرة السحرية.

وقال: «الجزء القادم مُدهش تماماً، فلتراقب هذا. كوت بهاي! كوت شام! تعالوا أنتم يا أرواح الصخور المنعزلة الصغيرة والفئران المهمومة التي لا يقل طولها عن عدة أشبار!».

سأل تريمون: «ماذا؟».

قال جالدر متفقاً: «هذا الجزء قد تطلب الكثير من البحث، لا سيما الفئران. وعامة، أين توقفت؟ أوه، أجل...».

عاود جالدر رفع ذراعيه، وراقبه تريمون، ولعق شفتيه بلا اهتمام منه لجالدر. وكان الشيخ الأحمق يصبُ جامً تركيزه على التعويذة وبالكَاد يولي تريمون أي اهتمام.

تدفقت كلمات القوة في أرجاء القاعة، وراحت تخبط في الجدران وترتد، وتركض مسرعة خارج مرمى البصر وراء الأرفف والجرار. وتردّد تريمون في ما سيفعله.

أغمض جالدر عينيه لحظةً، وكسا وجهه قناعاً من النشوة وهو يتفوه بالكلمة الأخيرة.

تبيس تريمون، والتفت أصابعه حول السكين ثانية، وفتح جالدر إحدى عينيه، وأوماً تجاه تريمون وأطلق دفعة جانبية من القوة رفعت الشاب عالياً وطرحته مُمدّداً على الحائط.

ثم غمز له جالدر ورفع ذراعيه ثانية.

- تعالوا إليّ يا أرواح...

سُمِعَ صوت صعق رعد، وانبجار للضوء وحانت لحظة من الشك في الوجود المادي التام التي في أثنائها حتى الجدران بدا أنها تتقلص على ذاتها. وسمع تريمون صوتَ شهيق أنفاسٍ ثم صوت ارتطام مكتوم صلب.

هَبَطَ على القاعة صمتٌ مفاجئ.

ونفض تريمون بعد عدة لحظات يحبو من خلف أحد المقاعد وهو ينفض الغبار عن نفسه. وراح يُدندن بعدة مقاطع تافهة واستدار نحو الباب بحذر مبالغ فيه وهو ينظر إلى السقف كأنه لم يسبق له أن رآه. وتحرك بطريقة توحى بأنه يحاول أن يحرز رقمًا قياسيًّا عالميًّا لأكثر مشية غير مبالية.

جَثَمَ المتاع في مركز الدائرة وفتح غطاؤه.

توقف تريمون، واستدار بحرص شديد، متهيِّبًا مما قد يراه.

بدا أن المتاع فيه بعض الغسيل النظيف الذي تفوح منه رائحة خزامي خفيفة. وكان هذا بطريقة ما الشيء الأكثر رعبًا الذي رآته عين ساحر من قبل.

قال جالدر: «حسنًا، آأ، أنت، إمم، لم ترَ ساحرًا آخر في الأرجاء على أي حال؟».

تَصَنَّعَ المتاع ليكتسي هيئة توحى بالتهديد والوعيد.

ردَّ تريمون: «أوه، حسنًا، جيد. لا يهم».

وشدَّ حاشية رداؤه بطريقة مبهمة ولفَّتت انتباهه تفاصيل غرز خياطة الحاشية لفتةً خاطفةً. ولما رفع بصره وجد أن الصندوق الشنيع لا يزال موجودًا.

فقال: «وداعًا»، ثم جرى. وتمكن أن يعبر من الباب في الوقت المناسب.

- رينسويند؟

فَتَحَ رينسويند عينيه، ولم يُحسن هذا من الوضع كثيرًا، بل بدلًا من عدم رؤية شيء سوى السواد، فلم يرَ شيء سوى البياض، وهو ما كان أسوأ على نحو غريب.

- هل أنت على ما يرام؟

- لا.

- آه.

جلس رينسويند، وبدا أنه موجودٌ على صخرة تنتشر عليها رقعٌ من الثلج، غير أنها لم تبدُ في مجملها أن لها السمات الكاملة للصخرة. فمثلًا، الصخرة لا تتحرك.

كان الثلج يتطاير من حول توفلاور الذي كان على بُعد أمتار من رينسويند، وتعلو وجهه نظرة خوفٍ حقيقي.

تنهَّد رينسويند، وقد كانت عظامه تشتاط غضبًا جراء المعاملة التي تلقتها مؤخرًا، وكانت تصطفُ بدافع الشكوى من ذلك.

تساءل قائلاً: «ماذا الآن؟».

- أتعرف لِمَا كنا نخلق وكنتُ قلقًا من ارتطامنا بشيء في العاصفة وقد قلتَ إن الشيء الوحيد الذي قد نرتطم به على الأرجح على هذا العلوِّ كان سحابة مليئة بالصخور؟

- وعليه؟

- كيف عرفت؟

جال رينسويند بنظره إلى ما حوله، لكن مع كل التنوع وإثارة الفضول الذي يوحي به المشهد من حوله، فقد يكونان كذلك داخل كرة بينج بونج.

أخذت الصخرة من تحتهم، حسناً، تهتز. فمرر يده عليها، وتحسس نقوش الأزاميل. ولما وضع أذنه على الحجر البارد المبلل، خيّل إليه أنه قد يسمع صوتَ حَبَطِ مكتوم وبطيء، كصوت ضربات القلب. وحبا إلى الأمام حتى وصل إلى حافة، فأمعن في النظر من فوقها متخذاً كل الحذر. في تلك اللحظة تحديداً لا بُدَّ أن الصخرة كانت تمرُّ فوق فرجة بين السحاب، لأنه لمح منظراً مظلماً لكنه بعيد جداً لقمم جبال لها حافة مستدقة. وقد كانت على امتداد بعيد في الأسفل.

راح يقرقر قرقرةً متقطعةً ومشى بخطى حثيثة راجعاً من حيث أتى. وقال لتوفلاور: «هذا سخيف، فالصخور لا تطير، ولم يُعرف عنها أنها تطير».

ردَّ عليه توفلاور: «ربما ستفعل لو أنها تقدر، وربما قد اكتشفت تلك الصخرة طريقة الطيران».

فقال رينسويند: «لنأمل ألا تنسى الطريقة ثانية». وتكوّر على ذاته في ردائه المبلل ونظر عابساً إلى السحب من حوله. وظنَّ أنه كان ثمة أناس في مكان ما يُحكمون السيطرة على حياتهم ولو بقدر بسيط؛ يستيقظون في الصباح، يؤوون إلى الفراش في الليل بيقين عقلاني أنهم لن يسقطوا من على حافة العالم، أو يهاجمهم المختلون، أو يستيقظون ليجدوا أنفسهم على صخرة لها تطلعات تفوق قدراتها. وتذكر طيفاً أنه عاش حياة كهذه من قبل.

شَمَشَم رينسوينا. فوجد أن الصخرة تفوح منها رائحة طعام مقلي.
وبدتِ الرائحة آتية من أمامه وتلقفتها معدته مباشرة.
فسأل: «أتشم أيَّ رائحة؟».

أجابهُ توفلاور: «أظن أنه لحم خنزير مُقدَّد».

فقال رينسوينا: «أمل أن يكون لحم خنزير مُقدد لأنني سأكله».
ونهض واقفًا على الصخرة المتأرجحة وتمايل إلى الأمام تجاه السحاب،
ممعنًا النظر خلال ذلك الجوِّ المكفهر المبتل.

وعند الحافة الأمامية أو حافة قيادة الصخرة، كان ثمة درويد⁽¹⁾
صغيرٌ جالسًا عاقداً ساقيه أمام نار صغيرة. وكانت ثمة قطعة من نسيج
المشمع مُربعةً مربوطةً على رأسه ومعقودةً أسفل ذقنه. وكان يغرس
منجلًا هلالياً مزخرفاً في مقلاة مليئة بلحم الخنزير المقدَّد.

قال رينسوينا: «إممم». فنظر الدرويد إلى الأعلى، وأسقطَ المقلاة في
النار، وقفز واقفًا على قدميه، وأمسكَ بالمنجل الهلالي بطريقة عدوانية،
أو على الأقل بالطريقة العدوانية التي يظهر بها أي شخص يرتدي
ملابس نوم بيضاء طويلة ومبللة وشاح رأس يقطر ماءً.

وقال الدرويد: «احذر، فلستُ أتهاون مع الخاطفين». وعطس عطسة
شديدة.

قال رينسوينا: «سنساعدك»، وراح ينظر بتشوقٍ إلى اللحم الذي
يحترق. وقد حازَ الدرويد من فعله، الذي كان لدهشة رينسوينا
المتواضعة، في ريعان شبابه. فقد ظنَّ أنه لا بُدَّ من وجود أمور مثل
كهنة الدرويد الشُّبان نظرياً، لكن كلُّ ما في الأمر أنه لم يتخيلهم.

(1) هو كاهن من كهنة شعوب السلتيك الذين كانوا يعملون بالطب في بلاد الغال
وبريطانيا قديماً قبل ظهور المسيحية. (المترجمة)

سأله الدرويد وهو يخفض المنجل الهلالي قيد أنملة: «أنت لا تحاول سرقة الصخرة؟».

أجاب رينسويند في ضيق: «أنا حتى لا أعرف أن بإمكان المرء سرقة الصخور».

قال توفلاور بأدب: «عذرًا، أظن أن فطورك يحترق».

خفض الدرويد بصره ولوح بيديه بشدة على اللهب بلا جدوى. ومشى رينسويند مسرعًا إلى الأمام ليساعده، وكان هناك قدر لا بأس به من الدخان والرماد والفوضى، إضافة إلى أن الانتصار المشترك في الإنقاذ الفعلي لبضع قطع من اللحم المتفحم كانت أجدى من كتاب كامل عن الدبلوماسية.

سألها الدرويد: «كيف أتيتما إلى هنا أصلًا؟ إننا على ارتفاع 152 مترًا من الأرض، إلا لو كنتُ قد أخطأتُ في فهم الأحرف الرونية مجددًا». حاول رينسويند ألا يشغل تفكيره بأمر الارتفاع، وقال: «لقد سقطنا على الصخرة في أثناء مرورنا بها».

وأضاف توفلاور: «في طريقنا إلى الأرض».

فقال رينسويند: «فما كان من صخرتك إلا أن اعترضتُ طريقنا إلى السقوط». وأنَّ ظهره واشتكى. ثم أضاف رينسويند: «شكرًا».

فقال الدرويد الذي اتضح أن اسمه بيلفون: «ظننتُ أننا قد واجهنا مشكلةً ما قبل مدة، كان هذا أنتما بلا ريب». وارتعد، ثم قال: «لا بدَّ أن الصباح قد حل الآن. تَبًّا للقواعد، سأرتفع بنا الآن. تشبثا».

سأله رينسويند: «لم؟».

فأجابه بيلفون: «حسنًا، تلك إشارة فحسب إلى عدم الرغبة في السقوط». ثم أخرج بندولًا حديدياً كبيراً من ثوبه وهزّه في سلسلة من الاهتزازات غير المفهومة فوق النار.

تجمّعت السحب من حولهم، وساد جوٌ مُظلم مخيف، ثم فجأة شَعَّت الصخرة بضياء الشمس.

توقفت الصخرة على بُعد عدة أمتار فوق السحاب، في سماء جوّها بارد لكنها زرقاء ساطعة. والسُّحب التي بدت ليلة البارحة بعيدة إلى حد مخيف ورطبة جدًّا هذا الصباح، كانت الآن بِساطًا أبيضَ ناعمًا كالصوف ويمتدُّ بعيدًا في كل الجهات إلا من بعض قمم الجبال البارزة من قلب السُّحب كالجُرُز من قلب الماء. وبفعل الرياح الناتجة عن مرور الصخرة، تحولت السُّحب إلى دواماتٍ سريعة الزوال. الصخرة...

كانت بطول نحو عشرة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، وبها شيء من الزرقة.

قال توفلاور بعينين متهللتين: «يا له من منظر بانورامي رائع».

وسأل رينسويند: «اممم، ما الذي يُبقينا مرتفعين؟».

فأجاب بيلفون: «قوة الاقتناع»، وراح يعصر حاشية رداءه.

قال رينسويند بنبرة تنم عن الحكمة: «آه».

قال الدرويد: «إن إبقاء الصخور مرتفعة أمر سهل»، ورفع إبهامه ونظر نظرة خاطفة على طول ذراعه إلى جبل بعيد، وأردف: «الجزء الأصعب هو الهبوط».

سأله توفلاور: «هذا ليس مُعتقدك الحقيقي، أليس كذلك؟».

قال بيلفون: «إن الاقتناع هو المعتقد الذي يوحد العالم، فلا يصح أن نقول إن الأمر كله قائم على السحر».

وحدث أن نظر رينسويند إلى الأسفل خلال السحابة الخفيفة على مشهد تغطيه الثلوج على بُعد مسافة كبيرة بالأسفل. وقد عرف أنه في حضور شخص مخبول، إلا أنه كان قد اعتاد الأمر؛ ولو كان الإصغاء إلى ذلك المخبول يعني بقاء رينسويند بالأعلى، فقد كان كله آذان مصغية.

جَلَس بيلفون وقدماه تتدليان من على حافة الصخرة.

وقال: «انظر، لا تقلق، إذا واصلت التفكير في أن الصخرة يجب ألا تُحَلَّق، فقد تسمعك وتقتنع بهذا، وسيتضح أنك على صواب، حسنًا؟ جليُّ أنك لا تواكب منهج التفكير الحديث».

فقال رينسويند مستسلمًا: «على ما يبدو». كان يحاول إبعاد تفكيره عن الصخور الثابتة على الأرض بالأسفل. وبدلًا عن ذلك حاول التفكير في الصخور المُحلَّقة والمنقضة مثل طيور السنونو التي تتقافز في الأفق فَرِحَةً بطيشها ولعبيها، قافزة نحو السماء في...

لقد كان مُدرِّكًا جدًّا أنه لم يفلح في إبعاد تفكيره عن الأمر.

افتخر كهنة الدرويد في القرص بنهَجهم التَّقَدِّمي في اكتشاف أسرار الكون. بلا شك، شأنهم شأن كل الكهنة الدرويد في كل مكان، فهم يعتقدون بضرورة وَحْدَة كل مكونات الحياة والقوة الشفائية للنباتات وإيقاع التناغم الطبيعي بين الفصول وعقوبة الحرق حيًّا لكل مَنْ لا يُفكر في كل تلك الأمور ضمن الإطار العقلي الصحيح، لكنهم قد أطالوا التفكير بجدية في ما يخص جوهر الخَلْق وقد صاغوا النظرية التالية:

حسب قولهم، يعتمد الكون في جريانه على توازن القوى الأربع التي حَدِّدُها بالجاذبية السحرية والاقتناع والشك والعناد.

لذا كان الأمر أن الشمس والقمر يدوران حول القرص لأنهما اقتنعا بعدم السقوط، لكنهما لا يُحلقان بعيدًا بسبب الشك. وتسمح الجاذبية السحرية للأشجار بالنمو ويبقيها العناد مُنتَصِبَةً، وهكذا دواليك.

وقد ألمح بعض كهنة الدرويد إلى أن تلك النظرية قد يشوبها بعض الخلل، غير أن كبار كهنة الدرويد فسَّروا بوضوح بالغ وجود مجال للجدال المُستنير القائم على مقارعة الحُجَّة بالحُجَّة في الحوار العلمي المشوِّق، وكانت بالأساس تقع فوق نار الانقلاب الفصلي التالية.

سأل توفلاور: «أوه، إذن فأنت عالمُ فلكٍ؟».

ردَّ بيلفون فيما كانت الصخرة تطوف على مهل حول منحني الجبل: «أوه، لا. أنا استشاري أجهزة الحواسيب».

- ماذا يكون جهاز الحاسوب؟

قال الدرويد وهو ينقر الصخرة بصنذله: «حسنًا، هذا هو الحاسوب، جزء منه، على أي حال. إنها قطعة غيار. وأنا في طريقي لتوصيلها. فقد عَرَضْتُ لهم مشكلة في الحلقات الكبيرة أعلى سهول الدوامة. على حد قولهم، عامة؛ أتمنى لو أنني أنال طوقًا برونزيًا عن كل مستخدم لا يقرأ دليل الاستخدام». ثم هَزَّ كتفيه.

فسأله رينسويند حتى يتوقف عن التفكير في أمر السقوط إلى أسفل: «إذن ما الجدوى من الأمر تحديدًا؟».

أجابه بيلفون: «بوسعك استخدامه من أجل، من أجل أن يُخبرك بالتوقيت السنوي».

- آه، تقصد إن كان مغطى بالثلوج، فلا بد أننا في الشتاء؟

- أجل، أقصد لا. أقصد، فرضًا أنك تريد معرفة موعد صعود نجم ما...

فسأل توفلاور مُبديًا اهتمامًا ينم عن أدبٍ: «لم؟».

أجابه بيلفون وهو يتصَبَّب عرقًا بعض الشيء: «حسنًا، ربما تريد أن تعرف موعد زراعة محاصيلك، أو ربما...».

قال توفلاور: «سأعيرك روزنامتي، إذا أحببت».

- روزنامة؟

ردَّ رينسويند والضيق بارٍ عليه: «إنها كتاب يخبرك في أي شهر نكون. وستكون لها النفع والغرض نفسه مثل خط لاي⁽¹⁾ الخاص بك». تيبس بيلفون من الدهول، وقال: «كتاب؟ ذاك المكون من الورق؟».

- أجل.

قال الدرويد وعلى وجهه أمارات الاشمزاز: «لا يبدو هذا لي شيئًا يُعتمد عليه. كيف لكتاب أن يعرف في أي يوم نكون؟ فالورق لا يمكنه أن يُحصي الأيام».

وترجَّل غاضبًا إلى مقدمة الصخرة، وهذا ما جعل الصخرة تتأجج بشكل ينذر بالخطر. فابتلع رينسويند ريقه وأشار إلى توفلاور بالاقتراب. وهمس له: «أسبق لك أن سمعتَ بالصدمة الثقافية؟».

- وما تلك؟

قال رينسويند: «هي ما تحدثُ عندما يقضي الناس خمسمائًا عام محاولين تشغيل حلقة حجرية بالطريقة الصحيحة، ثم يأتي أدهم بكتيب به صفحة لكل يوم من أيام العام وبعض المقتطفات الرنانة التي تقول أشياء مثل 'الأوان مناسبُ الآن لزراعة الفول' و'الاستيقاظ ونوم

(1) هو خط وهمي يصل بين عدة أماكن يُعتقد أن لها قوى سحرية. (المتجمة)

المبكران يجلبان للمرء الصحة والغنى والموت، أو تعرف أهم ما تتذكره بخصوص الصدمة الثقافية»، وتوقف رينسوينا ليلتقط أنفاسه، وحرك شفثيه في صمت محاولاً تذكر إلى أي موضع وصلت إليه الجملة، ثم خَلس إلى قول: «ماذا يكون؟».

- ماذا؟

- لا تتسبّب في مثل تلك الصدمة لرجل يُحلقّ بصخرة تزن ألف طن.

- هل ذهب؟

استرق تريمون النظر بحذر من على شرفات برج الفنون، تلك القمة المستدقّة العظيمة للبناء الحجري المتداعي الذي يعلو الجامعة الخفيّة. فأوماً جَمع الطلاب ومعلمو السحر الموجودون بعيداً بالأسفل بالموافقة.

- هل أنتم متأكدون؟

ضَمَّ أمين الصناديق يديه وهتف.

ثم صرّخ قائلاً: «لقد حَطَمَ الباب الموجود تجاه الحافة ولاذ بالفرار منذ ساعة يا سيدي».

ردّ تريمون: «خطأ، لقد غادر، نحن من لاذ بالفرار. حسناً سأنزل إذن. هل نال من أي أحد؟».

ابتلع أمين الصناديق ريقه، ولم يكن ساحراً، إلا أنه رجل عطوف حَسَنُ الطباع لم يستحق أن يشهد ما شهده في الساعات الماضية. وبلا شك لا يخفى أن يُعهد عن العفاريت الصغار والأضواء الملوّنة والتخيّلات شبه المادية المتعددة التجول في أرجاء الحرم الجامعي، غير أنه كان ثمة شيء يخص الانقضاض العنيد للمتاع الذي أُرعبه. فقد كانت محاولة إيقاف المتاع بمنزلة مُقارعة نهر جليدي.

فهتَفَ أمين الصناديق: «إنه.. إنه قد ابتلع عميد الدراسات الليبرالية».
تهلل وجه تريمون، وغمغم: «رُبَّ ضارة نافعة».
حدق إلى أسفل الدرج اللولبي الطويل. وبعد هُنيئة ابتسم ابتساماً
طفيفةً فاترةً. فقد أخذ اليوم في التحسن بكل تأكيد.
وكان هنالك الكثير من الترتيبات اللازمة. ولو كان من شيء يُحب
تريمون فعله، فقد كانت تلك الترتيبات.

✱

حَطَّتِ الصخرة على السهول العالية، فأطاحت بالثلج من على
التكدسات الثلجية التي كانت على بُعد عدة أمتار في الأسفل. ركض
بيلفون في استعجال، وراح يشمُّ مرهماً برائحة الهدال ها هنا، ويكتب
بالطباشير حرفاً من الحروف الرونية ها هناك، في حين كان ينكمش
رينسوينا مرتعداً من الخوف والإرهاق وينتاب توفلاور القلق حيال
متاعه.

صرخ الدرويد بصوت يعلو على صوت ضوضاء تيار الهواء: «في
مرمى بصرنا! انظرا، حاسوب السماوات العظيم!».

استرق رينسوينا النظر من بين أصابعه. وعلا في أفق السماء البعيد
بناء ضخيم مكون من ألواح رمادية وسوداء، مُصمم على شكل دوائر
متحدة المركز ومسارات غامضة سرية، والذي يفيض بالبشاعة وسوء
المظهر مقارنة بمنظر الثلج. وبكل تأكيد لم يكن للبشر أن يحوزوا قوةً
تجعلهم يحركون تلك الجبال حديثة التكوين، بكل تأكيد تحولت جماعة
من العمالقة إلى صخور بفعل بعض...

علق توفلاور: «يبدو أنه مكون من الكثير من الصخور».

تردد بيلفون في منتصف إشارته: «ماذا؟».

أضاف السائح بسرعة: «إنه جميل للغاية». وفكر في كلمة مناسبة، ثم قرّر قول كلمة: «عريقي».

تجمّد الدرويد وقال: «أتقصد جميل؟ إنه انتصار لقطع السليكون، معجزة تكنولوجيا البناء الحديث، جميل؟».

فردّ رينسوينا الذي كانت السخرية بالنسبة إليه مجرد كلمة من خمسة أحرف تبدأ بحرف السين: «أوه، أجل».

فسأله الدرويد: «ما الذي تعنيه كلمة عريقي؟».

أجابه رينسوينا سريعاً: «إنها تعني عجب للغاية، ويبدو أننا نواجه خطر الهبوط، لو كنت لا تمانع...».

استدار بيلفون، وبدا أنه قد هدأ بعض الشيء. ورفع ذراعيه على اتساعهما وراح يهتف بسلسلة من كلمات لا ترجمة لها تنتهي بكلمة «جميل!» بهمس جريح.

أبطأت الصخرة، ومالت جانباً على كتلة من الثلج، وحلقت فوق الحلقة. ومن الأسفل، لوّح أحد كهنة الدرويد بباقة من أغصان شجر الهدال في حركات معقدة، وجعل بيلفون اللوح العملاق يحط ببراعة على قائمين رأسيين كبيرين مُصدراً صوت نقرات خافت.

أطلق رينسوينا نفسه في تنهيدة طويلة، فهرع النفس للاختباء في مكان ما.

ارتطم سلم بجانب اللوح وظهر رأس كاهن درويد شيخ من على الحافة. ورمق الراكبين بنظرة حائرة، ثم رفع بصره إلى بيلفون.

قال: «لقد وصلت أخيراً. تفصلنا سبعة أسابيع عن ليلة الهوجسوتش، وقد تعطلّ مجدداً».

قال بيلفون: «أهلاً يا زكريا، ماذا حدث هذه المرة؟».

- لقد فسد الأمر تمامًا، فقد توقع شروق الشمس اليوم مبكرًا بثلاث دقائق. الوضع يخصُّ أحرَقَ ما يا فتى، هذا هو الأمر.

تسلق بيلفون السلم ثم اختفى عن الأنظار. فنظر الراكبان إلى بعضهما، ثم حدَّقا إلى الأسفل في الفضاء المفتوح الفسيح المترامي بين الحلقة الداخلية للأحجار.

سأل توفلاور: «ما الذي يتعين علينا فعله الآن؟».

فاقترح عليه رينسويند: «يمكننا الخلود للنوم؟».

تجاهله توفلاور ونزل السُّلم.

كان ثمة كهنة درويد حول الحلقة ينقرون أحجار المغليث⁽¹⁾ بمطارق صغيرة ويصغون باهتمام. كان العديد من الأحجار مستلقيةً على جنبها، وكانت كل واحدة من الأحجار محاطة بجمعٍ آخر من كهنة الدرويد الذين كانوا يفحصونها بعناية ويتجادلون في ما بينهم. وطَفَّت عبارات سرية مُبهمة إلى حيث يجلس رينسويند:

- لا يمكن أن يكون عدم توافق البرامج، فقد صُمِّم برنامج أنشودة الطريق اللولبي المطروق للحلقات متحدة المركز يا أحمق...

- أشعلُ به النيران ثانية، وجرب مراسم قمرية بسيطة...

- حسنًا، حسنًا، لا يكمن الخطأ في الأحجار، كل ما في الأمر أن الكون قد اختل، صحيح؟...

وفي ضباب عقله المرهق، تذكر رينسويند النجم المروِّع الذي شاهدها في السماء. ثمة شيء ما في الكون قد اختل ليلة أمس.

كيف حدث أن عاد إلى القرص ثانية؟

(1) أحجار طولية عملاقة تاريخية استُخدمت في إنشاء معالم أثرية إما باستخدامها وحدها وإما مع غيرها من الأحجار. (المترجمة)

وانتابه شعور بأن الإجابات تكمن في مكان ما داخل عقله. وتفاقم الشعور حتى إنه ساوره شعور بغيض بأن شيئاً آخر كان يراقب المشهد المُمْتد بالأسفل، يراقبه من خلف عينيه.

لقد تسَلَّت التعويذة من مخبأها في عمق طرق عقله الوعرة، وكانت تجلس بكل ثقة وكبرياء في مقدمة دماغه، تشاهد المشهد الجاري وتفعل المقابل العقلي لأكل الفشار.

حاول رينسويند إرجاعها إلى مكانها، واختفى العالم...

كان رينسويند يقبع في ظلمة؛ ظلمة دافئة عفنة الرائحة، ظلمة قَبر، الظلمة المخملية لصندوق المومياءات.

كانت ثمة رائحة نَفَّاذة لجلد عتيق ورائحة ورق قديم تفوح بالحموضة. ثم خشخش الورق.

أحسَّ رينسويند بأن الظلمة مليئة بمخاوف لا يقدر العقل على تخيلها، وكانت مشكلة المخاوف التي لا يقدر العقل على تخيلها هي أنها كانت يسهل جداً تخيلها...

قال صوت ما: «رينسويند». لم يسبقُ لرينسويند أن سمع سحلية تتحدث، غير أنه لو كانت لسحلية ما القدرة على الكلام لكان صوتها مثل ذلك.

ردَّ: «اممم، ماذا هنالك؟».

ضحك الصوت ضحكةً خافتة، صوت غريب، أقرب إلى أن يكون وَرَقِيًّا.

قال الصوت: «لا بُدَّ لك أن تسأل 'أين أنا؟'».

ردَّ رينسويند: «هل سأحب المكان لو علمتُ ما هو؟». وحملق بشدة في الظلام. ولأنه قد ألفت عينه الظلام في هذا الوقت، فقد استطاع رؤية

شيء ما. شيءٌ مبهمٌ، بالكاد ساطعٌ بالدرجة الكافية لأن يكون موجوداً أو محسوساً على الإطلاق، مجرد زخرفة تشجيرية طفيفة جداً في الهواء. شيء مألوف إلى حد غريب.

سأل: «حسناً، أين أنا؟».

- أنت تحلم.

- هل بإمكانني الاستيقاظ الآن، من فضلك؟

قال صوت آخر عتيق وخشن كالصوت الأول غير أنه مختلف عنه بعض الشيء: «لا».

قال صوت ثالث، يزيد في نبرته خشونة عن الآخرين: «في جَعبتنا شيء مهم نريد إخبارك به». فأوماً رينسوينا بحماقة. وفي مؤخرة عقله راقبت التعويذة النَّقاش واختلست النظر في حذر من فوق كتفه العقلي. راح الصوت يقول: «لقد جلبت علينا الكثير من المتاعب يا رينسوينا الشاب، تسقط في كل مرة من فوق حافة العالم بلا أي اعتبار للآخرين. فكان لزاماً علينا أن نشوه الواقع، كما تعلم».

- يا إلهي.

- والآن، ثمة مهمة غاية في الأهمية تنتظرك.

- أوه، حسناً.

- لقد خططنا منذ سنوات خلت لأن تختبئ واحدة منا في رأسك، لأننا تنبأنا بوقت ما يتعين عليك فيه أن تضطلع بدور مهم.

- أنا؟ لم؟

قال واحد من الأصوات: «أنت تلوذ بالفرار كثيراً، وهذا أمر جيد. أنت

ناج».

- ناج؟ لقد كنت على وشك أن أقتل عشرات المرات!

- بالضبط.

- أوه.

- لكنْ حاول ألا تسقط من على القرص ثانية. فنحن لن نسمح بهذا.

سأل رينسويند: «مَنْ يكون نحن بالتحديد؟».

علا صوت خشخشة من الظلام.

قال صوت خشن من خلفه بالضبط: «في البداية كانت الكلمة».

ثم صحَّح له صوت آخر قائلاً: «كانت البيضة، أتذكر ذلك بوضوح.

بيضة الكون العظيمة. كانت مطاطية بعض الشيء».

- كلاكما مخطئان في الحقيقة، أنا على يقين بأنها كانت المادة

اللزجة البدائية.

فقال صوت من عند ركبة رينسويند: «لا، أتى هذا في ما بعد. في

البداية كانت هنالك قبة سماوية. العديد من القباب السماوية. وكانت

لزجة للغاية، مثل حلوى غزل البنات. وكانت كثيفة جداً كالشراب المركز،

في الواقع...».

قال صوت مُشوَّش عن شمال رينسويند: «لو تعلمون، جميعكم

مخطئون، في البداية كان بلغم الحلق...».

-... ثم الكلمة...

- اسمحو لي، كانت المادة اللزجة.

- في رأيي أنها مادة مطاطية مميزة...

حلَّ سكوت مؤقت، ثم قال صوت ما بحرص: «على أي حال، أيما

كان، إننا نتذكره بوضوح».

- إننا كذلك تمامًا.

- بالضبط.

- ومهمتنا هي أن نراعي ألا يقع لها أي مكروه يا رينسوينا.

ضيّق رينسوينا عينيه مُحدِّقًا إلى الظلمة، وقال: «أسمحون بشرح ما تتحدثون عنه؟».

تهادت تنهيدة لها وقع كوقع الورق، وقال أحد الأصوات: «كفانا مجازًا. انظر، مهم للغاية أن تحمي التعويذة التي في رأسك، ثم تُعيدها إلينا بحلول الأوان المناسب، أنت تفهم، حتى عندما تحين اللحظة السانحة بالتحديد يمكن أن نُنطق معًا. أفهمت؟».

فكر رينسوينا: يمكن أن نُنطق؟

وأدرك فجأة ماذا كانت الزخرفة التشجيرية التي كانت أمامه. كانت كتابة على صفحة، يراها من الأسفل.

فسأل: «هل أنا بداخل كتاب الأوكتافو؟».

قال واحد من الأصوات بنبرة ارتجالية: «في إطار ميتافيزيقيٍّ معين». واقرب الصوت منه، حتى إنه شعر بخشخشة الورق الخشنة أمام أنفه بالضبط...

ففرَّ هاربًا.

توهجت النقطة الحمراء في رقعة الظلام الدامس. وأما تريمون، الذي كان لا يزال مرتديًا عباءته الاحتفالية التي حضر بها حفل تنصيبه رئيسًا للجماعة بعد أن التهم المتاع جالدر، فتعذّر عليه التغافل عن الشعور بأن النقطة الحمراء قد زاد حجمها قليلًا في أثناء مشاهدته إياها. فاستدار بعيدًا عن النافذة مرتجفًا.

وقال: «إنن؟».

قال أستاذ الفلك: «إنه نجم، حسب ظني».

- ظنك؟

جَفل الفلكيُّ. وكانا يقفان في مرصد الجامعة الخفيّة، ولم تكن البقعة الصغيرة الحمراء القانية الموجودة في الأفق تحدد إليه بأسوأ ما كان يفعل سيده الجديد.

- حسنًا، كما ترى، المغزى هو أننا لطالما اعتقدنا أن النجوم مماثلة تمامًا لشمسنا...

- تقصد الكرات النارية التي بعرض متر واحد؟

- أجل، لكن تلك الجديدة، حسنًا، كبيرة.

سأله تريمون: «أكبر من الشمس؟». إذ لطالما اعتبر تريمون أن كرة نارية بعرض متر واحد أمر مذهل للغاية، رغم أنه لا يُحب النجوم أصلًا. إذ تُظهر صفحة السماء بمظهر غير مرتب.

قال الفلكيُّ بتأنٍ: «أكبر بكثير».

- ربما أكبر من رأس أتوين العظيم؟

علا البؤس وجه الفلكيِّ: «أكبر من رأس أتوين العظيم والقرص معًا»، ثم أضاف بسرعة: «لقد تحققنا من الأمر، وإننا متيقنون تمامًا من هذا». قال له تريمون موافقًا: «هذا كبيرٌ، لدرجة أن كلمة «ضخم» تردُّ على الخاطر».

اتفق معه الفلكيُّ بلا تمهل قائلًا: «هائل».

- إمام.

مشى تريمون على أرضية المرصد التي تزينها لوحة فسيفساء عريضة، والتي كانت مزخرفةً بعلامات من علامات الأبراج الفلكية للقرص. كان هنالك أربعة وستون منها، بدءًا من كوكبة ويزين الكانجارو

مزدوج الرأس حتى كوكبة جاهولي مزهرية الزنبق (كوكبة ذات أهمية دينية كبيرة، والتي ضاع معناها الآن يا للأسف).

توقف على البلاطة الزرقاء والذهبية الخاصة بكوكبة موبو الضبع، واستدار فجأة.

وسأل: «هل سنرتطم به؟».

- هذا ما أخشاه يا سيدي.

- اممم.

وسار تريمون بضع خطوات إلى الأمام، ممسداً ذقنه وغارقاً في بحر

أفكاره. ثم توقف على أعتاب كوكبة أوكجوك البائع وكوكبة الجَزْرِ

الأبيض السماوي، وقال: «لستُ ضليعاً في تلك الأمور، لكني أظن أن

هذا أمر لا يبشر بالخير؟».

- لا يا سيدي.

- تلك النجوم شديدة الحرارة؟

ابتلع الفلكي ريقه، وأجابه: «أجل يا سيدي».

- سنحترق؟

- في نهاية المطاف. وقبل ذلك بلا شك ستقع هزات نرصية وأمواج

تسونامي واضطراب في الجاذبية وعلى الأرجح سيزول الغلاف

الجوي.

- آه. باختصار، فقدان النظام المناسب.

تردد الفلكي، ثم أذعن قائلاً: «بإمكانك قول هذا يا سبدي».

- هل سيفزع الناس؟

- باختصار غير مُخلِّ، أخشى ذلك.

قال تريمون: «اممم»، وكان يمرُّ لتوه من فوق كوكبة بوابة الاحتمالية ودار بسلاسة تجاه كوكبة بقرة السماء. ورفع بصره وضيق عينيه ثانية على البريق الأحمر البادي في الأفق. وبدأ أن تريمون قد توصل إلى قرار. قال: «لا يمكننا العثور على رينسويند، ولو لم نتمكن من العثور على رينسويند، فلن يمكننا العثور على تعويذة الأوكتافو الثامنة. لكننا نعتقد أنه لا بُدَّ من قراءة الأوكتافو لتفادي الكارثة، وإلا لمَ قد تركه الخالق؟». قال الفلكيُّ مقترحًا: «ربما كان ناسيًا فحسب».

حدق إليه تريمون.

فتابع كلامه وهو يعدُّ النقاط على أصابعه: «إن الجماعات الأخرى تجوب كل الأراضي الواقعة ما بين هنا والمركز بحثًا عنه لأنه غير معقول أن يخلق إنسان إلى السحاب دون رجعة...».

قال الفلكيُّ في محاولة بائسة ومُخفِّقة تمامًا لتلطيف الأجواء، كما اتضح: «إلا إذا كانت مليئةً بالصخور».

- لكن لا بُدَّ أنه قد نزل في مكان ما. أين هذا المكان؟ هذا ما يجب أن نسأله لأنفسنا.

سأله الفلكيُّ بنبرة توجي بالسمع والطاعة: «أين هذا المكان؟».

- وفي الحال تفرض خطة ما نفسها علينا.

قال الفلكي: «آه»، وراح يجري محاولاً مواكبة الساحر وهو يمشي بخيلاء على علامة كوكبة ابني العم السمينان.

- وتلك الخطة تكون...؟

رفع الفلكيُّ نظره إلى عينين رماديتان وباردتين كالفولان. وقال مخمناً: «إممم، هل نكف عن النظر إلى النجم؟».

- بالضبط! نستخدم العطايا التي منحنا إياها الخالق، حتى لو
مثقال ذرة، ننظر إلى الأسفل، وما الذي نراه؟
تنهد الفلكي تنهيدة داخلية، ونظر إلى الأسفل. وقال مخمناً: «بلاط؟».
قال تريمون وأمارات الترقب ترتسم على وجهه: «بلاط، أجل والذي
مُجْتَمِعًا يُكُون الـ...؟».

حَمَّنَ الفلكي الحائر البائس: «الأبراج الفلكية؟».

- بالضبط! ومن ثمَّ جُلُّ ما نحتاج إلى فعله هو إعداد خريطة الأبراج
المُحددة الخاصة برينسوينا وسنعرف بالتحديد مكانه!
ابتسم الفلكي كرجل شَعْر بلمس أرض صخرية صلبة تحت قدمه،
بعدما كان يرقص رقصاً تقريباً فوق الرمال المتحركة.
وقال: «لا بُدَّ لي من معرفة وقت ومحل مولده الدقيقين».

- عِلْمَ بكل سهولة، فقد نسختهما من ملفات الجامعة قبل أن أصد
إلى هنا.

طالع الفلكي الملحوظات، وقطَّبَ جبهته. إذ مشى إلى الاتجاه الآخر
من الغرفة وسحب درجاً واسعاً مليئاً بالمخططات الفلكية. وعاود
قراءة الملحوظات ثانية. وأخذ بوصلتين مُعقدتي التركيب ومرر بعض
التمريرات على تلك المخططات. وأخذ إسطرلاباً نحاسياً صغيراً ودوَّره
بحرص بالغ. ثم صَفَّرَ من بين أسنانه. وأخذ قطعة من الطباشير وخطَّ
بعض الأرقام على لوح.

في هذه الأثناء كان تريمون يحدق إلى النجم الجديد. وفكر: تقول
الأسطورة المخطوطة على جدران هرم تسورت إنه أي من يقول التعاويد
الثمانية معاً والخطر يحدق بالقرص ستتحقق أمنياته كفلق الصباح.
وسيكون هذا عما قريب جداً.

كما فكر: أتذكر رينسوينا، ألم يكن ذاك الفتى الأشعث الذي كان أخفق من في الفصل لما كنا نخضع للتدريب؟ والذي لا يحظى بأي عظام سحرية في جسده. لأحضره ماثلاً أمامي، وسنرى لو كنا نقدر على الحصول على كل الثمانية...

قال الفلكي بصوت خفيض: «يا إلهي». فاستدار تريمون.

- إذن؟

تهدجت أنفاس الفلكي، وقال: «يا له من مخطط مذهل». وقطب جبهته، وقال: «غريب بعض الشيء حقاً».

- غريب بأي شكل؟

- لقد وُلدَ ضمن المجموعة المملة الصغيرة للنجوم الخافتة التي، كما تعلم، تقع بين كوكبتي الموز الطائر والخيط المعقود. يُقال إن القدماء لا يمكنهم إيجاد أي شيء ذي أهمية تُذكر عن العلامة، وهذا ما...

قال تريمون منزعجاً: «أجل، أجل، وأصل ما كنت تفعله».

- إنها العلامة المرتبطة تقليدياً بصانعي رقع الشطرنج وبانعي البصل وصانعي الصور الجصية ذات القيمة الدينية البسيطة والأشخاص المتحمسين من عنصر البيوتر⁽¹⁾. وليست علامة ترمز إلى ساحر مطلقاً. وفي أوان ميلاده، كان ظل جبل كوري سلستي...

غمغم تريمون غاضباً: «لا رغبة لي في معرفة كل التفاصيل المتعمقة، أعطني اسم برجه فحسب».

(1) سبكة معدنية فضية أغلبها مكون من القصدير. (الترجمة)

تنهد الفلكيُّ، الذي كان يجد في ذكر هذه التفاصيل متعة لنفسه، وأجرى بعض الحسابات الإضافية.

وقال: «جيد جدًا، إنه يقول التالي: 'اليوم وقت مواتٍ لاكتساب الأصدقاء الجُدد. قد يجلب الفعل الطيب عواقبَ غير متوقعة. لا تُضايق أيًّا من كهنة الدرويد. ستنتقل عما قريب في رحلة غاية في الغرابة. طعام حظك هو الخيار الصغير. الأشخاص الذين يوجهون خناجرهم إليك لا خير من ورائهم على الأغلب. ملحوظة، إننا لا نعبث بشأن ما نقول بخصوص كهنة الدرويد'».

قال تريمون في حيرة: «كهنة الدرويد؟ أتساءل...».

سأل توفلاور: «هل أنت على ما يرام؟».

فَتَحَ رينسوينا عينيه.

نهض الساحر مُسرِّعًا وجَذَبَ توفلاور من قميصه. وقال في إلحاح: «أريد مغادرة هذا المكان. في التوا!».

- لكن سيُقام هناك طَقْسٌ قديم تقليدي!

- لا أبه بمدى قدمه! أريد أن أشعر بالحصى المستديرة الصلبة تحت قدمي، أريد أن أشمَّ الرائحة القديمة المعتادة لبالوعات المجاري، أريد الذَّهَابَ إلى حيث يوجد الكثير من الأشخاص والنيران والأسقف والجدران وكل تلك الأشياء الوديعة من هذه الشاكلة! أريد العودة إلى الديار!

فوجد أنه قد اعتراه ذاك الاشتياق المُفرط المفاجئ إلى الشوارع التي تنتشر فيها الأبخرة والأدخنة في مدينة عنخ-موربورك، والتي لطالما بلغت أوجها في الربيع لما يكون اللمعان الصمغي لمياه نهر عنخ

العكرة تقزحًا لونياً متميزًا، والأفاريذ تضجُّ بتغريد العصافير، أو على الأقل سُعال الطيور بإيقاع تناغمي.

غرغرت عينا رينسوينا بالدموع وهو يتذكر عرض الضوء البديع على معبد الآلهة الصغيرة، وهو معلم محلي بارز، وسرت في حلقه غصة حينما تذكر كشك السمك المقلي في ملتقى طريق شارع تل النفايات وشارع الصناع البارعون. وراح يفكر في القثاء المُخلل الذي يبيعه هناك، الذي بمنزلة أشياء خضراء رائعة تقبع في قاع الجَرَّة مثل الحيتان الغرقى. ونادت رينسوينا رغم البُعد بينهما، ووعده بتقديمه إلى البيض المُخلَّل في الجَرَّة المجاورة.

فكر في عليَّة إصطبل الخيل والشبكات الدافئة حيث قضى ليليه. وفي حُمو منه، قد ضاق بنمط الحياة هذا في بعض الأحيان. وقد بدت له الآن تلك الحياة مذهلة رائعة، غير أنها في الماضي كانت مُملة.

وفي هذا الأوان كان قد طفح الكيل. لقد قرر العودة إلى الديار. ولسان حاله يقول أيها القثاء المخلل، أنا أسمع نداءك...

فدفع رينسوينا توفلاور جانبًا، ولملم عباءته الرثة حوله جسده في ترفع وإباء، ويَمَّم وجهه نحو مكان في الأفق يعتقد أن مدينة مولده تقع فيه، وفي عزم شديد وغفلة كبيرة خرج ماشيًا من على قمة التريليثون⁽¹⁾ التي يبلغ ارتفاعها تسعة أمتار.

وبعد عشر دقائق، لمَّا وجده توفلاور الذي اعتراه القلق والندم الشديدان وأخرجه من ركام الثلج الكبير عند قاعدة الأحجار، لم تتبدل سيماء وجهه. نظر إليه توفلاور عن قرب.

وقال: «هل أنت على ما يرام؟ كم إصبعًا مرفوعة ترى؟».

(1) بناء حجري مكوّن من ثلاثة جنادل صخرية كبيرة، يكون منها حجران قائمان والثالث مرتكز فوقهما. (المترجمة)

- أريد العودة إلى الديار!

- حسنًا.

- كلا، لا تحاول أن تثنيني عن ذلك، لقد طفح الكيل، كنتُ أودُّ أن

أقول إن الأمر كان متعة كبيرة إلا أنني لا أستطيع، وماذا؟

قال توفلاور: «قلتُ حسنًا، أودُّ بشدة أن أرى عنخ-موربورك ثانية.

أتوقع أنهم قد أعادوا بناء جزء كبير منها حتى الآن».

تجدر الإشارة إلى أن المرة الأخيرة التي رأى فيها كلاهما المدينة

كانت النيران تستعر فيها بشدة، وهذا دليل وثيق الصلة بتقديم توفلاور

لمفهوم التأمين ضد الحرائق إلى العامة المعذورين بجهلهم. لكنَّ تلك

الحرائق المدمرة كانت سمةً اعتياديةً في طبيعة الحياة الموربوركية

ويُعاد بناءُ المدينة بكل سعادة وعناية، باستخدام المواد المحلية

التقليدية من الخشب شديد الجفاف القابل للاشتعال وأسقف من القش

محمية من الماء بطلاء من القطران.

قال رينسويند وقد هدأ قليلاً: «أوه، أوه، صحيح. حسنًا إذن. جيد.

ربما يُستحسن لنا المغادرة الآن».

ونهض مسرعًا ونفض الثلج عن نفسه.

أضاف توفلاور: «أظن فحسب أنه علينا أن ننتظر حلول الصباح».

- لم؟

- حسنًا، لأن البرد قارس، ونحن لا نعرف المكان الذي نحن فيه، ثم

إن المتاع قد ضاع، وبدأ الظلام يرخي سدوله...

توقف رينسويند. وعميقًا في أودية عقله الضيقة، ظنَّ أنه قد سمع

صوت خشخشة بعيدة لأوراق قديمة. وانتابه شعور مرَّوع بأن أحلامه

ستغدو متكررة من الآن فصاعدًا، ولديه أمورًا أفضل بكثير يفعلها بدلًا

من أن تُلقنه حَفنة من التعاويذ القديمة دروسًا في حين يصعُب عليها
الإجماع على الكيفية التي بدأ بها الكون...

قال صوت جاف خافت في مؤخرة عقله: «أَيُّ أمور؟».

فقال رينسويند: «أوه، اخرس».

بدأ توفلاور كلامه قائلاً: «لقد قلتُ فحسب إن البرد قارس...».

- لم أعنِكَ أنت، بل عَنيت نفسي.

- ماذا؟

قال رينسويند في ضيق: «أوه، أطبِقُ فمك. لا أظن وجود ما نأكله في
هذه الأنحاء؟».

كانت الصخور العملاقة سوداء وتتحدى ضوء غروب الشمس
الأخضر المحتضر. كانت الحلقة الداخلية تعج بكهنة الدرويد الذين
يهرولون في الأرجاء على ضوء العديد من النيران المشتعلة في الهواء
الطلق ويوائمون كل الملحقات اللازمة للحاسوب الحجري، مثل جماجم
الكباش الموضوععة على عصي طويلة تعلوها أغصان شجر الهدال
والأعلام المُطرزة بالثعابين الملتوية حول بعضها وما إلى ذلك. ومن
وراء الحلقات التي كَوَّنها ضوء النار تجمع عدد كبير من أهل السهول؛
فدائمًا ما كانت الاحتفالات الدرويدية شائعة، لا سيَّما عندما تخرج الأمور
عن مسارها الصحيح.

حدِّق إليهم رينسويند.

- ما الذي يجري؟

قال توفلاور في حماسة: «أوه، حسنًا على ما يبدو يُقام هذا الطقس
الذي يرجع تاريخه إلى آلاف السنين للاحتفال بال، إممم، بولادة القمر

من جديد، أو على الأرجح الشمس. كلا، أنا على يقين بأنه القمر. إذ له على ما يبدو رونق مهيب وجميل ومزدان بجلال كبير».

ارتجف رينسويند. فدومًا ما يعتريه القلق لما يشرع توفلاور في الحديث على تلك الشاكلة. أقلها لم ينطق بكلمات مثل 'تصويري' أو 'غريب' حتى الآن؛ فلم يجد رينسويند ترجمةً مرضيةً لهاتين الكلمتين، لكنَّ أقرب معنى قدر على التوصل إليه كان 'عضلة'.

قال السائح بنبرة كلها أسى: «أتمنى لو كان المتاع هنا، كنت لأستخدم صندوق الصور. يبدو الأمر تصويرياً وغريباً».

تحرك الحشد مؤملاً جريان الطقس على ما يرام، إذ بدا أن الأمور كانت على وشك البدء.

قال رينسويند في إلحاح: «انظر، إن الدوريد كهنة. عليك تذكر ذلك. فلا تُقدِّم على فعل شيء يغضبهم».

- لكن...

- لا تعرض عليهم شراء الأحجار.

- لكني...

- لا تسترسل في الحديث عن الأعراف الأصلية الغريبة.

- أظن...

- وجدياً، لا تحاول بيع التأمين لهم، فدائماً ما يضايقهم هذا.

صرخ توفلاور قائلاً: «لكنهم كهنة!». حينها توقف رينسويند.

وقال: «أجل، هذا هو تمام القصد، أليس كذلك؟».

وعلى الجانب الأبعد من الحلقة الخارجية، كان موكب من نوع ما

يتشكل.

قال توفلاور: «لكنَّ الكهنة صالحون طيبون. ففي موطني، يتجولون بآنية الشحاذة». وأضاف: «وهي كل ما يملكون».

قال رينسوينا وهو غير متيقن من أنه قد فهم ما قاله توفلاور: «آه، هذه الآنية لوضع الدم فيها، صحيح؟».

- دم؟

قال رينسوينا: «أجل، دم القرابين». وراح يفكر في الكهنة الذين عرفهم في الديار. وكان طبعًا مرتابًا لئلا يعادي أيًا من الآلهة وقد حضر العديد من احتفالات المعابد وفي العموم كان يعتقد أن التعريف الأدق لأي كاهن في مناطق البحر الدائري هو شخص قضى الكثير من الوقت وهو مضرَّج بالدم حتى إبطيه.

بدا الفرع على توفلاور.

وقال: «أوه، لا. الكهنة من حيث أتيت رجال أتقياء كرسوا أنفسهم لحياة التقشف والعمل الصالح ودراسة طبيعة الإله».

فكر رينسوينا في هذا المقترح الجديد.

وتساءل: «بلا أي قرابين؟».

- قطعًا لا.

أذعن رينسوينا، وقال: «حسنًا، لا يبدو لي أتقياء للغاية».

تهادى إلى أسماعهما صوت جلبة حادة من فرقة تحمل أبواقًا برونزية. جال رينسوينا بنظره في الأتحاء فوجد صفاً من كهنة الدرويد يمشون الهوينى وقد مروا بهما، ومناجلهم الهلالية الطويلة معلقة عليها باقات من أغصان الهدال. وتبعهم العديد من كهنة الدرويد الصغار والمتدربين، ضاربين على آلات قرع عدَّة، والتي في تقليديهم يفترض أن تُبعد الأرواح الشريرة، وقد نجحت تمامًا على الأرجح.

شكّل ضوء المشاعل أشكالاً بارزة مثيرة للاهتمام على الأحجار، التي برزت منذرة بالشؤم مقابل السماء المُنارة بالضوء الأخضر. وفي اتجاه المركز، راحت الستائر اللامعة لتأثير كوريوليس في الشفق القطبي تومض وتلمع بين النجوم فيما تتراقص مليون بلورة ثلجية في الحقل السحري للقرص.

همس توفلاور: «لقد شرح لي بيلفون الأمر كاملاً، سنشهد احتفاليةً خلّدها الزمان تحتفي بتوحد الإنسان مع الكون، هذا ما قاله».

نظر رينسويند إلى الموكب في امتعاض. وبينما ينتشر كهنة الدرويد حول الحجر المسطح الكبير الذي يتربع في منتصف الحلقة، وتمكن من رؤية الشابة الجذابة، إن لم تكن الشاحبة، وهم يتحلّقون حولها. كانت ترتدي ثوباً أبيض طويلاً وتضع طوقاً حول عنقها وتكتسي ملامحها بأمارات الترقب المبهم.

سأل توفلاور: «هل هي كاهنة درويد؟».

أجاب رينسويند متمهلاً: «لا أظن ذلك».

بدأ كهنة الدرويد ينشدون. شعر رينسويند، أنها كانت أنشودة بغیضة ومملة جداً على وجه الخصوص، والتي بدت إلى حد كبير كأنها تتهياً لتصعيد صوتي مفاجئ. ولم تؤثر رؤية الشابة المستلقية على الحجر الكبير في جريان حبل أفكاره ولو قليلاً.

قال توفلاور: «أريد أن أبقى، في ظني أن احتفاليات كتلك ترجع إلى البساطة البدائية التي...».

قال رينسويند: «أجل، أجل. لكنهم سيضحون بها، من باب العلم بالشيء».

نظر إليه توفلاور في ذهول.

وقال: «ماذا، سيقتلونها؟».

- أجل.

- لمّ؟

- لا تسألني. لجعل المحاصيل تنمو والقمر يبزغ أو شيء من هذا القبيل. أو ربما هم مولعون بقتل الناس، هذا مفهوم العقيدة بالنسبة إليك.

ثم تنبّه لصوت همهمة منخفض، وكانت محسوسة أكثر منها مسموعة. وبدا أنها تأتي من الحجارة المجاورة لهما. ثم و مضت نقاط صغيرة ضوئية تحت سطحها، مثل البقع الصغيرة من اللكاث.

عجز توفلاور عن الكلام فراح يفتح فمه ويطبقه.

وتساءل: «ألا يمكنهم أن يستخدموا الأزهار والتوت وتلك الأشياء فحسب؟ كنوع من الرمزية؟».

- لا.

- هل جرب أي أحد من قبل عمل ذلك؟

زفر رينسوينا، وقال: «انظر، لا يوجد كاهن عالي المقام يحترم ذاته سيعمل كل تلك الأعمال مستخدمًا الأبواق ويسير في المواكب حاملًا الأعلام وكل ذلك، ثم يرمي بسكينه في زهرة نرجس وبعض ثمرات البرقوق. عليك تقبّل الأمر، كل تلك الأشياء بخصوص الأغصان الذهبية ودورات الطبيعة وكل تلك الأمور مرجعها إلى الجنس والعنف، في الغالب في آن واحد».

وما غلب زهول رينسوينا أنه وجد شفتي توفلاور ترتجفان خوفًا. فتوفلاور لا ينظر فقط إلى الحياة نظرة وردية، هذا ما يعرفه رينسوينا، بل ينظر إليها بعقل وردي كذلك، ويستمتع لها بأذنين ورديتين.

كانت الأنشودة تملو بلا توقف إلى التصعيد الصوتي. كان كبير كهنة
الدرويد يختبر سنَّ منجله الهلالي وتحولت كل الأنظار إلى الامتداد
الصخري الموجود عند التلال المكسوة بالثلج خارج حدود الحلقة حيث
يفترض بالقمر أن يحل ضيفاً.

- لا جدوى أنت...

لكنَّ رينسوينا كان يتحدث إلى نفسه.

رغم ذلك، لم تكن الأجواء الباردة خارج الحلقة تخلو تمامًا من الحياة.
من جانب، كانت زمرة من السحرة الذين استنفرهم تريمون يقتربون
الآن.

لكنَّ كذلك كان ثمة شخص صغير البنية وحييداً يراقب المشهد متخذاً
من الحجر الساقط من السماء سترًا له. راقب واحد من أعظم أساطير
القرص الأحداث الواقعة في الحلقة الحجرية باهتمام بالغ.

لقد رأى كهنة الدرويد يتحلقون ويهتفون، ورأى كبير الكهنة يرفع
منجله الهلالي...

وسمع الصوت.

- لو سمحت! عذراً! أيمكنني التحدث معك؟

نظر رينسوينا حوله في يأس باحثاً عن مهرب، غير أنه لم يجد. كان
توفلاور يقف قرب حجر المذبح رافعاً إصبعاً واحدة في الهواء ومتلبساً
بحالة من الإصرار المخلوط بالأدب.

تذكّر رينسويند ذات يوم حينما ظنّ توفلاور أن سائق الماشية كان يضرب ماشيته بقسوة شديدة، والجدل الذي أثاره بخصوص آداب مُعاملة الحيوانات قد ترك رينسويند وهو يشعر أن حيوانًا ما سحقه تحت قدميه وضربه بقرنيه بلا رحمة.

راح كهنة الدرويد ينظرون إلى توفلاور وعلى وجوههم انطباع لا يظهر إلا حال وجود خروف مسّه الجنون أو ظهور مفاجئ لسيل من الضفادع. ولم يسمع رينسويند تحديدًا ما كان يقوله توفلاور، لكنّ بضع عبارات من قبيل 'عادات تقليدية عرقية' و'الجوز والزهور' كانت تعلق بين أرجاء الحلقة التي سادها الصمت.

ثم أطبقت أصابع تشبه حَفنة من أصابع الجبن على فم الساحر وغرّز نصل حاد على عقدة حنجرته وقال صوت مكتوم قُرب أذنه: «ولا شوت وإلا شتكون في عداد الموتى».

دارات عينا رينسويند في محجريها كما لو كانتا تحاولان العثور على مخرج.

وهمس: «إن لم ترد مني التفوه بأي كلام، كيف ستعرف أنني وعيتُ ما قلته لتوك؟».

- اخرش وأخبرني مَاشًا يفعل الأحمق الآخر!

قال رينسويند: «كلا، لكنّ انظر، لو كان عليّ أن أسكت، فكيف يمكنني...»، وأضحى السكين الموضوع على عنقه حدًا ملتهبًا ومؤلمًا، فقرر رينسويند ألا يتعامل مع الأمر بالمنطق.

- اسمه توفلاور وهو ليس من هذه النواحي.

- لا يبدو عليه هذا، أهو شديك؟

- إننا نحظى بعلاقة كراهية متبادلة، طبعًا.

لم يستطع رينسويند رؤية أسرهِ، لكنْ بحدسه قدّر أن له جسمًا مصنوعًا من علاقات الملابس. كما فاحت منه رائحة نعناع قوية.

- إنه جَشُور، أقر له بهَشًا. افعل ما أملكه عليك بالضبط، فربما لا ينتهي أمره معهم مربوطًا على إحدى الشخور.

- اممم.

- إنهم غير متوحدين على مذهب واحد في هذه الأرجاء، كما ترى.

في تلك اللحظة بزغ القمر، في امتثال تام منه لقوانين الاقتناع، ورغم مراعاة قوانين الحوسبة، فلم يكن قريبًا بأي حال من حيثها أشارت الأحجار إلى الموضع الذي يجب أن يكون فيه.

لكنَّ كُلَّ ما كان موجودًا في الأفق هو نجم أحمر لامع يسترق النظر من بين فرجات في السحب. ولاح تمامًا فوق الحجر المقدس المتربّع في قلب الحلقة بالتحديد، لامعًا كالبريق المتلألئ في محجر عين الموت. كان يُنذر بالكآبة ويفيض بالبغض كما أنه، ما لم يغب عن ملاحظة رينسويند، قد كَبُر قليلًا عما كان عليه ليلة البارحة.

دَوّت صرخة رعب من الكهنة المُجتمعين. فتقدّم على إثرها الحشد الموجود عند التلال الثلجية المحيطة بالمكان، بدا هذا مُبشّرًا للغاية.

شعر رينسويند بمقبض سكين ينزلق في يده، وقال الصوت المُشوش من خلفه: «هل فعلت هَشًا النوع من الأمور من قبل؟».

- أي نوع من الأمور؟

- اقتحام معبد وقتل الكهنة وشرقة الذهب وإنقاش الفتاة.

- لا، ليس على هذا النحو.

- افعل الأمر على هَشًا النحو.

وعلى بُعد أنملتين من أذن رينسوينا اليسرى انطلق صوت كصوت قرد البابون الذي علقته قدمه في وادٍ يُردد الصدى، واندفع جسم صغير لكن نحيل وقوي أمامه.

رأى رينسوينا على ضوء المشاعل أنه طاعن جداً في السن، كان ذلك النوع من النحيلين الذين يُطلق عليهم بشكل عام 'خفيفو الحركة'، وله رأس أصلع تماماً، ولحية تصل حتى ركبتيه، وساقان كعيذان الكبريت تعانيان دوالي الأوردة التي رسمت خريطة شوارع تخص مدينة مترامية الأطراف على طول ساقيه. ورغم وجود الثلج الذي ينشر البرد في الأجواء، لم يرتد الشيخ سوى مئزر جلدي حول خصره مرصع بالدبابيس وحذاء قد يسع ببساطة قدمين أخريين.

تبادل أقرب كاهنين إليه النظرات مع بعضهما ثم رفعاً منجليهما. كان هنالك تشوش ضبابي لوقت قصير ثم سقطا منهارين متكورين من الألم مصدرين صوت خشخشة.

في الأحداث المشوقة التي تلت ذلك، انسل رينسوينا خفية باتجاه حجر المذبح، ممسكاً خنجره بحذر شديد حتى لا يتلقى أي تعليق غير ترحيبي. وفي الواقع لم يكن ثمة من يوليه أي قدر من الاهتمام، فقد اجتمع كهنة الدرويد الذين لم يفروا إلى خارج الحلقة، وكان عامة الكهنة الأصغر سناً والأقوى بدنًا، حول الشيخ حتى يناقشوا الموضوع الكلي الخاص بتدنيس المقدسات إذ إنها وثيقة الصلة بالحلقات الحجرية، لكن بالحكم بناء على القهقهة وأصوات طقطقة الغضاريف، كان هو من يُدير دفة النقاش.

كان توفلاور يشاهد العراك بفضول، فجذبه رينسوينا من كتفه. وقال: «هيا نذهب».

- أليس علينا مد يد العون؟

- سنكون مجرد عائق. أنت تعرف كيف تكون الحال عندما يكون بصحبتك أناس مفزوعين وأنت مشغول بأمرٍ ما.
- على الأقل علينا إنقاذ الشابة.
- حسنًا، لكن تحرك!

أمسك توفلاورَ الخنجرَ وهُرِعَ إلى حجر المذبح. وبعد محاولات قطع عدّة معدومة المهارة أمكن له أن يقطع الحبال التي تربط الفتاة التي نهضت وانفجرت في البكاء.

بدأ الكلام قائلًا: «لا بأس...».

ردّت غاضبةً وهي تحديق إليه بعينين يحيط حافتيهما احمرارٌ: «جيد للغاية، أليس كذلك! لم اعتاد الناس إفساد الأمور؟». ثم نمخطت مستاءةً في طرف ثوبها.

رفع توفلاورَ نظره إلى رينسوينا مُرحبًا. وقال: «امم، لا أظن أنك تتفهمين الأمر تمامَ الفهم. أقصد، لقد أنقذناك من موت محتوم».

- الحياة هنا ليست أسهل ما يكون، أقصد إبقاء المرء على حياته... ثم تورّدت وجنتاها وبرمت حاشية ثوبها في بؤس. وتابعت: «أقصد البقاء... ألا يُورّط المرء نفسه... ألا يفقد مؤهلاته للحياة...».

فعلق توفلاورَ: «مؤهلات؟»، مانحًا رينسوينا جائزة الكأس لكونه الشخص الأبطأ استيعابًا في الأكوان المتعددة. وضيقّت الفتاة عينيها.

وقالت بفضاظة: «كنت لأكون في الأعلى مع إلهة القمر في هذا الأوان، وأشرب شراب العسل من الإناء الفضي. لقد لَزمت المنزلَ ثمانِي سنوات في ليالي السبت بلا أي هدف أو جدوى!». ورفعتَ نظرها إلى رينسوينا في عبوس وغضب.

ثم شعر رينسوينا بشي ما. ربما كان وقع خطوات خافتة من خلفه، ربما كانت حركة انعكست صورتها في عيني الفتاة لكنه خفض رأسه. وكان ثمة أزيزٌ لشيء ما في الهواء في الموضع الذي كان فيه عنق رينسوينا وانحرف من فوق رأس توفلاور الأصلح. واستدار رينسوينا ليرى الأرشدرويد⁽¹⁾ يُجهّز منجله ليسدد ضربة خاطفة أخرى، وفي ظل انعدام أي أمل للهروب، راح رينسوينا يُهاجم بإحدى قدميه في يأس.

فأصابت قدم رينسوينا الدرويد في رضفة ركبته تمامًا. وبينما يصرخ الرجل ويُسقط سلاحه، جاء صوتٌ مُقرزٌ قصيرٌ يوحي باختراق السيف لحم الرجل وبعدها سقط على وجهه. ومن خلفه سحب الرجل الصغير ذو اللحية الطويلة سيفه من جسم الدرويد، ثم مسحه بحفنة من الثلج، وقال: «فقراتي القطنية تؤلمني. لكما أن تحملنا الكُنش عني». علّق رينسوينا دون اقتناع منه بكلام الشيخ: «الكنز؟».

قال الشيخ بنبرة واهنة: «كل القلائد والأغراض. وكل الأطواق. فلديهم الكثير منهما. هؤلاء الكهنة هم من نَشيبكم. لا يوجد غير الأطواق، الأطواق، الأطواق. من تكون الفتاة؟».

أجاب رينسوينا: «لن تدعنا ننقذها». ونظرت الفتاة إلى الشيخ في تحدٍّ من خلال مظل عينيها المُلطخ.

قال: «تَبًّا لِهَشَا»، وبحركة واحدة أمسكها فترنح قليلاً وصرخ متألمًا من التهاب مفاصله ثم سقط أرضًا.

وبعد هنية قال من وضعية الانبطاح التي كان عليها: «لا تقفي هناك فحشب أيتها الشاقطة؛ أمشكي بيدي للنهوض». ومما أذهل رينسوينا كثيرًا كما أذهل الفتاة كذلك أنها فعلت.

(1) كبير كهنة الدرويد. (المتجمة)

في تلك الأثناء كان رينسويند يحاول إيقاظ توفلاور. وكان ثمة خدش على صدغه ولم يبدو أنه عميق جدًّا، لكنَّ كان الرجل الصغير غير واعٍ وترتسم على وجهه ابتسامة واهنة قَلِقة. وكانت أنفاسه ضحلة و... غريبة.

كان خفيفًا. ليس بسبب فقدانه الوزن فحسب، بل لانعدام وزنه. ولربما كان الساحر يُمسك بظل.

تذكر رينسويند أنه قيل إن كهنة الدرويد كانوا يستخدمون سموًّا غريبةً ومروعةً. كما قد شاع طبعًا قول، الناس ذاتهم، أن اللصوص يتميزون دومًا بعينين متقاربتين، وأن البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين، وأن الآلهة لو أنها أرادت لبني البشر الطيران لكانت أعطتهم تذكرة طيران. لكنَّ كان هنالك خطب ما حيال خفة توفلاور أَرعب رينسويند. أَرعبته أشد الرعب.

رفع بصره إلى الفتاة، وكانت تحمل الشيخ متدليًا على إحدى كتفيها، وابتسمت لرينسويند شبه ابتسامة تنم عن الاعتذار. وقال صوت من مكان ما عند مستدق ظهرها: «هل جمعتما أغراضكما؟ هيا لننشرَف من هنا قبل أن يرجعوا».

وضع رينسويند توفلاور تحت ذراعه وهرول خلفهما. إذ بدا أن هذا هو الحل الوحيد.

كان للشيخ حصان كبير أبيض مُقيد إلى شجرة ذابلة في وادٍ يكسوه الثلج على مقربة من الحلقات. وكان أملس لامعًا غير أن ما أفسد الانطباع العام بأنه جواد حرب رائع إلى حد ما هي حلقة البواسير المربوطة في سرجه.

- حسنًا، ضعيني أرضًا. شَمَّة قنينة مرهم من نوع ما في حقيبة رَحْل الخيل، لو شمحتِ...

أسند رينسويند توفلاوَر إلى شجرة بعناية فائقة، وعلى ضوء القمر -وعلى الضوء الأحمر الخافت للنجم الجديد المنذر بالخطر الذي عَرَفه رينسويند- نظر نظرتة الأولى الفعلية إلى منقذه.

كان للرجل عين واحدة، وكانت الأخرى مغطاة بعصابة سوداء. وكان جسده بمنزلة شبكة من الجروح، وفي الوقت الحالي، راح يئن أنينًا شديدًا من التهاب الأوتار. فيما قد قررت أسنانه أن تغادر لثته منذ وقت طويل جدًّا.

وسأل: «مَن أنت؟».

قالت الفتاة: «بيثان»، وراحت تُدلك حَفنة من المرهم كريبه الرائحة أخضر اللون على ظهر الشيخ. وبدتُ كشخص، لو سُئِلتُ عما يرد على خاطرها من أحداث قد تقع بعدما ينقذها بطلٌ بجواد أبيض من طقس تضحية بالعدراء، لن تَذكر على الأرجح التدليك بالمرهم، لكنْ لما كان التدليك بالمرهم هو ما وجدته الآن بعد كل شيء، كانت عازمة على أن تَبرع في فعله.

صحَّح رينسويند: «قصدته هو».

فَنَظَر إليه الشيخ عاليًا بعينٍ متألقة كالنجوم. وردَّ: «اشمي كوهين يا فتى». فتوقفتُ يد بيثان عن الحركة.

وسألته: «كوهين؟ كوهين البربري؟».

- هو نفسه.

قال رينسويند: «تريث، تريث، كوهين رجل ضخم الجثة له رقبة كرقبة كالثور، وعضلات صدر كَجَعْبَة مليئة بكرات القدم. مقصدي أنه

أعظم محارب عرفه القرص، أسطورة حية في زمانه. أذكر أن جدي حدثني أنه رآه... وأخبرني جدي أنه... جدي...».

وخانه التعبير في ظل النظرة المُمعنة الموجهة إليه.

وقال: «أوه، أوه، بلا ريب. آسف.».

قال كوهين: «أجل»، ثم تنهد وتابع: «هَشا حقيقي يا فتى. أنا خالدٌ في أشطورتِي.».

سأله رينسويند: «يا إلهي، كم عمرك بالضبط؟».

- شبعة وثمانون.

قالت بيثان: «لكنك كنت الأعظم! فالشعراء لا يزالون ينشدون الأغاني فيك.».

هز كوهين كتفيه، وصرخ صرخة حادة قصيرة من شدة الألم.

وقال: «لا أتحشل أبدًا على أي عوائد»، ونظر إلى الثلج في تجهم، وتابع: «تلك هي قِشَّة حياتي الملحمية شمانون شنة في هذه الشَّنعة وماشًا جنيت؟ آلام الشَّهر والأدوية وشوء الهضم ومئات الوشفات المختلفة للحِشَاء. الحِشَاء! أكره الحِشَاء!».

قطبت بيثان جبهتها وسألت: «الحِشَاء؟».

قال رينسويند موضحًا: «الحِشَاء.».

قال كوهين في بؤس: «أجل، الحِشَاء. إنها أشناني، كما ترين. لا أحد يأخُشك على محمل الجِد عندما لا يكون للمرء أي أشنان، فيقولون: «اجلس قرب النار أيها الجِد واحتشِّ بعض الحِشَاء...»، ونظر كوهين بحدة إلى رينسويند. وقال: «ذاك شُعال مقزز يا فتى.».

فأشاح رينسويند بنظره بعيدًا، متحاشيًا النظر إلى وجه بيثان. ثم حل عليه شعور بالحزن واليأس. وكان توفلاور لا يزال يستند إلى

الشجرة، مُغيبَ الوعي في راحة وسلام، ويبدو عليه الاستياء بالقدر الممكن المتناسب مع هذه الظروف.

بدا أن كوهين يتذكره كذلك. فهبَّ ناهضًا في غير ثبات منه ومشى مُجرِّجًا قدميه إلى حيث يجلس السائح. ثم فَتَحَ عينيه بإبهامه وعاین الجرح واستشعر النبض.

وقال: «لقد رحل».

فردَّ رينسویند: «هل هو ميتٌ؟». في حجرة الجدل الكامنة في عقله، هبتْ عشرات الأحاسيس واقفةً وراحت تصرخ. كان هناك ارتفاع كبير في شعور الراحة حينما قاطعه شعور الصدمة في تصحيح منه للوضع الشعوري ثم نشب عراك بين شعور الذهول والرعب والخسارة ولم ينته إلا بدخول شعور الخزي متسللاً من الباب الأمامي لرؤية سبب كل ذلك الخلف.

قال كوهين وهو غارق في أفكاره: «لا، ليش بالتحديد. رحل لا غير».

- رحل إلى أين؟

قال كوهين: «لا أعلم، لكنْ أعلم شخصًا قد يكون معه خريطة».

بعيدًا بالخارج في الحقل الثلجي، توهجتْ عدة نقاط صغيرة حمراء في الظلال.

قال الساحر الموجود في الطبيعة وهو يُنعم النظر إلى كُرّة بلورية: «إنه ليس ببعيد».

أتى صوت متممة من الصفوف التي خلفه توحى بأنها أيّما كان رينسویند بعيدًا، فلن يكون بعده أبعد من استحمام ساخن مريح ووجبة طيبة وفراش وثير.

ثم توقف الساحر الذي كان يمشي بتثاقل في الخلف، وقال: «اسمعوا!».

أصغوا، فتهادت أصوات رقيقة لبوادر شتاء يشرع في إحكام قبضته على الأراضي وأصوات صرير الحجارة وأصوت مكتومة لوقع سير مخلوقات صغيرة في سراديبها تحت البساط الثلجي. وفي غابة ما بعيدة عوى ذئب ثم شعر بالإحراج لأنه لم ينضم إليه أحد، فتوقف. وكان الصوت الفضي لضوء القمر كتساقط الثلج وصوت أزيز في صدورهم وهم يحاولون التقاط أنفاسهم بهدوء.

فقال أحدهم: «لا أستطيع سماع شيء...».

- ششش!

- حسناً، حسناً...

ثم سمع جميعهم الصوت؛ صوت سحق ناءٍ خافت، كأنما شيء يتحرك سريعاً على الطبقة الثلجية.

تساءل أحد السحرة: «ذئاب؟». وراحوا جميعاً يفكرون في أجساد هزيلة جائعة تقطع الليل قافزة.

قال القائد: «لا، لا. هذا أمر اعتيادي جداً. ربما يكون رسولاً؟».

علا الصوت أكثر الآن، وكان له إيقاع قرمشة كأنما يلتهم أحدهم الكرفس بسرعة كبيرة.

قال القائد: «سأطلق إشارة ضوئية عالياً». وأمسك بحفنة من الثلج، ثم لفها في شكل كرة ورماها عالياً في الهواء وأشعلها بدفقة من نار الأوكتارين من أطراف أصابعه. ثم لاح وهج أزرق قوي مدة قصيرة.

هبط الصمت، ثم قال ساحرٌ آخر: «أيها الشقي اللعين، يتعذر عليّ الرؤية الآن».

كان هذا آخر ما سمعوه قبل أن يصطدم بهم شيء ما سريع وصلب
وصاحب من قلب الظلمة ثم ذاب في أثناء الليل.

ولمَّا جَذبوا واحدهم الآخر من الثلج كان كُلُّ ما وجدوه آثَارًا مُحْكَمَةً
ضاغِطَةً في الثلج تدلُّ على مواضع أقدام صغيرة. مئات من مواضع
الأقدام الصغيرة، جميعها كانت متقاربة وتمشي في الثلج مستقيمة
كضوء مصباح كاشف.

قال رينسويند: «مستحضرة أرواح!».

هَزَّت العجوز الجالسة على الجانب الآخر من النار كتفيها ثم سحبت
رِزْمَةً من البطاقات المزيَّنة من جيب ما خفي.

ورغم عمق الصقيع الضارب بالخارج، فإنَّ الجوّ داخل خيمة
اليورت⁽¹⁾ كان أشبه بإبط حداد وكان الساحر يتصبب عرقًا. وهذا كله
لأن روث الخيل يعمل كوقود جيد، غير أن قوم الخيل لا بدَّ لهم أن يتعلموا
الكثير عن تكييف الهواء، بدءًا من معناه.

مالت بيثان إلى أحد الجوانب. وهمست: «ما هو حضور الأفراح؟».

أجابها موضحًا: «استحضر الأرواح. التحدث إلى الموتى».

فقال بطريقة مبهمّة تنم عن إحباط: «أوه».

كانوا قد تعشّوا من لحم الخيل وجبن الخيل وحلوى بودينج الخيل
السوداء ومقبلات الخيل، ومشروب جعة خفيف القوام الذي لا رغبة
لرينسويند في السؤال عن مصدره. وقد شرح كوهين -الذي تناول حَسَاء
الخيـل- أن قبائل الخيل في سهوب أرض المركز قد وُلِدُوا على سروج
الخيـل ورافقوا الخيل منذ ميلادهم، وهو أمر في نظر رينسويند مستحيل

(1) خيمة ذات أصل تركي دائرية الشكل. (المترجمة)

في الطب النسائي، وكانوا مهرةً على وجه التحديد في السحر الطبيعي إذ إن الحياة في السَّهل المفتوح تجعل المرء يدرك كيف أن السماء تتناسب مع الأرض من عند الحواف كافة، وهذا من تلقاء ذاته يُلهم العقل بأفكار عميقة مثل، 'لِمَ؟' و'أين؟' و'لِمَ لا نجرب اللحم البقري كتغيير؟'.

أومات الجدة زعيمة القبيلة لرينسوينا وفردت البطاقات أمامها.

كما عَلِمَ من قبل كان رينسوينا أسوأ ساحر على وجه القرص، فلم تبقَ أي تعاويذ أخرى في عقله منذ أن سكنت التعويذة الثامنة هناك، بالطريقة ذاتها التي لا تبقى بها الأسماك في رمح مستدق الرأس. إلا أنه لا يزال تغالبه كبرياؤه، فالسحرة لا يحبون رؤية النساء يؤدين ولو حتى السحر البسيط. فالجامعة الخفية لم تُقبَل قطُّ النساء فيها، متممًا بكلام يخصُّ مشكلات في نظام السباكة والتصريف، إلا أن السبب الحقيقي هو الخوف غير المُعلن من أن لو سُمِحَ للنساء بالعبث بالسحر فمن المحتمل أن يبرعوا فيه إلى حد يسبب الإحراج...

غمغم رينسوينا: «على أي حال، لا أومن بأوراق الكاروك⁽¹⁾. فما هذه الأشياء بخصوص الحكمة الكونية الخالصة إلا محض تُرَّهات».

كانت الورقة الأولى مُصفرَّة بفعل الدخان وقد أبلأها الزمان، وكانت... لا بُدَّ أن يكون ما ظهر في البطاقة هو النجم. فبدلاً من القرص الدائري المعتاد ذي الأشعة الصغيرة البدائية، فقد تحول هذا القرص إلى نقطة حمراء صغيرة. تمتعت العجوز وخرَّبشت على سطح الورقة بأظفارها، ثم نظرت بحدة إلى رينسوينا.

فقال: «لا شيء من هذا يخصني».

(1) أوراق التاروت في عالم القرص. (الترجمة)

ورفعتُ زعيمة القبيلة بطاقات أهمية غسل اليدين والنجوم الثمانية الثمانية وقبة السماء وبركة الليل والفيلة الأربعة وآس السلاحف و - البطاقة التي كان رينسوينا يتوقعها- الموت.

وكان ثمة خُطْب ما في بطاقة الموت كذلك. فلا بُدَّ أن تكون رَسْمَة واقعية إلى حد كبير للموت على جواده الأبيض، وبكل تأكيد كان موجودًا. وكانت السماء مضاءً بلون أحمر، وكان هناك جسم صغير آتٍ من على هَضْبَة بعيدة، بالكاد يُرى على ضوء المصابيح المُضاءة بشحوم الخيل. ولم يتعينُ على رينسوينا أن يتعرّفه، لأنه كان صندوقًا تحمله مئات السيقان الصغيرة.

يتبع المتاع مالكة إلى أي مكان.

ونظر رينسوينا في الطرف المقابل من الخيمة إلى توفلاور، مجرد شكل شاحب موجود على كومة من جلود الخيل. وسأل: «أهو ميت حقًا؟». وترجم كوهين للعجوز التي بدورها هزّت رأسها بالنفي. وقد مدّت يدها إلى الأسفل إلى صندوق خشبي صغير موضوع إلى جانبها وراحت تفتش وتقلب في مجموعة من الحقائق والقناني حتى وجدت قنينة صغيرة خضراء ثم أفرغتها في الجعة التي يشربها رينسوينا. فنظر إليها في ارتياب.

قال كوهين: «إنها تقول إنه شنف من العلاج. لو كنتُ مكانك لشربته، فهؤلاء الناس يشتاؤون قليلًا إن لم تقبلُ كرم ضيافتهم وحُسنه». تساءل رينسوينا: «لن يُفجّر هذا المشروب رأسي؟».

- إنها تقول إنه من اللاشم أن تشربه.

- حسنًا، إن كنت متأكدًا من أنه لا بأس به. فهو لن يجعل طعم الجعة أسوأ مما هو عليه.

ثم تناول جُرعة كبيرة وهو مدرك بأن كل الأعين مسلطة عليه.
وقال: «اممم، في الواقع ليست بالغة سي...».

جذبه شيء ما عاليًا ثم ألقى به في الهواء. إلا أنه من جانب آخر كان لا يزال يجلس بجوار النار، فقد أمكنه رؤية نفسه وهو جالس هناك، جسم متقلص في حلقة ضوء النار الذي أخذ يصغر بسرعة. وكانت الأجسام المصغرة كالألعاب من حوله تنظر بإمعان إلى جسده. عدا العجوز، فقد كانت تنظر عاليًا إليه، وتبتسم.

غادرت البسمة وجوه سحرة البحر الدائري تمامًا. فقد كانوا يدركون أنهم قد واجهوا شيئًا جديدًا ومخيفًا كليًا: شابٌ يافعٌ يسعى إلى السلطة. في الواقع لم يكن من بينهم مَنْ هو على يقين تام من عُمر تريمون الحقيقي، لكنَّ شعره المتفرق كان لا يزال أسود، وبشرته لها مظهر شمعي لامع قد يراها الناظر، في الإضاءة الخافتة، كأنها إشراق الشباب. جلس الستة الناجون من رؤساء الجماعات الثمانية إلى المنضدة الطويلة الجديدة المصقولة الموجودة في ما كان مكتب جالدر ويزرواكس سابقًا، وراح كل واحد منهم يتساءل عن السبب الذي يجعلهم يريدون طرد تريمون.

لم يكن بسبب أنه طموح وقاسٍ. فالقساة لطلما كانوا أغبياء؛ جميعهم يعرفون كيفية استغلال القساة، وبقينا يعرفون كيف يثنون طموح الرجال. فلا يبقى المرء في رتبة ساحر من الدرجة الثامنة طويلًا إلا أن يتبنى ضربًا من مصارعة الجودو العقلية.

ولم يكن بسبب أنه متعطش إلى الدماء ولا نهم إلى السلطة أو لا سيما
ماكرًا. فلم تكن تلك الأمور تُمثل عيوبًا بالضرورة في أي ساحر. فقد كان
السحرة بوجه عام ليسوا أمكر من، لنقل، لجنة نادي الروتاري⁽¹⁾ متوسط
المستوى، وقد نال كل منهم الامتياز في مهنته المحددة وذاك أمر لم
يحصّله بالمهارة السحرية في أغلب الأحوال، لكن بعدم إغفال استغلال
ضعف أعدائهم.

ولم يكن بسبب أنه يتسم بحكمة خاصة من نوع ما. فكل ساحر
يعدُّ نفسه مَسعى للجميع ومطمعهم، من حيث الحكمة، فهذا من طبيعة
عملهم.

وحتى لم يكن الأمر أنه يمتلك كاريزما مُقنعةً. فجميعهم يعرفون
الكاريزما المُقنعة عندما يلتقونها، وكان لتريمون كل الكاريزما المُقنعة
لببيضة بطة.

كان هذا كل ما في الأمر، في الواقع...

فلم يكن صالحًا أو طالحًا أو قاسيًا أو متطرفًا بأي شكل كان إلا
بطريقة واحدة، وهو أنه قد رفع الرتبة إلى درجة الفن الراقي، وأنه قد
تقفَّ عقله حتى أصبح فيه من الكآبة والوحشية والمنطق ما في هاوية
الجحيم.

وما كان غاية في الغرابة هو أن كل واحد من السحرة، الذين قابلوا
في مسار عملهم العديد من الكيانات الباصقة للنيران والمجنحة بأجنحة
الخفافيش والمزودة بمخالب النمر في حيز الخصوصية التي تمتاز
بها النجمة الثمانية السحرية، ولم يراودهم الشعور المربك ذاته الذي
انتابهم لما دخل عليهم تريمون بخطواته الواسعة بعد عشر دقائق.

(1) نادٍ دولي له أفرع في معظم البلدان يقوم في خدماته على المشاركة التطوعية.
(المترجمة)

قال كاذبًا وهو يُمسد يده بخفة: «معذرة يا سادة لقد تأخرتُ، في جَعبتنا الكثير لنفعله والكثير لنعمل على تنظيمه، أنا على يقين بأنكم على علم بحال الأمور».

رَمَقَ السحرةُ واحدُهم الآخرَ بنظرةٍ جانبيةٍ فيما يجلس تريمون على رأس المنضدة وراح يقلب بعض الأوراق بانشغال.

سأله جيجلاد وورت: «ما الذي حلَّ بكرسي جالدر القديم، ذاك الكرسي الذي له أذرع أسد وأرجل دجاجة؟». كان الكرسي قد اختفى واختفى معه معظم قطع الأثاث المألوفة، وحلَّ محلها عددٌ من الكراسي الجلدية القصيرة التي بدت مريحة للغاية إلى أن يجلس عليها المرء خمس دقائق.

فردَّ تريمون دون أن يرفع بصره: «ذاك؟ أوه، لقد أحرقتَه».

- أحرقتَه؟ لكنه كان تحفة سحرية لا تُقدَّر بثمن، يتمتع بأصالة...

قال تريمون وهو يَمُنُّ عليه بابتسامة متكلفة: «أخشى أنه كان مجرد قطعة قمامة، وأوقن أن السحرة الحقيقيين لا يحتاجون إلى مثل هذا الشيء. والآن لو تسمح لي بأن ألفت انتباهك إلى عملنا اليوم...».

سأل جيجلاد وورت رئيس جماعة أخوية المخادعين: «ما هذه الورقة؟»، وأخذ يلوِّح بالوثيقة التي تُركت أمامه، ثم راح يلوِّح بها بلا حول منه ولا قوة بسبب أن كرسيه الموجود في برجه الفوضوي المريح كان أكثر زخرفة من كرسي جالدر، هذا إن كان في كرسي جالدر شيء يُذكر.

قال تريمون بصبر: «إنها مذكرة يا جيجلاد».

- وما فائدة المُذكر هذا؟

- إنها قائمة بالأمر التي علينا مناقشتها. أمر في غاية البساطة،
آسف لو أنك تشعر أن...

- لم نحتجِ إلى واحدة من قبل!

قال تريمون بصوتٍ يوحي بالعقلانية: «أظن أنه ربما قد احتجت إلى
واحدة، أنت فحسب لم تستخدم واحدة من قبل».

ترددت وورت ثم قال متجهماً: «حسنًا، لا بأس»، وراح يدور بنظره على
أرجاء المنضدة باحثًا عن المساندة، وأردف: «لكن ما الكلام الموجود
هنا حيث يقول...»، ثم مال ممعنًا في النظر إلى الكتابة، وقرأ: «خليفة
جراهولد سبولد». سيكون رونليت فارد الشيخ، أليس كذلك؟ لقد طال
انتظاره سنواتٍ.

سأله تريمون: «أجل، لكن أهو بخير؟».

- ماذا؟

قال تريمون: «لا شك عندي في أننا جميعًا ندرك أهمية القيادة
المناسبة، وفي الوقت الحالي فإن فارد، حسنًا، مستحق لها، طبعًا،
بطريقته الخاصة، لكن...».

قال أحد السحرة الآخرين: «لا شأن لنا بهذا».

فقال تريمون: «كلا، لكن يمكن أن يكون من شأننا».

ساد الصمت المكان.

سأل وورت متعجبًا: «نتدخل في شؤون جماعة أخرى؟».

ردَّ تريمون: «كلا طبعًا، أقترح فحسب أن نسدي... النصح. لكن
لنؤجل مناقشة هذا في ما بعد...».

لم يرد على أسماع السحرة من ذي قبل كلمتي 'قاعدة السلطة'،
وإلا فلم يكن ثمة مخرج يفلت منه تريمون بكل أفعاله هذه. غير أن

الحقيقة التي لا غبار عليها هي أن مدَّ العون للآخرين بغرض اكتساب السلطة، حتى لتقوِّي عضدك أنت، كان غريبًا عليهم تمامًا. وفي ما يخص السحرة، فقد كانوا جميعًا متفرقين. وبصرف النظر عن الكيانات الخارقة للطبيعة الضارية، فقد حاز أيُّ ساحرٍ طَموحٍ ما يكفي من القوة حتى يقاتل أعداءه في جماعته الخاصة.

قال تريمون: «أظن أن علينا الآن النظر في أمر رينسويند».

ردَّ وورت: «والنَّجم، راح الناس يلاحظونه، كما نما إلى علمك».

قال لومويل بانتر رئيس جماعة منتصف الليل: «أجل، يقولون إن علينا فعل شيء. ما هو، هذا ما أود معرفته؟».

ردَّ وورت: «أوه، هذا أمر يسير، يقولون إن علينا قراءة الأوكتافو. هذا ما دأبوا على ترديده. المحاصيل سيئة؟ اقرأوا الأوكتافو. البقر مريض؟ اقرأوا الأوكتافو. إذ ستجعل التعاويذ كل الأمور على ما يرام».

قال تريمون: «لا بُدَّ أن ثمة خطبًا في هذا الأمر. فالرئيس السالف الراحل، أأ، قد عكف على دراسة الأوكتافو».

ردَّ بانتر بحدّة: «لقد فعلنا ذلك جميعًا، لكن ما الجدوى؟ لا بُدَّ للتعاويذ الثمانية أن تعمل معًا. أوه، أقرُّ أن لو لم تفلح السبل كافة، فعلينا المجازفة بفعل ذلك. لكنَّ يتحتم نطق الثمانية معًا أو عدم فعل ذلك على الإطلاق، كما أن واحدة منها توجد في رأس رينسويند ذاك».

قال تريمون: «ولا يمكننا العثور عليه، هذا هو الوضع، أليس كذلك؟ لا ريب عندي في أننا قد حاولنا جميعًا، بطرقنا السرية الخاصة».

نظر السحرة إلى بعضهم، وقد نال منهم الإحراج. ثم قال وورت في نهاية المطاف: «أجل، حسنًا. انكشفت الأوراق، ولا يبدو لي أنني أستطيع تحديد موقعه».

قال ساحر آخر: «لقد حاولتُ التنبؤ بالمستقبل، لكنْ بلا جدوى». وقال ثالث: «لقد أرسلتُ عفاريتي المُرافقة». ثم وقف الآخرون كلهم. ولو أن الاعتراف بالإخفاق كان موضوع اليوم، فقد أوضحوا تمامًا أنهم قد أخفقوا ببسالة.

- أهذا كل ما في الأمر؟ لقد أرسلتُ الشياطين.

- لقد نظرتُ في مرآة الرصد.

- ليلة البارحة بحثتُ عن مكانه باستخدام الأحرف الرونية لماهو.

- أودُّ إيضاح أنني قد حاولت بالحروف الرونية والمرآة وكذلك أحشاء مخلوق مانيكريتش.

- لقد خاطبتُ وحوش البراري وطيور السماء.

- هل من بُشرى؟

- كلا.

- حسنًا، لقد سألتُ عظام البلاد نفسها، أجل، وأحجارها العميقة وجبالها.

حلَّ صمت بارد مفاجئ على المكان. واتجهت أنظار الجميع نحو الساحر الذي تحدث. كان جانماك تريهاليت، رئيس جماعة العرافين الموقرين، الذي راح يتقلب في كرسيه بصعوبة.

علق أحدهم: «أجل، بكل حماس، أتوقع ذلك».

- لكني لم أقل إنها قد أسدت إليَّ جوابًا، هل قلتُ؟

جال تريمون ببصره على طول المنضدة.

وقال: «لقد أرسلتُ بأحدهم حتى يجده».

نَخر وورت، وقال: «لم يفلح هذا تمامًا في آخر مرتين، أليس كذلك؟».

- هذا لأننا اعتمدنا على السحر، لكن يتضح أن رينسوينا خافِ على قدرة السحر. لكنه لا يقدر على إخفاء آثار أقدامه.

- هل أرسلت مُتتَبِعًا؟

- إن جاز التعبير.

قال وورت: «هل هو بطل ما؟»، وقد قدر على استجماع الكثير من المعاني في كلمة واحدة. هل كان لشخص ما يقطن الجنوب أن يقول 'يانكي لعين' ⁽¹⁾ بالنبرة ذاتها في عالم آخر.

نظر السحرة إلى تريمون فاغري الأفواه.

قال بهدوء: «أجل».

قال وورت طالبًا الإجابة: «بموجب سلطة مَنْ؟». فأدار تريمون عينيه

الرماديتين نحوه.

- سلطتي، ولا أريد غيرها.

- إنه... إنه أمر غير معتاد تمامًا! فمنذ متى احتاج السحرة إلى

تعيين أبطال يؤدون لهم أعمالهم؟

ردَّ تريمون: «منذ أن وجد السحرة سحرهم غير نافع».

- إخفاق مؤقت ليس إلا.

هزَّ تريمون كتفيه، وقال: «ربما، غير أننا لا نملك الوقت حتى نعرف.

أثبت لي خطأي. اعثر على رينسوينا من خلال التنبؤ بالمستقبل أو

التحدث إلى الطيور. لكن بالنسبة إليّ، أعرف أنه قد قُدِّر لي أن أكون

حكيمًا، والحكماء يفعلون ما يمليه عليهم الوقت».

الحقيقة التي لا غُبار عليها هي أن المقاتلين والسحرة لا يتفوقون

مطلقًا، هذا لأن أحد الطرفين ينظر إلى الآخر على أنه مجموعة من الحمقى

(1) اليانكي اسم يطلق على ساكن الشمال الأمريكي. (الترجمة)

المتعطين إلى الدماء الذين يتعذّر عليهم المشي والتفكير في الوقت ذاته، في حين أن الطرف الآخر هو جَمع من الرجال المثيرين للريبة بطبعهم كثيري الثرثرة والمرتدين أثوابًا طويلة. أوه، لنقل السحرة، لو كنا على هذه الشاكلة، إذن ماذا عن كل تلك الياقات المُرصعة بأزرار معدنية والعضلات المدهونة بالزيت في الجمعية الوثنية للشباب؟ وهو ما يأتي رد الأبطال عليهم قائلين: هذا ادعاء جيد للغاية يقوله حَفنة من الجبناء الذين لا يقربون أيّ امرأة لأن، أتصدق، قوتهم الباطنية تُستنزف نوعًا ما. ويرد السحرة: أجل، طفح الكيل، أنتم وجراب أعضائكم التناسلية الجلدي. فيردُّ الأبطال، أوه، أجل لم لا تفعلون...

وهكذا دواليك. لقد كان هذا الأمر يحدث لقرون، وتسبب في العديد من المعارك الكبرى التي خَلّفت وراءها أراضٍ كثيرة خلت من ساكنيها بسبب الموجات التوافقية السحرية.

في الواقع، فالبطل، حتى في هذه اللحظة التي يعدو فيها بفرسه نحو سهول الدَّوامة، لم يدخل في مثل هذا النوع من الجدل لأنهم لم يأخذوه على محمل الجد لكن في المقام الأول لأن هذا البطل بعينه كان بطلًا. امرأة ذات شعر أحمر.

في هذه اللحظة، ثمة اتجاه في مثل هذا الموضوع من الحديث للقلق بخصوص فنّان الغِلاف ويبدأ الحديث بإسهاب حول الجلود والأحذية التي تعلقو الركبة والسيوف الحادة.

وتبدأ كلمات مثل 'ممتلئة' و'مثيرة' وحتى 'جذابة' في التسلسل إلى السرد، إلى أن يُضطرَّ الكاتب إلى الذَّهاب للاغتسال بالمياه الباردة ويستلقي في الفراش.

والأمر كُلُّه في غاية السخافة، لأن أي امرأة تنطلق في كسب عيشها بالقتال بالسيف لن تتجول في الأرجاء كأنها شيء خارج من غلاف أحدث مجلة للملابس الداخلية الموجهة للمشتري المختص.

أوه، حسنًا لا بأس. ما يلزم إيضاحه هنا، هو أنه مع أن هيرينا الحيزبون ذات الشعر المُحنَّى كانت لتبدو فاتنة للغاية بعد اغتسال جيد وتجميل شديد للأظفار وامتلاك أفضل مسند جلدي للأسلحة في متجر العجائب الشرقية والأدوات الحربية لصاحبه وو هان لينج في شارع الأبطال، وهي في الوقت الحالي ترتدي زُرِّيَّة من السلاسل الخفيفة وتنتعل حذاءً ناعمًا وتحمل سيفًا قصيرًا.

حسنًا، ربما كان الحذاء من الجلد، لكنه لم يكن أسود.

كان ينطلق معها في مهمتها عدد من الرجال داكني اللون الذين بلا شك سيلقون حتفهم عما قريب على أي حال، لذا فوصفهم ليس ضروريًا على الأرجح. فلا شيء جذاب على الإطلاق يذكر حيالهم.

فحسب ذوق القارئ، ربما يرتدون الجلود.

لم تكن هيرينا سعيدة بهم، لكن كان هؤلاء هم المتوفرون في موروبورك حتى تؤجرهم للعمل معها. فقد أخذ العديد من المواطنين يرتحلون متجهين نحو التلال، خوفًا من النجم الجديد اللامع في السماء.

لكن هيرينا كانت متجهةً نحو التلال لغرض آخر. وعند اتجاه دوران القرص واتجاه الحافة من وراء السهول كانت تقع جبال ترولبون⁽¹⁾ القاحلة. كانت هيرينا تثق بغرائزها، تلك المرأة التي دأبت لسنوات على الانتفاع من الفرص المتكافئة حصريًا السانحة لأي امرأة قادرة على القتال ببراعة بالسيف.

(1) معناها الحرفي: عظام التروول. (المتجمة)

كان رينسوينا ذاك مثل الفأر، كما وصفه تريمون، والفئران تحب التخفي. على أي حال، كانت الجبال شديدة البعد عن تريمون، ولهذا فقد كلفها بمهمتها الحالية، وكانت هيرينا في كامل سعادتها بهذا. إذ كان ثمة شيء في طريقته جعلها تشعر بالحجة في يديها لرغبتها في ضربه.

علم رينسوينا أنه يتحتم عليه الشعور بالفرع، لكن كان هذا أمرًا صعبًا، رغم عدم إدراكه الأمر، فشعور مثل الفرع والخوف والغضب جميعها تتعلق بأشياء موجودة في الغدد وجميع غدد رينسوينا كانت لا تزال في جسده.

وشق عليه أن يتيقن من موضع جسده الحقيقي، لكنه لما خفض بصره إلى الأسفل أمكنه رؤية خيط أزرق دقيق متجرجر من الذي كان لا يزال، من أجل سلامته العقلية، يسميه كعبه في الظلمة المحيطة به، وبدا منطقيًا أن يفترض أن جسده كان في الطرف المقابل من الخيط.

لم يكن هذا الجسد بعينه جسدًا جيدًا، سيكون رينسوينا أول المُقرين بذلك، لكن بضعة منه أو بضعتين كانت لهما قيمة حسية وقد أدرك أنه لو انقطع الخيط الأزرق الصغير كان ليقضي بقية حيات... وجوده يتسكح حول رقع الويجا متظاهرًا بأنه الخالة المتوفاة للناس وكل ما تفعله الأرواح الضالة لتمضية وقتها.

استبدَّ به الرعب الشديد من هذه الفكرة حتى إنه شعر بقدميه تلامسان الأرض. أرض ما، على أي حال؛ قرر أنها على نحو شبه يقيني لم تكن الأرض، فالأرض قدر ما تسعفه ذاكرته لم تكن سوداء ولا تدور بتلك الطريقة المُربكة.

جال ببصره في الأرجاء.

كانت الجبال ذات القمم المستدقة الحادة بارزة كالرماح من حوله في سماء جليدية مليئة بالنجوم القاسية، نجوم لا ظهور لها في خريطة النجوم في الأكوان المتعددة، لكن من بينهم تمامًا ثمة قرص أحمر مشؤوم. ارتعد رينسوينا وأشاح ببصره بعيدًا. وراحت الأرض من أمامه تنحدر إلى الأسفل انحدارًا شديدًا، وأخذت رياح جافة تهمس بين الصخور التي تشققت بفعل الصقيع.

لقد همستُ فعلًا، فبينما تمسك دُومات الهواء الرمادية بعباءته وتشد شعره، ظنَّ رينسوينا أنه قد سمع أصواتًا، خافته بعيدة، تقول أشياء من قبيل: «أأنت متأكد من أن ما كان في حساء اليخنة كان فطرًا؟ أشعر بعض الشيء بـ...» و«ثمة منظر بديع لو ملت من فوق هذا...»، و«لا تتذمر، إنه مجرد خدشٍ...» و«انتبه للمكان الذي تصوب نحوه هذا القوس، لقد كدت أن...» وما إلى ذلك.

زلت قدماه إلى أسفل المنحدر وهو يضع إصبعيه في أذنيه، إلى أن رأت عيناه مشهدًا لم يشهده إلا قليل من بني البشر الأحياء.

غاصت الأرض عميقًا إلى أن غدت قُمعًا مترامي الأطراف، قطره 1.5 كيلومتر كامل، وهبت فيه الرياح الهامسة الصادرة عن أرواح الموتى بصوت هسيس هائل له صدى، كأن القرص نفسه كان يتنفس. غير أنه قد تقوَّس نتوء صخري ضيق قد برز إلى الخارج وامتد فوق الحفرة. كانت ثمة حديقة هناك بالأعلى، بها بساتين وأحواض زهور وكوخ أسود صغير جدًا.

كان ثمة درب صغير يقود إلى الكوخ.

التفت رينسوينا وراءه، كان الخيط الأزرق الصغير لا يزال موجودًا. وهكذا وجد المتاع من خلفه.

كان يجلس مقرصًا في الطريق، مراقبًا رينسوينا.

لم يسبق لرينسوينا أن كان على وفاق مع المتاع، فقد أعطاه المتاع انطباعاً دائماً بأنه لا قبول لرينسوينا عنده. لكن لمرة واحدة، لم يكن يُحدِّق إليه ويشع بالكرهية. فبدلاً من هذا كان يكتسي بنظرة مثيرة للشفقة، ككلب عاد إلى منزله بعد أن تمرغ بسعادة في روث البقر ليجد بعد عودته أن أسرته قد رحلت إلى القارة المجاورة.

قال رينسوينا: «حسناً، هيا».

مدَّ سيقانه ثم تبعه إلى أعلى الدرب.

توقع رينسوينا بطريقة ما أن تكون الحديقة الموجودة في النتوء الصخري مليئة بالأزهار الميتة، لكنها في الواقع كانت ثمة من يراعاها جيداً وقد زرعها شخص له حس بصري بالألوان، وشاع وجود اللون الأرجواني الداكن أو الأسود الحالك أو الأبيض الناصع. ونشرت الزنابق عبيرها في الهواء. كما كانت هنالك ساعة شمسية بلا عقرب في منتصف مرجة محصودة بمنجل حديثاً.

تسلل رينسوينا على الدرب المفروش بحصى من المرمر ومن بعده سار المتاع إلى أن وصل رينسوينا إلى الجزء الخلفي من الكوخ، ودفع الباب ليفتحه.

نظرت إليه أربعة خيول من أعلى طرف أكياس العلف. كانت أجساد الخيول دافئة تدب فيها الحياة، وكانت الخيول من أفضل البهائم المقتناة التي رآها رينسوينا. وكان لخيول أبيض كبير إصطبل كامل مخصص له، وكان ثمة عدَّة فرس باللونين الفضي والأسود معلقة على الباب. أما الخيول الثلاثة الأخرى فقد كانت مربوطة أمام حامل التبن على الجدار المقابل، كأنَّ الزوار قد حطوا رحالهم للتو. ونظرت إلى رينسوينا بفضول بهيمي غير مفهوم.

اصطدم المتاع بكعب رينسويند، فالتفَّ إليه رينسويند وهمس له:
«ابتعد عني يا أنت!».

تراجع المتاع للخلف، وبدت عليه أمارات الإحراج.

مشى رينسويند على أطراف أصابعه إلى الباب البعيد، ودفعه في
حذر ليفتحه. فانفتح الباب على ممر مُعبد بالحجارة، والذي بدوره
يؤدي إلى رُدهة واسعة.

تسلل إلى الأمام مُلصقًا ظهره بشده إلى الجدار. ومن خلفه انتصب
المتاع على أطراف أصابعه وجرى معه بخفة مضطربًا.
الردهة نفسها...

حسنًا، لم تكن حقيقة أن الردهة كبيرة أكبر عما بدا عليه الكوخ بأكمله
من الخارج هي التي أقلقت رينسويند. لقد كانت الأشياء والطبيعة التي
كانت عليها هذه الأيام، فقد كان رينسويند ليضحك متهكمًا لو أن أحدهم
أخبره بأنه لا يستطيع وضع ربع جالون في كأس يستوعب ثمن جالون
فحسب. ولم تكن الزخرفة التي أخذت نمط سرداب بدائي وامتدت بكثافة
لتشكل ستائر سوداء.

بل كانت الساعة، كانت كبيرة جدًا وشغلت حيزًا بين درَج سُلمين
خشبيين منحنيين تغطيهما نقوش لأشياء لا يراها الأناس العاديون إلا
بعدما يعكفون على جلسة مكثفة من شيء غير مشروع.

كان بها بندول طويل جدًا، وراح البندول يتأرجح مُصدرًا صوت تيك
تاك بطيئًا أثار في نفس رينسويند ضيقًا وانزعاجًا، لأنه كان ذاك النوع
من دقات الساعة البطيء المُزعج الذي يريد أن يوضح وضوحًا تامًا
أن كل دقة وأخرى تسلب من حياتك ثانية جديدة. كان ذاك النوع من
الصوت الذي يشير بوضوح إلى سقوط بضع حبات رمل أخرى من تحت
أقدامك في ساعة رملية افتراضية في مكان ما.

وبلا شك، فإن الوزن الموجود في البندول مُحكمًا ودقيقًا.

ثم نقره شيء ما على مستدق ظهره، فالتفت غاضبًا.

- انظر أنت يا بن الحقيبة، لقد أخبرتك...

لم يكن المتاع، بل كانت شابة لها شعر فضي وعينان فضيتان، والتي أصابتها الدهشة إلى حد ما من ردة فعله.

فقال رينسويند: «أوه، اممم، مرحبًا؟».

فسألته: «هل أنت حيٌّ؟»، كان ذاك النوع من الصوت الذي يرتبط في الذهن بمظلات الشاطئ وزيت سُمرة الشمس والمشروبات الطويلة الباردة.

أجابها رينسويند: «حسنًا، آمل ذلك»، وراح يتساءل أكانت غُده تحظى بوقت طيب أينما كانت. «ففي بعض الأحيان لا أكون متيقنًا تمامًا. ما هذا المكان؟».

فأجابته: «إنه بيتُ الموت».

قال رينسويند: «آه»، وراح يُجري لسانه على شفّتيه الجافتين. واستطرد: «حسنًا، سررت بلقائك. أظن أن عليَّ أن أنجو بحياتي...».

صفت بيديها وقالت: «أوه، لا عليك أن ترحل! فإننا لا نحظى بصحة الأحياء هنا في الغالب. والموتى مملون، ألا تظن ذلك؟».

قال رينسويند موافقًا إياها في حماس وهو يتفحص مدخل الباب: «آه، أجل، فهم لا يتكلمون كثيرًا حسب ظني».

فقال وهي تضع يدها البيضاء الصغيرة على زراعه وتبتسم له: «إن الكلام دومًا يسير على هذا النحو 'لَمَّا كُنْتُ حَيًّا...» و'إننا نعرف حقًا كيفية التنفس في زمن شبابنا...» وهذا دأبهم ولا يغيرون مواضع أحاديثهم. فلا سبيل للمرح أبدًا، الجدية سائدة تمامًا».

فقال رينسويند مقترحًا: «تقصدين جامدين؟». وكانت تدفعه نحو ممر مقنطر.

- قطعًا، ما اسمك؟ اسمي يسابيل.

- إمام، رينسويند، أستميحكِ عذرًا، لكن لو أن هذا بيت الموت، ما الذي تفعليه هنا؟ أنتِ لا تشبهين الموتى بالنسبة إليّ.

دققت الفتاة النظر إليه، وقالت: «أوه، أنا أقطن هذا المكان. في رأيي أنك لم تأتِ لتتقذِ حُبكِ الضائع، أليس كذلك؟ فهذا دومًا ما يغضب بابا، إنه يقول إن عدم نومه صنيع جيد لأنه لو فعل لبقى مستيقظًا بسبب وقع الخطوات الثقيلة للأبطال اليافعين الآتين إلى هنا ليعودوا حاملين الكثير من الفتيات التافهات، على حد قوله».

قال رينسويند واهنًا فيما يسيران على طول الممر الذي يُخيم عليه السواد: «يحدث كثيرًا، أليس كذلك؟».

- طوال الوقت، أظن أن الأمر رومانسيٌّ جدًّا. فقط حين تغادر مهمُّ ألا تلتفت إلى الخلف.

- لم؟

هزت كتفيها، وقالت: «لا أعرف، ربما لأن المنظر لا يسرُّ العين. هل أنت بطل بالأساس؟».

قال رينسويند في بؤس: «اممم، لا. ليس صحيح تمامًا. لستُ بطلًا على الإطلاق في الواقع. وأقل من ذلك حتى، في الحقيقة. لقد أتيت باحثًا عن صديق لي. ألم تريه؟ رجل صغير بدين، كثير الحديث، يضع نظارة ويرتدي ملابس مضحكة نوعًا ما؟».

وفي أثناء حديثه كان واعياً أنه ربما قد أغفل شيئاً مهماً للغاية. فأغمض عينيه وحاول تذكر آخر دقائق من المحادثة. ثم أدرك الأمر كأنما ضُرب ضربة شديدة.

- بابا؟

فخفضتُ عينيهما في أدب، وقالت: «متبناة في الواقع. لقد وجدني عندما كنت فتاة صغيرة، على حد قوله. كان الأمر كله مُحزنًا للغاية»، ثم تَهَلَّلْتُ وتابعتُ: «لكنْ تعالَ وقابله إنه بصحبة أصدقائه الليلة، أنا متأكدة أنه سيكون متحمسًا لرؤياك. فهو لا يلتقي الكثير من الأشخاص في سياق اجتماعي. ولا حتى أنا في الواقع».

فقال رينسويند: «معذرة، هل فهمت الأمر على النحو الصحيح؟ إننا نتحدث عن الموت، أليس كذلك؟ طويل، نحيل، محجري عينيه أجوفين، البارع في استخدام المناجل؟».

تنهدت، وقالت: «أجل، أخشى أن مظهره يظلمه».

كما أُشير في السابق، في حين أنه كان صحيحًا أن رينسويند بالنسبة إلى السحر كان كالعجلة بالنسبة إلى النحلة الطنانة، فرغم هذا تمتع بمزية واحدة كانت من حظ المتمرسين في الفنون، ما معناه أنه لما يقضي رينسويند نحب، سيكون الموت هو مَنْ يأتي بنفسه حتى يتسلم روحه (بدلاً من أن يُفوض المهمة إلى مُجسّد في صورة إنسان أسطوري أقل رتبة منه، كما تكون الحال دومًا). وبسبب عدم كفاءة رينسويند، لطالما أخفق في الموت في الوقت المحدد، ولو كان هنالك شيء يبغضه الموت، فهو عدم التزام المواعيد.

قال: «انظري، أظن أن صديقي قد سُرد فحسب في مكان ما. إن هذا من طبعه، إنها قصة حياته، سررت بلقائك، عليّ الذَّهاب...».

لكنها توقفت فعلياً أمام باب طويل مبطن بالمخمل الأرجواني. وتهادت أصوات من الجانب الآخر من الباب، أصوات مخيفة، تلك النوعية من الأصوات التي لن توفيهما الكتابة المجردة وصفاً على الإطلاق حتى يُمكن لأحدهم أن يصنع آلة طباعة لاينوتايب ذات تأثير ارتدادي له صدى صوت، وعلى الأرجح، بها خط طباعي يكون له منظر شيءٍ قالته دودة بزّاقة.

هذا ما كان يقوله الصوت: أتمانع شرح هذا مجدداً؟

- حسناً، إذا أرجعت أي شيء ما عدا الورقة الرابعة، فالجنوب سيكون قادراً على الفوز بورقتيه الراجحتين، وتخسر ورقة سلحفاة واحدة وورقة فيل واحدة وورقة الأركاننا الكبرى، ثم...

همس رينسويند: «هذا توفلاور! كنت لأعرف هذا الصوت في أي مكان».

- تمهل، هل الوباء هو الجنوب؟

«أوه، ويحك يا قابض الأرواح. لقد شرح هذا من قبل. ماذا لو أن المجاعة قد لعبت - ما اسمها - إعادة الورقة الرابعة؟». كان صوتاً هامساً رطباً، مُعدياً كلية بحد ذاته.

فقال توفلاور في حماس: «آه، إذن فلن تكون قادراً إلا على اللعب بالورقة الرابعة لورقة سلحفاة واحدة بدلاً من اثنتين».

- لكن إذا اختارت الحرب أن تبدأ اللعب بالورقة الرابعة في الأساس، فسينخفض العقد إلى اثنتين؟

- بالضبط!

لا أفهم هذا تمام الفهم، أخبرني عن حيل العطاءات النفسية
ثانية، ظننتُ أنني بدأتُ أستوعب هذا. كان صوتًا أجوفًا غليظًا،
ككثنتين كبيرتين من الرصاص تتهشمان معًا.

- هذا عندما تحتال حيلة عطاء لتخدع خصومك في المقام الأول،
لكنّ طبعًا قد يجلب على شريكك المشكلات...

وراح صوت توفلاور يُثرثر بطريقته الحماسية. ونظر رينسوينا إلى
يسابيل وعلامات الاستغلاق تبدو عليه بينما كانت كلمات مثل 'نقش'
قابل لتكرار العطاء، و'خدعة مزدوجة' و'نجاح كاسح' تطفو عابرة من
الطبقة المخملية التي تغطي الباب.



telegram @
yasmeenbook

سألته يسابيل: «أفهم أيًا من هذا؟».

أجابها: «ولا كلمة».

- تبدو معقدة إلى حد مريب.

ومن الناحية المقابلة من الباب، قال الصوت الغليظ: **أقلت إن البشر
يلعبون هذا بغرض التسلية؟**

- أجل وبعضهم يتقنها. أخشى أنني مجرد هاوٍ.

- **لكنهم يعمرّون لثمانين أو تسعين عامًا فحسب!**

قال صوت لم يسمعه رينسوينا من قبل وبالتأكيد لا يرغب في
سماعه مجددًا، لا سيّما بعدما ينتشر الظلام: «يجب أن تتعلم هذا يا
قابض الأرواح».

- إنه بكل تأكيد أمر مثير للاهتمام.

- **لنوزع الأوراق ثانيةً ولنرّ إذا كنت قد فهمت الأمر.**

قالت يسابيل: «أتظن أنه ربما يجب أن ندخل؟».

وقال صوت من وراء الباب: أقدم العطاء... ورقة ولد سلاحف
المياه العذبة.

- لا، عذراً، أنا على يقين أنك مخطئة، لنلق نظرة على...
دفعتُ يسابيل الباب لتفتحه.

كان في الواقع مكتباً مُبهجاً إلى حد ما، ربما به مسحة من الكآبة،
وعلى الأرجح قد أنشأها في غير يوم حظ مُصمم ديكور يعاني صداً
وله هوس بوضع ساعات رملية كبيرة على كل سطح مستوٍ إضافة إلى
العديد من الشموع الكبيرة والضخمة الصفراء سريعة الذوبان التي أراد
أن يتخلص منها.

كان حاصد الأرواح الخاص بالقرص متمسكاً بالتقاليد ويعتز بخدمته
الشخصية ويقضي معظم وقته محبباً بسبب أنه لا يلقى تقديراً. وألمح
إلى أن لا أحد يخاف الموت في حد ذاته، بل الألم والفراق والنسيان. وأنه
ليس منطقياً ولا عقلانياً أن يكره المرء أحدهم لأن محجري عينيه أجوفان
ويفتخر بعمله. وكان لا يزال يستخدم المنجل، كما سبقت الإشارة إلى
ذلك، في حين أن شخصيات الموت في العوالم الأخرى قد استثمرت منذ
أمد طويل في آلات الحصاد.

جلس الموت إلى أحد جوانب منضدة مغطاة بالجوخ الأسود في قلب
الغرفة، وكان يتجادل مع المجاعة والحرب والوباء. وكان توفلاور وحده
من رَفَع بصره ولاحظ رينسويند.

فقال: «أهلاً، كيف أتيت إلى هنا؟».

- حسناً، يقول البعض إن الخالق قد أخذ حَفنة من... أوه، فهمت،
حسناً، يصعب شرح هذا لكن أنا...

- هل المتاع بحوزتك؟

اندفع الصندوق الخشبي متخطياً رينسوينا واستقر أمام مالكه، الذي فتح غطاءه وراح يقلب فيه ويفتش حتى أتى بكُتيب بغلاف جلدي، ثم أعطاه إلى الحرب، والتي كانت تضرب المنضدة بقبضة عسكرية ضارية.

قال توفلاور: «إنه 'نوزهينجر حول قوانين العَقْد'⁽¹⁾، إنه مفيد جداً، وفيه الكثير من المعلومات عن الخدعة المزدوجة وطريقة...».

انتزع الموت الكتاب بيده العظيمة سريعا وراح يُقلب في الصفحات، غافلاً عن وجود الرجلين. وقال: حسناً، أيها الوباء، افتح مجموعة أخرى من الأوراق. سأفهم أساس هذه اللعبة حتى لو كان فيها مقتلي، أتحدث مجازياً طبعا.

أمسك رينسوينا بتوفلاور وجذبه إلى خارج الغرفة. وبينما يهرولان في الممر ويعدو المتاع خلفهما قال: «علام كان كل هذا؟»
قال توفلاور لاهتأ: «حسناً، لديهم متسع من الوقت وظننت أنهم قد يستمتعون بالأمر».

- ماذا، باللعب بالورق؟

قال توفلاور: «إنه نوع خاص من اللعب»، وقال متردداً: «إنه يُسمى...»، لم تكن اللغة عند توفلاور واحدة من مواضع قوته. واستطرد: «في لغتك، تسمى شيئاً تضعه على النهر، مثلاً»، ثم ختم قائلاً: «أظن».
قال رينسوينا مُخمناً: «قناة مائية؟ خيط صنارة الصيد؟ سدٌ صغير؟ سد؟»⁽²⁾.

- أجل على الأرجح.

(1) لعبة من ألعاب الورق. (الترجمة)

(2) لعبة الجسر أو البريدج في الأوراق. (الترجمة)

ثم وصلا إلى الرواق، حيث كانت ساعة الحائط الكبيرة لا تزال تقلص
الثواني من حياة أرواح العالم.

- وإلى متى تظن أن هذا سيُبقِيهم مشغولين؟

توقف توفلاور، وقال في إمعان: «لست متأكدًا، على الأرجح إلى أن
يصلوا إلى الورقة الرابعة الأخيرة، يا لها من ساعة مذهلة...».

قال رينسوينا ناصحًا: «لا تحاول شراءها، فلا أظن أنهم يقدرونها
في هذه الأنحاء».

سأل توفلاور: «ما الذي تقصده بهذه الأنحاء بالتحديد؟»، واستدعى
المتاع وفتح غطاءه.

تلقت رينسوينا حوله. كان الرواق مظلمًا وموحشًا ومهجورًا، والثلج
يُلفُّ نوافذه الطويلة الضيقة. فنظر إلى الأسفل ووجد أن الخيط الأزرق
الباهت يمتد من كعبه. والآن تبين له أن توفلاور كان له خيط مماثل.

فقال: «إننا ميتان بطريقة غير رسمية نوعًا ما»، وكان هذا أفضل
تعبير تهيأ له.

قال توفلاور: «أوه»، وتابع البحث والتقليب.

- ألا يقلقك هذا؟

- حسنًا، تميل الأمور إلى أن تستقيم في النهاية، ألا تظن ذلك؟ على
أي حال، أنا مؤمن قوي بتناسخ الأرواح. ما الشيء الذي تحب أن
تعود روحك على هيئته؟

قال رينسوينا بنبرة حازمة: «لا أريد الموت، هيا لنخرج من... أوه،
لا. ليس هذا».

أخرج توفلاور صندوقًا من أعماق المتاع. كان صندوقًا كبيرًا أسودً وله مقبض في أحد الجوانب ونافذة دائرية صغيرة في الأمام وشريط، حتى يمكن لتوفلاور أن يضعه حوله عنقه، وهو ما فعله.

كان ثمة وقت أعجب فيه رينسوينا بمنظار الأيقونات. وعلى عكس كل خبراته وتجاربه، آمن أن العالم مفهوم بالأساس، وأنه لو يُجهز نفسه بصندوق العدة العقلي المناسب كان ليخلع الجزء الخلفي ويرى كيف يعمل المنظار. غير أنه كان مخطئًا تمامًا. فمنظار الأيقونات لم يكن يلتقط الصور بالسماح للضوء بالسقوط على الورق المعالج خصوصًا، حسب افتراضه، بل بالطريقة الأبسط بحبس شيطان صغير له حس بصري جيد بالألوان ويد سريعة تمسك بفرشاة رسم. لقد كان محببًا جدًّا من اكتشافه لهذا.

فهمس: «لا تملك الوقت للالتقاط الصور!».

قال توفلاور بنبرة حازمة: «لن يستغرق هذا وقتًا طويلًا»، ثم طرق على جانب الصندوق، ففتح باب صغير فجأة وأخرج عفريت صغير رأسه.

وسأل: «اللعة، أين نحن؟».

فردَّ توفلاور: «لا يهم أين نحن، عليك برسم الساعة أولًا أعتقد».

ضيقَّ العفريت عينيه، وقال: «إضاءة ضعيفة. في رأيي، لقد عملت ثلاث سنوات لعينة على وضع المنظر المباشر». وشفق الباب ليغلقه. ثم بعد لحظة أتى صوت حركة جر خفيفة صادرًا من مقعده وهو يسحبه إلى حامل اللوحات.

كزَّ رينسوينا أسنانه غاضبًا. وهتف: «لا حاجة إليك بالتقاط الصور، يمكنك تذكرها فحسب!».

رَدَّ توفلاور بهدوء: «الأمران مختلفان تمامًا».

- إنه أفضل! إنه أوقع!

- ليس كذلك في الحقيقة، في السنين القادمة، عندما أجلس قرب النيران...

- ستجلس قرب النيران إلى الأبد إن لم نخرج من هنا!

- أوه، أمل حقًا أنكما لستم مغادرين.

فاستدار كلاهما ليجدا يسابيل واقفة في الممر المقنطر وعلى وجهها ابتسامة واهنة. وكانت تحمل في إحدى يديها منجلًا، منجلًا له نصل يُضرب به المثل في الحدة. حاول رينسوينا ألا ينظر إلى الأسفل على خيط حياته الأزرق؛ ففتاة تحمل منجلًا لا ينبغي لها أن تبسم بتلك الطريقة المُقلقة والمتعمدة وغير العقلانية هذه.

قالت الفتاة: «يبدو أن بابا مشغولٌ قليلًا في الوقت الحالي، لكنني متأكدة من أنه لن يدعكما تذهبان هكذا البتة»، وأضافت: «إلى جانب أنني أفتقد من أحدث إليه».

سأل توفلاور: «من هذه؟».

غمغم رينسوينا: «إنها تعيش هنا نوعًا ما». وأضافت: «إنها فتاة من نوع ما».

أمسك بكتف توفلاور وحاول أن يمشي مجردًا ساقيه بخفة تجاه الباب إلى الحديقة المظلمة الباردة. لكن لم يفلح الأمر، من جانب كبير بسبب أن توفلاور لم يكن ذاك الشخص الذي يفهم الفروق الدقيقة بين التعابير الكلامية وبطريقة ما لم يفترض قط أن مكروها قد يحل به.

قال: «سررتُ بلقائِكِ بالتأكِيد. يا له من مكان جميل تعيشون فيه هنا. ويا له من انطباع باروكي⁽¹⁾ رائع تُضفيهِ العظام والجماجم».

تبسّمتُ يسابيل، وفكر رينسوِيند: لو وَرث الموت عمله للأسرة، فستكون هي أفضل في هذا العمل منه، إنها مختلفة.

قال: «أجل، لكنْ علينا أن نذهب».

فقالَت: «أنا حقًّا لا أرغب في سماع هذا، لا بدَّ أن تبقىا وتحكيا لي عن نفسيكما. هنالك متسع كبير من الوقت والأجواء هنا مملّة».

ثم مالت سريعًا جانبًا ولوّحت بالمنجل على الخيطين اللامعين. فصرخ المنجل صرخة ترددت في الهواء مثل قط مخصيٍّ ثم توقف بحدّة.

كان هناك صوت صرير خشب، إذ إن المتاع قد أغلق غطاءه بسرعة على حد المنجل.

رفع توفلاور نظره عاليًا إلى رينسوِيند في زهول. فما كان من الساحر إلا أن ضرب نقرن توفلاور بخفة متأنياً ومتشفيًا. وبينما يسقط الرجل الصغير على ظهره، أمسك به رينسوِيند، ورمى به على إحدى كتفيه وفَرَّ هاربًا.

وفي الحديقة التي يُنيرها ضوء النجوم، راحت الأغصان تلمطه، وأخذت أشياء صغيرة فروية ومرّوعة على الأرجح تفر وتسرع مبتعدة من طريقه فيما يتخبط في سيره على طول خيط الحياة الباهت الذي يلمع لمعانًا مخيفًا على العشب شديد البرودة.

(1) الفن الباروكي هو مصطلح يطلق على الأنماط المعمارية والفنون البصرية وتصاميم البناء الغربية التي سادت خلال النهضة الفنية الغربي في أوروبا. (الترجمة)

تعالَتْ صرخة إحباط وغضب حادة من المبنى الذي خلفه. فضرب رينسوينا الشجرة لئنيحيا من طريقه وجرى بكل سرعته.

وتذكر أن ثمة طريق في مكان ما. لكن في تلك المتاهة التي يُسببها الضوء الفضي والظلال، والتي خضبتها حُمره في الوقت الحالي حيث إن النجم الجديد المخيف جعل وجوده طاغيًا محسوسًا حتى في العالم السفلي. وعلى أي حال، فقد بدا أن خيط الحياة يسلك مسلكًا خاطئًا تمامًا.

وكان هناك صوت وقع خطوات من خلفه. راح صدر رينسوينا يُصدر أزيزًا بفعل التعب؛ كان الصوت يشبه وقع خطوات المتاع. وكان وضعه لا يسمح بقاء المتاع ثانية، لأنه قد يخطئ ويظن أنه يضرب سيده، ومن طبع المتاع عامة أن يعضّ الأشخاص الذين لا يروقونه. ولم يجرؤ رينسوينا قطُّ على السؤال عن المكان الذي ذهب إليه هؤلاء الأشخاص عندما أغلق عليهم غطاء المتاع الثقيل، لكنهم بلا ريب قد اختفوا من داخله عندما فُتح الغطاء مجددًا.

في الواقع لم تكن ثمة حاجة إلى القلق. فقد تخطاه المتاع بسهولة، إذ إن أرجله الصغيرة تتحرك بسرعة كالبرق. وبدا لرينسوينا أنه يصب كل تركيزه على الجري، كأنه وافته فكرة خاطفة عمًا كان يأتي من خلفه ولم ترُق له الفكرة مطلقًا.

تذكر رينسوينا ألا ينظر إلى الخلف. فالمنظر على الأرجح لن يسر. وارتطم المتاع في شجيرة صغيرة ثم اختفى.

بعد لحظة رأى رينسوينا سبب ذلك. لقد تأرجح من على حافة النتوء الصخري ثم أخذ يسقط تجاه الحفرة الكبيرة بالأسفل، والتي بمقدوره أن يراها الآن مضاءةً بنور أحمر خافت في القاع. وكان يمتد من

رينسويند، خارجًا من على حافة الصخور وإلى الأسفل داخل الحفرة،
خيطين أزرقين لامعين.

فتوقف متشككًا، رغم أن هذا لم يكن صحيحًا تمامًا، لأنه كان على
يقين مطلق من بعض الأشياء مثل أنه لا يريد القفز، وأنه بلا شك لا
يريد أن يواجه الشيء القادم من ورائه أيما كانت ماهيته، وأنه في عالم
الأرواح كان توفلاور ثقيلًا جدًّا، وأنه ثمة أمور أسوأ من كون المرء ميتًا.
ثم غمغم: «لنقل الاثنين»، ثم قفز.

بعد بضع لحظات وصل الخيالة من ورائه ولم يتوقفوا بوصولهم إلى
حافة الصخور بل استمروا في ركوب خيولهم في الهواء وقادوها سيرًا
على الفراغ.

نظر الموت إلى الأسفل، وقال: لطالما ضايقتني هذا، قد أركب بابًا
دوًّا.

قال الوباء: «أتسأل عما أرادوه؟».

قالت الحرب: «لا أعلم، علمونا لعبةً جيدةً رغم ذلك».

علقت المجاعة متفقة: «صحيح، لعبة مثيرة للاهتمام، في رأيي».

قال الموت: لدينا الوقت للمناغاة مرة أخرى.

قالت الحرب مصححةً: «مباراة⁽¹⁾».

- مباراة ماذا؟

قالت الحرب: «أنت تسميها مباريات».

قال الموت: صحيح، مباريات. ونظر عاليًا إلى النجم الجديد، وحار

في ما قد يعنيه هذا النجم.

(1) الرابر أو المباراة المكونة من ثلاث جولات في لعب الورق. (المترجمة)

وكرر شبه مترددٍ: أظن أنا لدينا متسعًا من الوقت.

في ما سبق قد ذُكرت محاولات إضفاء قدرٍ من الأمانة في نقل الأخبار والحكايات في القرص، وكيف أن الشعراء وناظمي الشعر الملحمي قد مُنعوا من ذلك حتى لا تطالهم عقوبة -حسنًا، عقوبة الإعدام- الناتجة عن الاسترسال في الحديث عن الجداول الثرثارة والفجر ذي الأصابع الوردية⁽¹⁾، ويمكنهم فقط قول مثلاً، الوجه الذي أُطلق من أجله آلاف السفن لو كانوا قادرين على إجراء حسابات معتمدة لأحواض السفن.

وعليه، من باب الاحترام العابر لهذه العادة، فلن يُقال في حق رينسوينا وتوفلاور أنهما أصبحا موجة جيبيية باللون الأزرق الثلجي تحني خلال الأبعاد المظلمة، أو أنه كان ثمة صوت مثل رنين ناب وحشي، أو أن حياتهما مرّت أمام عينيها (وعلى أي حال، فقد رأى رينسوينا حياته الماضية تومض أمام ناظريه في العديد من المرات لدرجة أنه استسلم للنوم في الأجزاء المملة) أو أن الكون قد سقط عليهما مثل هلام كبير.

ولأنه قد ثبت صحته بالتجربة، فسيقال إنه كانت ثمة ضوضاء تشبه مسطرة خشبية تُضرب بشدة بشوكة رنانة تُصدر نغمة الدو، أو ربما سي ييمول، ثم إحساس مباغت بالسكون التام.

هذا لأنهما كانا ساكنين تمامًا، وكان الظلام قاتمًا شديدًا.

(1) إشارة إلى شخصية دُون (الفجر) ربة الصباح في الميثولوجيا الإغريقية التي تأتي بعربتها حاملة شمس الصباح معلنة قدوم النهار، وقد وردت في أوديسة هوميروس، وجاء في ترجمة دريني خشبة للأوديسة أنها أورورا ابنة الفجر الوردية. ويُقصد بالفجر ذي الأصابع الوردية هو مجاز قد ورد في منطلق رحلة أوديسيوس ليدل على أن أوديسيوس في مرحلة من عدم النضج وقلة الخبرة. (الترجمة)

خطر لرينسوينا أنه ثمة شيئاً خاطئاً قد حدث.

ثم رأى تلك الزخرفة التشجيرية الزرقاء الخافتة أمامه.

كان بداخل الأوكتافو ثانية. وتساءل عمّا يحدث إن فتح أحدهم الكتاب، هل سيبدو هو وتوفلاور مثل لوحة ألوان؟

قرر رينسوينا: على الأرجح لا. فالأوكتافو الذي كان فيه كان شيئاً مختلفاً قليلاً عن الكتاب المُسلسل إلى المُقرأ في أعماق الجامعة الخفية، والذي كان مجرد تجسيد ثلاثي الأبعاد لواقع متعدد الأبعاد، و...

فكر: تريث، هذه ليست طريقي في التفكير، مَنْ يفكر لي؟

قال صوت يشبه حفيف الصفحات القديمة: «رينسوينا».

- مَنْ؟ أنا؟

- طبعاً أنت أيها الغبي التافه.

واشتعلت شرارة التحدي والجرأة لوهلة في قلب رينسوينا المتألم.

فقال رينسوينا نكايه به: «أتمكنت من تذكر كيف بدأ الكون بعد؟ بلغم الحلق، أليس كذلك، أو استنشاق النفس أو هرش الرأس لمحاولة تذكر الأمر، كانت على طرف اللسان؟».

همس صوت آخر شديد الجفاف: «حري بك أن تتذكر المكان الذي أنت فيه». لا بدّ أنه يستحيل همس أي جملة دون أن تصحبها أصوات صفير، لكنّ الصوت أجرى تجربة جيدة للغاية.

هتف رينسوينا: «أتذكر أين أنا؟ أتذكر أين أنا؟ طبعاً أتذكر أين أنا، أنا بداخل الكتاب اللعين أتحدث إلى جمع من الأصوات التي لا يمكنني رؤيتها. ولم تظن أنني أصرخ؟».

ثم قال صوت قرب أذنه: «أظن أنك تتساءل لم أحضرناك إلى هنا ثانية».

- لا.

- لا؟

قال صوت آخر بلا جسد: «ماذا قال؟».

- قال لا.

- أقال لا حقاً؟

- أجل.

- أوه.

- لم؟

أجابهم رينسويند: «يحدث لي هذا الشيء دومًا، في لحظة أكون ساقطًا من على حافة العالم، ثم بعدها أجدني داخل كتاب، ثم أكون على صخرة طائفة، ثم أشاهد الموت وهو يتعلم طريقة لعب السد الصغير أو السد أو أيما كان ذلك، لم عليّ التعجب والدهشة من أيّ شيء؟».

قال الصوت الأول وهو مدرك بأنه قد بدأ يفقد حس المبادرة: «حسنًا، إننا نفترض أنك ستتعب من السبب الذي يجعلنا لا نريد أن ينطق بنا أيُّ أحد».

تردد رينسويند، وقد وُردت الفكرة على خاطره، سريعًا جدًا فحسب وراحت تنظر من جانب لآخر تحسبًا لإغفالها.

- ولم ينبغي لأي أحد أن ينطقك؟

قالت التعويذة: «إنه النجم، النجم الأحمر. السحرة يبحثون عنك فعلاً، وبالعثور عليك يريدون قول التعاويذ الثمانية كلها معًا لتغيير المستقبل. فهم يظنون أن القرص سيصطدم بالنجم».

فكر رينسويند في هذا، وسأل: «هل الأمر كذلك؟».

- ليس بالتحديد، لكن بطريقة ما، هذا؟

نظر رينسوينا إلى الأسفل، فوجد المتاع يخرج بخطى حثيثة من الظلام. وكانت ثمة قطعة طويلة من نصل منجلٍ على غطائه: «إنه المتاع فحسب».

- لكننا لم نستدعه إلى هنا!
- لا أحد يستدعيه إلى أي مكان بل يظهر في المكان فحسب. لا تقلق حياله.
- أوه، ما الذي كنا نتحدث فيه؟
- أمر النجم الأحمر.
- صحيح، مهم جدًا أنك...
- مرحبًا، مرحبًا، هل من أحد هناك؟
- كان صوتًا صغيرًا حادًا وقد أتى من صندوق الصور الذي كان لا يزال معلقًا حول العنق المتيبس لتوفلاور.
- فتح عفريت الصور كوة الصندوق وضيَّق عينيه ناظرًا إلى رينسوينا: «أين يقع هذا المكان يا سيدي؟».
- لست متأكدًا من معرفة ذلك.
- أما زلنا ميتين؟
- ربما.
- حسنًا، لنأمل أن نذهب إلى مكان حيث لا نحتاج فيه إلى الكثير من اللون الأسود، لأن مخزوننا منه قد نفذ. ثم صُفِّق الباب بقوة.
- تخيل رينسوينا توفلاور في رؤية خاطفة وهو يمرر هذه الصور لمن حوله ويقول أشياء من قبيل 'هذا أنا تُعذِبنِي ملايين الشياطين' و'هذا أنا مع ذاك الثنائي المرح اللذين قابلناهما في المنحدرات المتجمدة من العالم السفلي'. لم يتأكد رينسوينا مما قد جرى لك بعدما مت، لم

تُكُن السلطات واضحة تمام الوضوح بخصوص الموضوع، قال بحار
داكن البشرة من الأراضين الواقعة عند اتجاه الحافة إنه كان متأكدًا من
الذَّهَاب إلى الجنة حيث كان هنالك شربات وهور. ولم يكن رينسوينا
متأكدًا من ماهية الحورية، لكن بعد أن فكر قليلاً خلص إلى أنه أنبوب
مصنوع من العرقسوس لشطف الشربات. على أي حال، جعلته فكرة
الشربات يعطس.

قال صوت خشن بنبرة صارمة: «وبعد أن انتهت هذه المقاطعة
للحديث، يمكننا الآن المواصلة. أهم شيء ألا تدع السحرة يأخذون
التعويذة منك. ثمة فظائع سوف تقع لو قيلت التعاويذ الثمانية عما
قريب».

- أريد منهم أن يتركوني في سلام فحسب.

- جيد، جيد. نعرف أننا يمكننا الوثوق بك من اليوم الذي فُتحت فيه
الأوكتافو لأول مرة.

تردد رينسوينا، وسألهنَّ: «انتظرن لحظةً. أتريدنَّ مني أن أتهرب
وأختبئ في الأرجاء لأمنع السحرة من جمع التعاويذ كلها معًا؟».

- بالضبط.

- ألهذا دخلتُ واحدةً منكنَّ إلى رأسي؟

- تمامًا.

قال رينسوينا غاضبًا: «لقد أفسدتنَّ حياتي، أتعلمنَّ هذا؟ كنت لأعدو
ساحرًا ناجحًا حقًا إن لم تقررروا استغلالتي ككتاب تعاويذ متنقل من
نوع ما. ويتعذر عليَّ تذكر أي تعاويذ أخرى، فهنَّ خائفات من البقاء في
الرأس نفسه الذي أنتن فيه!».

- إننا آسفات.

- أريد العودة إلى الديار فحسب! أريد العودة إلى حيث...، (وظهر في عين رينسويند أثرٌ لندى الدمع) إلى حيث الأرض الثابتة والحصى المستديرة تحت الأقدام وبعض الجعة التي لا بأس بها في المطلق وحيث يمكن للمرء الحصول على قطعة مُشبعة من السمك المقلي في المساء وربما معها بعض الخِيار المخلل، وحتى شطيرة سمك الأنقليس وطبق من حلزون الولك. ولطالما كان هناك إصطبلٌ دافئ في مكان ما ينام المرء فيه وفي الصباح يجد نفسه في المكان ذاته الذي كان فيه الليلة الماضية، ولم يكن يسود المكان هذا الجو طوال الوقت. وأنا لا أبه لأمر السحر، فأنا على الأرجح لست، كما تعلمن، من النوعية المناسبة لأكون ساحرًا، أنا فحسب أريد العودة إلى الديار!...

شرعتُ واحدة من التعاويذ في الكلام: «لكن لا بُدَّ لك من...».

لقد فات الأوان. فالحنين إلى الديار، ذاك الرباط المطاطي الصغير في العقل الباطن الذي يمكنه أن يلتف على سمكة سلمون ويدفع بها إلى ما يقرب من خمسة آلاف كيلو خلال البحار الغريبة، أو يرسل مليون حيوان من اللاموس منطلقين في سعادة عائدين إلى موطن أسلافهم الذي لم يعد موجودًا بعد الآن بسبب انحراف طفيف في الانجراف القاري، انبثق الحنين إلى الديار داخل رينسويند مثل برياني القريديس في أواخر الليل، وانساب على طول الخيط الواهن رابطًا روحه المعذبة بجسده، وعاند ولم يتزحزح...

كانت التعاويذ وحيدةً داخل كتابها الأوكتافو.

وحيدةً، على أي حال، بصرف النظر عن المتاع.

فنظرن إليه، ليس بالأعين، لكن بالعقل الواعي القديم قدم القرص

نفسه.

ثم قلن: «أغرب عن وجهنا أنت أيضاً».

*

- ...سيئ.

عرف رينسويند أن هو بنفسه مَنْ كان يتحدث، فقد تعرّف الصوت. فلحظة كان ينظر إلى الخارج من خلال عينيه ليس على النحو الطبيعي، لكن كجاسوس قد يختلس النظر من خلال الأعين المقصوصة من صورة ما. وهكذا قد عاد.

سأله كوهين: «هل أنت على ما يرام يا رينشويند؟ بدا أنك قد متّ نوعاً ما هناك».

وقالت بيثان متففة: «لقد شحّب لونك قليلاً، كأن أحدهم مشى فوق قبرك⁽¹⁾».

قال: «آه، أجل، كان أنا على الأرجح»، ورفع أصابعه وراح يعُدّها. وبدا له أن عددها طبيعي.

فسألها: «اممم، هل تحركت على الإطلاق؟».

فأجابته بيثان: «ما كان منك إلا أن نظرت إلى النيران كأنك رأيت شيئاً».

وأتى من خلفهم صوت تأوّه، كان توفلاور ينهض، مُمسكاً برأسه بين يديه.

وركزت عيناه عليهم. وتحركت شفاته دون أن تصدر أي صوت.

وقال: «كان هذا حلمًا... غريبًا حقًا. ما هذا المكان؟ لم أنا هنا؟».

(1) تعبير يستخدم عندما تصيب المرء رعشة مفاجئة. (الترجمة)

ردَّ كوهين: «حشناً، البعض يقول إن خالق القرص أخش حَفنة من الصلصال و...».

قاطعهُ توفلاور: «لا، أقصد هنا، هل هذا أنت يا رينسويند؟».

ردَّ رينسويند، مفترضاً حسن النية: «أجل».

قال توفلاور: «كان هنالك... ساعة الحائط تلك التي... وأولئك الأشخاص الذين...». ثم هز رأسه، واستطرد: «لم تفوح رائحة الخيول من كل شيء؟».

قال رينسويند: «لقد كنت مريضاً. أصابتك الهلوسة».

قال توفلاور وهو يخفض بصره إلى صدره: «أجل... أعتقد أنني كنت كذلك، لكن في تلك الحالة، لمَ قد قمتُ...».

هبَّ رينسويند قافزاً. وقال: «الجو هنا خانق، عليك أن تستنشق بعض الهواء المنعش». ثم نزع حزام صندوق الصور عن عنق توفلاور، وأسرع إلى سديلة الخيمة.

علقتُ بيثان: «لم ألاحظ هذا الشيء عندما دخل علينا»، فهزَّ كوهين كتفيه غير مكترث.

نجح رينسويند في الابتعاد عدة ياردات عن خيمة اليورت قبل أن تبدأ سُقَاطة صندوق الصور في الطقطقة. وببطء شديد، دفع الصندوق بآخر صورة قد التقطها العفريت.

خطفها رينسويند سريعاً.

كان ما ظهر في الصورة ليكون في غاية الرعب حتى في وضح النهار. غير أنها كانت أشد رعباً تحت الضوء النجمي البارد حيث اكتست بحمرة نيران النجم الجديد الشرير.

قال رينسويند برفق: «لا، لا، لم تكن كذلك، كان هنالك منزل وتلك الفتاة و...».

فقال العفريت من كَوَّته: «أنت ترى ما تراه وأنا أرسم ما أراه. وما أراه حقيقي، لقد خُلِّقْتُ لهذا. أنا فقط أرى ما هو موجود هنالك».

مشى جسم يكسوه السواد وهو يسحق طبقة الثلج من تحت أرجله تجاه رينسويند. كان المتاع. وشعر رينسويند فجأة، الذي كان من طبعه كره المتاع والارتياح منه، أنه الشيء الطبيعي والأكثر إنعاشاً الذي قد رآه على الإطلاق.

قال رينسويند: «أرى أنك قد نجوتَ إذن». فهزَّ المتاع غطاءه مغمغماً.

سأله رينسويند: «حسناً، لكن ماذا رأيتَ؟ هل التفتتَ خلفك؟».

لم يُحرِ المتاع جواباً، وللحظة ساد الصمت بينهما، كمحاربين فزاً من ساحة المذبحة وتوقفا لاسترداد أنفاسهما وسلامة عقليهما.

ثم قال رينسويند: «تعالَ توجد نيران بالداخل»، ومد يده حتى يربَّتْ غطاء المتاع. فأغلق المتاع غطاءه سريعاً حتى كاد يقبض على أصابعه. وبهذا كانت الحياة قد عادت إلى مسارها الطبيعي.

بَزغ فجر اليوم التالي مشرقاً صافياً بارداً. وغدت السماء قبة زرقاء ملتصقة على البساط الثلجي الأبيض للعالم، وكان الانطباع الكلي ليكون منعشاً وصافياً كما في إعلانات معجون الأسنان لولا البقعة الوردية التي لاحت في الأفق.

قال كوهين: «بإمكانك النَّشْرُ إليها في وضح النهار الآن. فملشاً يكون؟».

وحدق إلى رينسويند الذي أحمرَّ وجهه.

وقال: «لَمْ يَنْظُرِ الْجَمِيعَ إِلَيَّ؟ فَأَنَا لَا أَعْلَمُ مَاذَا يَكُونُ، رُبَّمَا يَكُونُ مُذْنَبًا أَوْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ».

سألته بيثان: «هل سنحترق جميعًا؟».

- كيف لي أن أعرف؟ لم يسبق لي أن ضربني مُذنب من قبل.

كانوا يركبون خيولهم في الموكب الوحيد السائر في الحقل الثلجي الناصع. وكان قوم الخيل، الذين بدؤوا أنهم قد أَجَلُّوا كوهين أَيْمًا إجلال، قد أعطوهم مَطَايَاهُمْ والاتجاهات إلى نهر سمارل الذي على بُعد ما يقرب من مئة وستين كيلو باتجاه الحافة، إلى حيث ظن كوهين أن رينسويند وتوفلاور يمكنهما إيجاد قاربٍ يبحر بهما إلى البحر الدائري. وقد أبدى نيته أنه سيذهب معهما بسبب تورُّم أصابعه من البرودة.

أعلنت بيثان من توَّها أنها ستذهب كذلك، تحسبًا لأن يحتاج كوهين إلى تمسيد أي شيء. وكان رينسويند مدرِّكًا إلى حد ما وجودَ كيمياء من نوع ما تنشأ ببطء. أول الأسباب، أن كوهين قد بذل جهده في تمشيط لحيته.

وقال: «أظن أنها منجذبة إليك جدًّا».

فتنهَّد كوهين. وقال بحزن: «لو كنتُ أشغر بعشرين سنة».

- حينها؟

- كنت لأكون في الشابعة والشتين.

- ما علاقة هذا بالأمر؟

- حشنا، كيف يمكنني قول هشا؟ لَمَّا كُنْتُ فِي شِبَابِي، أَنْحَتُ أَشْمِي

فِي الْعَالَمِ، حَشْنَا، أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَ نِشَائِي مِنْ نَوَاتِ الشَّعْرِ الْأَحْمَرِ

الْمَفْعَمَاتِ بِالْحَيَوِيَّةِ شَدِيدَاتِ الطَّبَاعِ.

- آه.

- ثم كَبِرَتْ شني قليلاً وبناء على ما أفضله، اخترت امرأة شقراء الشعر وبريق العالم أجمع في عينيها.

- أوه؟ حقاً؟

- لكن حينها كَبِرَتْ شني قليلاً مرة أخرى، وأدركت أهمية النشاء نوات البشرة الداكنة المشيرات.

ثم توقف وانتظره رينسويند ليتابع الحديث، وسأله: «ثم؟ ثم ماذا؟ ما الذي تبحث عنه في المرأة الآن؟».

أدار له كوهين عيناً واحدة زرقاء دامعة، وقال: «الشَّبر».

قال صوت من خلفه: «لا يمكنني تصديق ذلك! أنا أركب الخيل رفقة كوهين البربري!».

كان هذا توفلاور، فمئذ الصباح الباكر كان كقرود معه مفتاح مزرعة الموز بعد أن اكتشف أنه كان يتنفس الهواء نفسه الذي يتنفسه أعظم بطل على مر العصور.

سأل كوهين رينسويند: «هل من الممكن أن يكون شاخرًا؟».

- لا، هذا ما يفعله طوال الوقت.

استدار كوهين من فوق سرجه. فابتسم له توفلاور ابتسامة عريضة، ولوّح له باعتزاز. فاعتدل كوهين، ونخر.

- هو مُبَشِّرٌ له عينان، أليس كذلك؟

- أجل، لكنَّ عينيهِ لا تعملان مثل الآخرين. خذ بنصحي. أقصد...

حسنًا، أنت تعرف خيمة قوم الخيل، حيث كنا ليلة البارحة؟

- أجل.

- أَلن تقول إنها كانت مظلمة ومُزَيَّتة بعض الشيء وتفوح منها رائحة حصان مريض؟

- كنت لأقول إن هذا وشفًا دقيقًا للغاية.

قال رينسويند: «لن يتفق على هذا، وكان ليقول إنها كانت خيمة همج كبيرة مشدودة من جلود أعتى الوحوش التي صاهاها المحاربون ذوو الأعين المنحنية الذين لا يعرفون عن الحضارة شيئًا، ولها رائحة صمغ نادر غريب مسروق من القوافل في عبورهم لطريق غير مطروق... حسنًا، وما إلى ذلك». وأضاف: «أعني ما أقول».

- هل مَشَّه الجنون؟

- هو مجنون نوعًا ما. لكن مجنون ويملك الكثير من المال.

- آه، إذن فهو غير مجنون البتة، لقد خضتُ غمار الحياة ووجدتُ أن لو كان بحوزة الرجل الكثير من المال، يكون غريب الأطوار فحشِب.

التفت كوهين من فوق سرجه مجددًا، وكان توفلاور يخبر بيثان كيف أن كوهين قد هَزَم وحده محاربي الثعابين التابعين لسيد المشعوذين في مِنطَقة سبليندي وسرق الجوهرة المقدسة من التمثال العملاق لأوفلر الإله التمساح⁽¹⁾.

وارتسمت ابتسامة غريبة بين أثناء تجاعيد وجه كوهين.

فقال رينسويند: «يمكنني أن أخبره بأن يطبق فمه، إذا أحببت».

- هل سيفعل؟

- لا، في الواقع.

فقال كوهين: «دعه يُشرشر». ونَزَلت يده على مقبض سيفه، الذي قد

صقلته قبضة كوهين بلطف من كثرة الاستخدام على مر العقود.

(1) أحد آلهة القرص، اشتقه الكاتب من الإله المصري القديم سوبك إله التماسيح في مصر القديمة. (الترجمة)

قال: «على أي حال، أحب عينيه. يمكنهما أن تريا حتى خمسين سنة». وعلى بعد ما يقرب من واحد وتسعين مترًا خلفهم، أتى المتاع يقفز بطريقة خرقاء على الثلج الرقيق. ولم يسأله أحد قط عن رأيه في أي شيء.

بحلول المساء كانوا قد وصلوا إلى حافة السهول العالية، وساروا بخيولهم في غابات الصنوبر المعتمة التي قد مسَّها غبار عاصفة ثلجية. لقد كان منظرًا يتألف من صخور كبيرة مشقوقة وأودية شديدة الضيق والعمق والتي يكون طول النهار فيها عشرين دقيقة فحسب. قُطِر متوحش عاصف، ذاك النوع الذي قد تتوقع فيه وجود...

قال كوهين وهو يشمشم في الهواء: «كائنات التروول⁽¹⁾».

نظر رينسوينا في ما حوله في ضوء الليل الأحمر. وعلى حين غرة بدت الصخور التي ظهرت طبيعية تمامًا حية بطريقة مثيرة للريبة. والظلال التي لم يشكَّ في أمرها راحت الآن تبدو مسكونة بأشياء مخيفة جدًا.

قال توفلاور: «أحب مخلوقات التروول».

فردَّ رينسوينا حازمًا: «لا، أنت لست كذلك. لا يمكنك أن تحبها. إنها ضخمة ولها جسم مُتكتل وتأكل الناس».

(1) الجبار أو التروول في الميثولوجيا النوردية هو مخلوق خرافي يسكن الكهوف أو يقيم تحت الأرض أو في غابات شمال أوروبا. وترتبط بتضاريس معينة يقال إنها كانت تروول ثم تحولت إلى صخور. (المترجمة)

قال كوهين وهو ينزلق بطريقة خرقاء من على حصانه ويدلك ركبتيه: «لا إنها ليست كشك. إنه شوء فهم مشهور، إلى حد ما. فلم تأكل مخلوقات التروول أي أحد».

- لا؟

- لا، إنها دائماً ما تبشق الفتات إلى الخارج. فلا يمكنها هضم الناس، أترون؟ فمخلوق التروول العادي لا يبتغي في الحياة أكثر من كتلة جيدة من الجرانيت، وربما معها قطعة شميكة جيدة من الحجر الكلشي للتحلية. وقد شمعتُ أحدهم يقول إنه يشبب أنها مُرْكَبَة من الشيليكاشي - شيليكاشو⁽¹⁾.

وتوقف كوهين ومسح لحيته، واستطرد: «مكونة من الشخور».

أوما رينسويند، فطبعًا لم تكن مخلوقات التروول مجهولة في عنخ-موربورك، فهي تُعمل في الحراسة الشخصية في الغالب. وكثيرًا ما تكون تكلفة الإبقاء عليها عالية حتى تعلمت مخلوقات التروول استخدام الأبواب وعدم مغادرة المنزل بالمشي بلا وجهة من أقرب حائط لها بكل بساطة.

وبينما يجَمعون الحطب، تابع كوهين كلامه: «يكمن مقشدي في أشنان التروول».

سألت بيتان: «لم؟».

- الأَلْمَاش، لا بدَّ أنها كشك، كما ترين. إنها الشيء الوحيد الذي يتحمل قوة الشخور، إلا أن عليها أن تُنبت طاقم أشنان جديد كل عام.

(1) يحاول كوهين نطق «سيليكيات» لكن يتعذر عليه بسبب لدغته وغبابة الكلمة عليه.
(المترجمة)

قال توفلاور: «أتحدث عن الأسنان...».

- أجل؟

- يتعذر عليّ ملاحظة هذا...

- أجل؟

قال توفلاور: «أوه، لا شيء».

فقال كوهين: «أجل؟ أوه، لنشتمر في إيقاد تلك النار قبل أن نفقد الضوء. وبعدها»، تغير وجه كوهين، وأردف: «أشُنُّ أنه من الأفضل أن نُعدَّ بعض الحشَاء».

قال توفلاور في حماس: «رينسوينا بارع في هذا الأمر، إنه يعرف كل ما يخص الأعشاب والجذور وكل تلك الأمور».

رمق كوهين رينسوينا بنظرة تنمُّ عن أنه، كوهين، لا يُصدق هذا عنه. وقال: «حشناً، لقد أعطانا قوم الخيل بعض شرائح لحم الخيول المقدد. ولو وجدت بعض البشَل والمأكولات البرية، فقد يجعل هذا طعامها أفضل».

شرع رينسوينا في الكلام: «لكن أنا...»، ثم استسلم. وراح يفكر، على أي حال أنا أعرف شكل البصل، إنه شيء مترهل أبيض من نوع ما به أجزاء خضراء تبرز من أعلاه، فلا بدُّ أن يكون واضحاً وضوح الشمس.

فقال: «سأذهب فحسب لألقي نظرة، هل أفعل؟».

- أجل.

- هناك في تلك النباتات تحت الشجرية الكثيفة الظليلة؟

- أجل، مكان جيد للغاية.

- تقصد حيث الأخاديد العميقة وكل تلك الأشياء؟

- موضعٍ مثالي، في رأيي.

قال رينسوينا مستاءً: «أجل، أظن ذلك». وانطلق متسائلاً عن الطريقة التي يجذب بها المرء البصل. وراح يفكر، أنه قبل كل شيء، رغم رؤية المرء البصل معلقاً في الحبال في أكشاك السوق، فهو لا ينمو بهذه الطريقة على الأرجح، وربما يستعين الفلاحون أو أيما يكون بكلاب صيد البصل أو شيء من هذا القبيل، أو يغنون الأغاني لجذب البصل.

كان هنالك بضع نجوم قد بزغتُ باكراً في السماء فيما راح يبحث بفضول على غير هدى بين أوراق النباتات والعشب. وانسحقتُ تحت قدميه فطريات مضيئة، عضوية إلى حدٍ بغيض وتبدو كأنها ألعاب تسلية لأقزام النُوم. وعضته أشياء صغيرة طائرة. وأشياء أخرى، كانت غير مرئية من حسن الحظ، قفزتُ أو تسللتُ تحت الشجيرات وأخذت تنعب موبخةً إياه.

همس رينسوينا: «بصل؟ هل من بصل هنا؟».

قال صوت بجانبه: «ثمة رقعة مليئة بالبصل بجانب شجرة الطقسوس القديمة تلك».

قال رينسوينا: «آه، جيد».

ساد صمت طويل، إلا من أزيز الناموس حول أذني رينسوينا.

وقف رينسوينا ساكناً بلا حراك. وحتى إنه لم يحرك عينيه، ثم قال في نهاية المطاف: «عذراً».

- ماذا؟

- أي واحدة تكون شجرة الطقسوس؟

- شجرة كثيرة العقد لها إبر خضراء داكنة صغيرة.

- أوه، أجل. أراها. شكراً لك مجدداً.

لم يبرح مكانه، وفي نهاية المطاف قال الصوت بطريقة ودية: «هل من شيء آخر أقدمه لك؟».

قال رينسوينا وكان لا يزال ينظر أمامه دون التفات: «أنتِ لستِ شجرة، أليس كذلك؟».

- لا تكن سخيًّا فالأشجار لا تتحدث.

- عذرًا، فكل ما في الأمر أنني لاقيت صعبًا مؤخرًا مع الأشجار، تعرف كيف الأمر.

- ليس في الواقع، فأنا صخرة.

وبالكاد تغير صوت رينسوينا، وقال في ببطء: «لا بأس، لا بأس. حسنًا، سأحصل على تلك البصلات فحسب، إذن».

- اهناً بها.

سار إلى الأمام في حذر ووقار، ولمح أجمّة مؤلّفة من أشياء بيضاء خيطية مجتمعة بين النباتات تحت الشجرية، فاقتلعها بحرص ثم استدار.

كانت توجد صخرة على بعد مسافة قصيرة. لكنّ على مقربة منه كان هناك الكثير من الصخور في كل مكان، أضلاع القرص بعينها كانت قريبة من السطح هنا.

نظر رينسوينا نظرة ممعنة إلى شجرة الطقسوس، تحسبًا لو أنها كانت قد تكلمت. لكنّ شجرة الطقسوس، بحكم أنها شجرة منعزلة بدرجة كبيرة، لم تكن قد سمعت برينسوينا مُخلّص الأشجار، وعلى أي حال كانت نائمة.

قال رينسويند: «لو كان هذا أنت يا توفلاور، فقد عرفت أنه أنت طوال الوقت. وبدا صوته فجأة واضحًا ووحيدًا تمامًا تحت صفحة السماء التي بدأت تصطبغ بلون الغسق».

وتذكر رينسويند الحقيقة الوحيدة التي يعرفها بكل تأكيد عن مخلوقات الترول، وهي أنها تتحول إلى صخور بتعرضها لضوء الشمس، لذا فإن أي أحد قد وظّف مخلوقات الترول للعمل خلال ساعات النهار فعليه أن ينفق ثروة على دهان واقى الشمس.

والآن لما انتهى إلى التفكير في أمر الترول، فلم يُذكر في أي موضع ما الذي يحدث لها بعد غروب الشمس مرة أخرى...

ثم انزوى من الأفق ببطء آخر شعاع من ضوء النهار. وعلى حين غرة بدأ أن ثمة الكثير من الصخور في الأرجاء.

قال توفلاور: «لقد قضى الكثير من الوقت في الحصول على تلك البصلات».

- أتظن أنه من الأفضل أن نذهب ونبحث عنه؟

قال كوهين: «يعرف الشجرة كيف يعتنون بأنفسهم»، ثم جفل، وقال: «لا تقلق». وكانت بيثان تقص له أظفار أصابع قدميه.

قال توفلاور وهو يقترب من النيران: «إنه ليس بالساحر البارع للغاية في الحقيقة. لم أكن لأقول هذا في وجهه، لكن -مال ناحية كوهين- لم أره في الحقيقة من قبل يفعل أي شكل من أشكال السحر».

فردت بيثان: «صحيح، أعطني قدمك الأخرى».

- هَشًا عطف كبير منك.

- سيكون لك قدمان جميلتان للغاية لو أنك تعتني بهما.

قال كوهين في خجل: «لا يبدو أنني أستطيع أن أميل إلى الأشفل كما كنت أفعل في السابق. وطبعًا لا يقابل المرء العديد من اختشاشيي علاج الأقدام في نوعية عملي. أمر مضحك، حقًا. لقد قابلتُ عددًا لا يُحصى من كهنة الأفاعي والآلهة الغاضبة والقادة العشكريين، لكنني لم ألقَ أيًا من اختشاشيي علاج الأقدام. أعتقد أن الأمر لن يبدو عقلانيًا، حقًا كوهين ضد اختشاشيي علاج الأقدام...».

فقالت بيتان مقترحة: «أو كوهين والمعالج اليدوي من الموت». فقهره كوهين.

ضحك توفلاور، وقال: «أو كوهين وأطباء الأسنان المجنونون!». انطبق فم كوهين فجأة، وسأل وكان في صوته نبرة تهديد كأنه على وشك أن يضربه ببراجمه: «ما المضحك جدًّا في هشا؟». قال توفلاور: «أوه، أأ، حسنًا. أسنانك، أنت تعرف...». سأل كوهين بطريقة سريعة تنم عن غضبٍ: «ما خطبها؟». بلع توفلاور ريقه، وقال: «لستُ غافلًا عن أنها، اممم، ليست في الموقع الجغرافي نفسه لقمك».

حدَّق إليه كوهين، ثم ارتخى، وبدا صغيرًا جدًّا وشيخًا. ثم تمتم: «شحيح، طبعًا، أنا لا ألقى باللوم عليك. فمن الشعب أن يكون المرء بطلًا بلا أسنان. فلا يهمُّ ما تخشره بعد شكك، فيمكن للمرء أن يتعايش بعين واحدة حتى، لكنَّ حالما يرون منك فمًا لا تبدو منه إلا لِسَّة فلا يُكنُّ لك أحد أي احترام».

قالت بيتان بنبرة تنم عن ولاء: «أنا أفعل».

فسأله توفلاور في ابتهاج: «ولمَّ لا تحصل على المزيد من الأسنان؟».

فقال كوهين ساخرًا: «أجل، حسنًا، لو كنتُ شمكة قرش أو شيء من هذا القبيل، طبعًا، كنت لأتبت بعضها».

قال توفلاور: «أوه، لا، أنت تشتريها. انظر، ساريك - أأ، بيثان، هل تمانعين النظر إلى الاتجاه الآخر؟». وانتظرَ حتى التفتت ثم وضع يده في فمه.

وقال: «أتلاحش؟».

سمعت بيثان كوهين وهو يشهق من الذهول.

- يمكنك إخراج أسنانك؟

قال توفلاور: «أوه، أجل. لديّ العديد من أطقم الأسنان. أشتميحك عُشرًا...». سُمع صوت بلع، ثم بصوت عادي جدًا قال توفلاور: «إنه مناسب جدًا، طبعًا».

ضجَّ صوت كوهين بالذهول، أو القدر الممكن من الذهول الممكن إظهاره من شخص لا يمتلك أسنانًا، وهو ما لا يختلف عن القدر نفسه لو أن له أسنانًا لكن في حالة كوهين الأثرم يبدو ذهوله أقل انبهارًا بكثير.

وقال: «لا بدّ من التفكير في الأمر، فعندما تؤلمك الأسنان، تخلعها فحشب وتدعها تتألم وتتعامل مع الأمر من تلقاء نفسها، أليس كَشلك؟ وبهذا تُلقن الأشقياء الشُّغار دَرشًا، وترى كيف تروق لها فكرة أن تُترك لتؤلم وحدها تمامًا خارج الفم وتمضي أنت دون ألم!».

قال توفلاور بحذر: «هذا ليس صحيح تمامًا. إنها ليست أسناني الأصلية، بل إنها ملكي فحسب».

- هل وضعت أسنان شخص آخر في فمك؟

- لا، بل قد صنعها أحدهم، ويضعها العديد من الناس من حيث أتيت، إنها...

لكن لم يُلقَ توفلاورَ محاضرتَه عن تركيبات الأسنان، لأن شخصًا ما قد ضربه.

*

دارَ قمر القرص الصغير بجد في السماء، وأضاء سماء القرص بضوءه الخاص. وذاك بسبب الترتيبات الفلكية المحدودة وغير الكافية بالمرّة التي وضعها الخالق. وكان مزدحمًا بإلهات قمرية مختلفة واللأني لم يكن، في هذا الوقت بالتحديد، يولين أيّ اهتمام لما يحدث في القرص فكّن يقدمن عريضة بخصوص عملاقة الجليد.

ولو نظرن إلى الأسفل، لرأين رينسوينا يتحدث في عجلة إلى حفنة من الصخور.

إن مخلوقات التروول واحدة من أقدم أشكال الحياة في الكون المتعدد، ويرجع تاريخها إلى محاولة مبكرة لتهيئة الكائن الحي دون مادة البروتوبلازما الرخوة بأكملها. وتعيش كائنات التروول الفردية وقتًا طويلًا، وتدخل في سبات في فصل الصيف وتنام خلال النهار، إذ إن الحرارة تؤثر فيها وتبطئ من حركتها. ثم إنها تتمتع بجغرافيا ساحرة. وبإمكان المرء أن يتحدث عن علم الاحتكاك، بإمكان المرء ذكر تأثيرات أشباه الموصلات المصنوعة من السيلكون غير الخالص، بإمكان المرء الحديث عن كائنات التروول العملاقة من حِقبة ما قبل التاريخ التي شكّلت معظم سلاسل الجبال الكبرى في القرص وستتسبب في مشكلات حقيقة إن أفاقت بشكل ما، لكن الحقيقة التي لا مرء فيها هي أنه بدون الحقل السحري القوي المتغلغل الخاص بالقرص فإن كائنات التروول كانت لتموت منذ أمد بعيد.

لم يكن الطب النفسي قد اخترع في القرص. فلم يُجرِ أحدُ اختبار بقعة الحبر لاختبار الشخصية على رينسوينا مباشرة لمعرفة أكانت له أي سلوكيات غير عقلانية حمقاء. لذا فإن السبيل الوحيد الذي يملكه ليعطيه القدرة على وصف تحول الصخور مرة أخرى إلى كائنات التروول هو أنه يهذر بلا فهم بخصوص الطريقة التي تتشكل بها الصور فجأة عندما تنظر إلى النار أو الغيوم.

ففي لحظة تكون هنالك صخرة عادية تمامًا، وفجأة اتخذت بضع شقوق كانت هنالك طوال الوقت مظهرًا محددًا لقم أو أذنٍ مستدقة. وفي لحظة أخرى، وبلا أي تغيير يطرأ على الإطلاق، كان مخلوق تروول يجلس هنالك ويبتسم في وجه رينسوينا بقم مليء بالألماس.

قال رينسوينا لنفسه: لن يكونوا قادرين على هضمي، سأصيبهم بالإعياء الشديد.

لم يكن هذا مصدر ارتياح وطمأنينة كبيرين.

قال أقرب تروول إليه: «إذن أنت رينسوينا الساحر». وبدأ صوته كأن أحدهم يجري فوق الحصى. واستطرد: «لا أعرف، ظننتُ أنك ستكون أطول من ذلك».

فقال تروول آخر: «ربما قد تآكل قليلاً، فالأسطورة قديمة جدًا».

تحرك رينسوينا بطريقة خرقاء. فقد كان على يقين قاطع بأن الصخور التي يقف عليها كانت تُغير من شكلها، وكان ثمة تروول صغير جدًا - بالكاد أكبر من حصاة - جالس في وداعة على قدمي رينسوينا ويشاهده باهتمام بالغ.

فقال: «أسطورة؟ أي أسطورة؟».

قال الترول الأول: «لقد وُرثتِ الأسطورة من الجبل للحصى منذ غروب شمس⁽¹⁾ الزمان. 'عندما يُضيء النجم الأحمر السماء، سيأتي رينسوينا الساحر ليبحث عن البصل. فلا تَعْضُوه. فمن المهم أن تساعدوه حتى يبقى حيًّا».

حل صمت عمَّ الأجواء.

فسأل رينسوينا: «هل تلك هي الأسطورة؟».

قال الترول: «أجل. لطالما حيرتنا تلك الأسطورة. فجميع أساطيرنا بها قدرٌ أكبر من التشويق. إنه لمن الأكثر تشويقًا أن يكون المرء صخرة في الأيام الخوالي».

فسألهم رينسوينا بوهن: «أهو كذلك؟».

- أوه، أجل. فلا حدَّ للمرح. تنتشر البراكين في كل الأنحاء. فأن تكون صخرة، كان له معنى حقيقيًا آنذاك. ولم تكن تلك السخافات الرسوبية موجودة، فإما أن تكون صخور نارية وإما لا شيء. وطبعًا، كل هذا انتهى الآن. فالناس اليوم يُسمون أنفسهم ترول، حسنًا، في بعض الأحيان، لا يكونون أكثر من مجرد لوح من الأردواز. أو حتى الطباشير. ولن أرى لنفسي فخراً لو استخدمتني لترسم بي، أكنت لتفعل؟

قال رينسوينا سريعًا: «كلا، قطعًا ليس كذلك، لا. هذا، أأ، ذاك الشيء المُسمى أسطورة. أتقول إنكم لا ينبغي لكم عَضِي؟».

قال الترول الصغير الجالس على قدمي رينسوينا: «هذا صحيح! وقد كان أنا من أخبرك بموضع البصل!».

(1) * استعارة مجازية مهمة. لمخلوقات الترول الليلية، يوجد فجر الزمان في المستقبل بالطبع. (المؤلف)

قال التروول الأول، ولم يخفَ على رينسويند أنه كان أكبر الموجودين هناك: «إننا أكثر سعادة بقدمك. إننا قلقون بعض الشيء من هذا النجم الجديد. فما الذي يعنيه؟».

قال رينسويند: «لا أعلم، يبدو أن الجميع يظنون أنني أعرف بشأنه، لكنني لا أعرف...».

قال التروول الكبير: «لا نقصد أننا سنُمانع لو أننا انصهرنا حتى الذوبان. فتلك كانت بدايتنا، على أي حال. لكننا فكرنا، ربما، أنه قد يعني نهاية كل شيء وهذا لا يبدو أمرًا مبشرًا».

قال تروول آخر: «إنه يكبر، انظر إليه الآن. لقد غدا أكبر عن الليلة الماضية».

نظر رينسويند، وقد غدا أكبر عن الليلة الماضية بالتأكيد.

قال كبير التروول بخنوع شديد حتى بدا صوته مثل غرغرة الجرانيت: «إذن، ظننا أنه قد يكون لديك اقتراح ما؟».

قال رينسويند: «بإمكانك القفز من على حافة القرص، فلا بُدَّ أن هنالك الكثير من الأماكن في الكون قد تسع المزيد من الصخور».

قال التروول: «لقد سمعنا بهذا، لقد التقينا صخورًا حاولت تنفيذ الأمر. وقد قالوا إنك تطفو لما يقرب من ملايين السنين ثم، تصبح ساخنًا جدًا وتحترق وينتهي بك الأمر في أسفل حفرة كبيرة في المشهد. وهذا لا يبدو مبهجًا أبدًا».

ووقف التروول مصدرًا جلبة كخشخشة فحم يهبط على منحدر ضيق، وقد مدَّ ذراعيه الضخمتين كثيرتي الكتل. وقال: «حسنًا، مفترض أننا سنساعدك، هل من شيء تريد فعله؟».

فردَّ رينسويند: «كان من المفترض أنني سأعدُّ بعض الحساء».

ولَوْحٍ بالبصلات بحركة غير مفهومة. وربما لم تكن الإيماءة التي
أومأها الأكثر بطولية أو لها أيُّ هدف على الإطلاق.
قال الترول: «حَسَاء؟ هل هذا كل ما في الأمر؟»
- حسنًا، ربما بعض البسكويت أيضًا.

فتبادلت كائنات الترول النظرات في ما بينها، وظهرت الجواهر
الموجودة في أفواههم التي تكفي لشراء مدينة متوسطة الحجم.
وفي نهاية المطاف قال أكبر ترول: «الأمر يكمن في إعداد حَسَاءٍ
إذن». وهزَّ كتفيه بخشونة مصدرًا صوتًا كصوت حبيبات الصخور،
وأردف: «كل ما في الأمر أننا تخيلنا أن الأسطورة ستكون، حسنًا، أكثر
نوعًا ما لا أعلم، على حد ظني، لا تزال، أظن أن الأمر لا يهم».
ومدَّ يداً تشبه حَفنة من الموز الأحفوري.

وقال: «أنا كوارتز وهذا الذي هناك هو كريسوبراس وبريشيا وهذا
يشب وزوجتي بريل. إنها من الصخور التحولية نوعًا ما، لكنَّ مَنْ يكون
خلاف ذلك هذه الأيام؟ يا يشب، انزل عن قدميه».

أمسك رينسويند باليد بحذر بالغ، متأهبًا لسماع صوت انسحاق
العظمة التي ستنكسر. غير أنه لم يسمع شيئًا. فقد كانت يد الترول
قاسية ومصابة بالحزاز نوعًا ما حول الأطراف.

قال رينسويند: «أنا آسف، فلم يسبق أن التقيت كائنات الترول».

قال كوارتز حزينًا حيث بدأ الجَمع في التحرك تحت النجوم: «إننا
عرق مُحْتَضِر، فاليشب الصغير هو الحصاة الصغيرة الوحيدة في
قبيلتنا. إننا نعاني جراء الفلسفة، كما تعلم».

قال رينسويند وهو يحاول مواكبتهم في الحديث، وتحركت جماعة
الترول بسرعة كبيرة، لكنَّ في الوقت نفسه بهدوء تام، أشكلاً كبيرة

دائرية تتحرك كأشباح خافتة في ظلمة الليل. ولم يدلّ على مرورهم إلا صرخة رتيبة لمخلوق ليلي لم يسمعهم وهم قادمون.

- أوه، أجل، إننا نلاقي حتفنا بسببها. إنه أمر يحلُّ بنا جميعًا في النهاية. فهم يقولون إنه في إحدى الأمسيات، تبدأ في الاستيقاظ وتفكر 'علامَ العناء؟' ثم لا تفعل بعد ذلك. أتري تلك الجلاميد هنالك؟

رأى رينسوينا أشكالًا كبيرةً ترقد في العشب.

- ذاك الجلود الذي في النهاية، هو عمتي. لا أعرف عمّ يدور تفكيرها، لكنها لم تبرح مكانها منذ مئتي عام.

- يا إلهي، أسف لذلك.

فقال كوارتز: «أوه، الاعتناء بهم ليس معضلة بالنسبة إلينا في هذه الأثناء. فلا يوجد الكثير من البشر في الأرجاء كما ترى. أعرف أنه ليس خطأك، لكن لا يبدو عليك أنك قادرٌ على لَمَح الفرق بين الترول المفكر والصخر العادي. لقد نُحِتَ أخو جدي كما تعرف».

- هذا مروّع!

- أجل، في لحظة كان ترول وفي التالية كان مدفأة زخرفية.

ثم توقفوا أمام جرف مألوف المنظر. واحترقتُ ببطء بقايا نيران مكشوفة في الظلام.

قالت برييل: «يبدو أنه كان هناك قتال».

فقال رينسوينا: «لقد رحلوا جميعًا!». وجرى إلى نهاية الحقل.

«والخيول كذلك! وحتى المتاع!».

قال كوارتز وهو يجثو على ركبتيه: «واحد منهم قد سرَّبَ ذاك الشيء المائي الأحمر الذي تحملونه في أحشائكم. انظر».

- دم!

- أهذا اسمه؟ لم يسبق لي أن فهمت فائدته.

هُرَع رينسويند يجري كشخص تملكته الحيرة والذهول، وراح يمعن في النظر خلف الشجيرات تحسباً لو كان أحدهم مختبئاً هناك. ما جعله يتعثّر في زجاجة خضراء صغيرة.

أطلق رينسويند عويلاً، وقال: «مرهم كوهين! إنه لا يحل ولا يرتحل إلا به!».

قال كوارتز: «حسناً، أنتم بنو البشر تتميزون بشيء يمكنكم فعله، أقصد أنه شبيه بحالتنا لما تبطؤ حركتنا ونفهم الفلسفة، أنتم تسقطون أرضاً فحسب...».

صرخ رينسويند قائلاً: «نموت، هكذا يُسمى هذا الفعل!».

- هذا مقصدي، وهم لم يفعلوا هذا، لأن أجسادهم ليست هنا.

فاقترح يشب في حماسة: «إلا إذا كانوا قد التهموا!».

قال كوارتز: «همم»، وسألهم رينسويند: «الذئاب؟».

قال التروول: «لقد سَوَّينا كل الذئاب الموجودة في هذه الأرجاء بالأرض منذ حين طويل. فعل ذلك جدنا القديم على أي حال».

- ألم يُحبها؟

أجابه: «لا، هو فحسب لم يعتدّ النظر إلى موضع قدمه. اممم». ونظرت مخلوقات التروول إلى الأرض ثانية.

فقال: «هنالك آثار أقدام. تدل على الكثير من الخيول». ورفع نظره إلى التلال القريبة، حيث لاحت في أفق الغابات التي يضيئها ضوء القمر الجروف الحادة والمنحدرات الصخرية الخطرة.

وقال في هدوء: «يقطن جدنا القديم في الأعلى هناك».

كان ثمة خطب ما في الطريقة التي قال بها هذا الكلام جعلت رينسوينا يقرر أنه لا يريد مطلقاً لقاء الجد القديم.

وتجراً على السؤال: «خطر، أهو كذلك؟».

فردَّ كوارتز: «إنه شيخ قديم وضخم وشرير جداً. ولم نره في الأثناء لسنوات».

صححت له بريل: «لقرون».

أضاف يشب وهو يقفز ويحجل على أصابع قدم رينسوينا: «سيسحقهم جميعاً ويسويهم بالأرض!».

- يحدث فحسب أحياناً أن ينطلق ترول طويل العمر ضخم الحجم وحده إلى التلال، ثم -أمم- وسيطر عليه فكر الصخور، إذا كنت تفهمني.

- لا؟

تنهد كوارتز، وقال: «يتصرف الناس في بعض الأحيان كالحيوانات، أليس كذلك؟ وفي بعض الأحيان سيشرح التروال في التفكير مثل الصخرة، والصخور لا تحب البشر كثيراً».

نقر بريشا، ترول نحيف ذو طبقة من الحجر الرملي، كتف كوارتز، وسأل: «هل سنتبعهم إذن؟ تقول الأسطورة إنه علينا مساعدة رينسوينا الرخو ذاك».

وقف كوارتز وفكر هنيئاً، ثم أمسك رينسوينا من الوشاح الذي على رقبته ورفعها عالياً، وبحركة هائلة وشجاعة وضعه على كتفه.

ثم قال حازماً: «سنذهب. ولو قابلنا الجد القديم سأحاول أن أشرح له...».

على بُعد ما يزيد على ثلاثة كيلومترات، قطع صفٌ من الخيول الليل خبيًا. وكان ثلاثة من بينهم يحملون الأسرى، مكمي الأفوه ومربوطي الأجساد بإحكام. والرابع يجر عربة الترافوي البدائية الصلبة التي يستلقي عليها المتاع مربوطًا وملفوفًا بشبكة الصيد وصامتًا.

نادت هيرينا قافلتها بصوت رقيق ليتوقفوا واستدعت أحد رجالها إليها، وسألته: «هل أنت متأكد تمامًا؟ فلا يمكنني سماع أي شيء».

قال بنبرة فاترة: «لقد رأيت هيئات الترول».

تلفتت حولها فوجدت أن كثافة الأشجار قد تقلصت، وتباعدت الأشجار في ما بينها هناك، وكان هنالك الكثير من ركام الحجارة، وانتهى المسار الممتد أمامهم إلى تلة جرداء صخرية بدت مخيفةً بغیضةً خاصةً تحت ضوء النجم الأحمر.

انتابها قلق حيال هذا المسار. فقد كان قديمًا جدًا، لكن شيئًا ما قد صنعه، وكائنات الترول عنيدة وتصعب مواجهتها.

تنهدت وبدا لها فجأة كأن مهنة أمانة السر تلك لم تكن خيارًا بالغ السوء، كذلك.

لم تكن هذه المرة أول مرة تفكرت في أن هنالك الكثير من العوائق لتكون مقاتلة بالسيف، وأبرزها هي أن الرجال لا يأخذونك على محمل الجد حتى تقتلهم فعليًا، وحينها لا يكون للأمر أهمية كبيرة. ثم، إن المهنة تتضمن ارتداء الكثير من الجلود ما يسبب لها طفحًا جلدًا، لكنه يبدو أمرًا تقليديًا عصيًا على المخالفة. ثم يوجد شراب المزر. وهو ما كان شيئًا لا بأس به لأمثال هرون البربري أو سيمبار القاتل المأجور للاحتفال بصخب طوال الليل في الحانات الوضيعة، لكن هيرينا قد قطعت على نفسها عهدًا بالمنع إلى أن يبيعوا مشروبات مناسبة في

كؤوس صغيرة، ويُفضل لو تحتوي على الكرز. أما عن مرافق دورات المياه...

لكنها كانت ضخمة كفاية لأن تكون لصة، ومستقيمة كفاية لأن تكون قاتلةً مأجورةً، وذكيةً كفاية لأن تكون زوجة، وأبيّةً كفايةً لأن تدخل المهنة الأنثوية الأخرى الوحيدة المتاحة عامّةً.

لذا فقد أصبحت مقاتلةً بالسيف، وقد برعتُ في ذلك، حاصدة ثروة متواضعة كانت تدبرها لمستقبل لم تخطط له بعد لكنه سيتضمن بالتأكيد مرحاضًا بشطاف، لو كان لها أن تذكر شيء عن المستقبل.

كان هنالك صوت بعيد لتَشَطِّي الخشب. كان هذا ناتجًا عن عدم فهم كائنات التروول مطلقًا للمغزى من المشي حول الأشجار لذا فقد كانوا يمشون فوقها.

عاودت النظر عاليًا إلى التلة، فوجدتُ ذراعين طويلتين منحوتتين من الأرض العالية تمتدان إلى اليمين والشمال، وإلى الأمام بالأعلى كان ثمة نتوء صخري كبير به -زَرَّتْ عينيها- بعض الكهوف؟

كهوف التروول، لكنّ ربما يكون خيارًا أفضل بدلًا من أن يهيموا على وجوههم في الأرجاء ليلاً. وعند بزوغ الفجر، فلن تكون ثمة مشكلة.

مالت ناحية جانسيا، قائد عصابة مرتزقة موربورك. ولم تكن مسرورة منه أيّما سرور، وصحيح أنه تمتع بعضلات وقوة تحمّل ثور، لكنّ المشكلة كانت في أنه يبدو أن له عقلَ ثور ووحشية نمس. وشأنه شأن معظم الشُّبَّان في قلب مدينة موربورك، فقد يبيع جدته بكل سرور مقابل الغراء، وعلى الأرجح قد فعل.

فقالت: «حسنًا سنتجه إلى الكهوف ونشعل النيران في مداخلها، فمخلوقات التروول لا تحب النيران».

حدجها بنظرة أوحَتْ بأن له آراءه الشخصية بخصوص مَنْ يجب أن يُملَى عليه الأوامر، لكنَّ شفّتيه قالتا: «أنت الزعيمة».

- صحيح.

نظرت هيرينا إلى الخلف إلى الأسرى الثلاثة، وتأكّدت من أن الصندوق على ما يرام، فقد كان وَصَف تريمون دقيّقا جدًّا. لكنَّ لا أحد من الرجال بدا أن له هيئة ساحر، ولا حتى ساحر مُخْفِق.

قال كوارتز: «آه، يا عزيزي».

توقفت كل مخلوقات التروول. وأرّخى الليل سدوله المخملية المحكمة. ونعقت بومة ما نعيقًا مخيفًا، على الأقل افترض رينسوينا أنها كانت بومة، فلم يكن ضليعًا في علم الطيور. وربما كان الذي نعق عندليبًا ما، إلا لو كان طائر السُّمنة. ورفرف وطواط من فوق رؤوسهم وكان متأكّدًا من أنه وطواط.

ثم إن التعب قد بلغ به مبلغًا كبيرًا وانتشرت على جسمه الكدمات والرضوض.

فسأل: «لم، آه يا عزيزي؟».

ودقَّق النظر في العتمة، فوجد أن هناك أثرًا ما بعيدًا في التلال قد يكون علامة على وجود نار، فقال: «أوه، لا تحبون النيران، أليس كذلك؟». فأوماً كوارتز، وقال: «إنها تدمر قدرة عقولنا الموصّلية الفائقة، لكنَّ نازًا بهذا الحجم الصغير لن يكون لها أدنى تأثير في جدنا القديم».

جال رينسوينا بنظره في الأرجاء بحرص، مُصغيًا إلى صوت مخلوق تروول مخادع. ولقد رأى بأم عينيه ما في إمكان مخلوقات التروول العادية فعله في غابة ما. فلم يكن إحداث الخراب من طبيعتهم، بل كانوا

يتعاملون مع الأشياء الطبيعية كنوع من الضباب المزعج الذي يعيق رؤيتهم فحسب.

فقال في حماس شديد: «لنأمل ألا يكتشفها إنن».

زفر كوارتز، وقال: «لا نؤمل كثيرًا في هذا. فقد أشعلوها في فمه».

تأوه كوهين قائلاً: «هشا عقاب لي!». وراح يحاول الافلات من وثاقه بلا جدوى.

نظر إليه توفلاور في حيرة إذ قد سبّب له مقلع جانسيا ورمًا في الجزء الخلفي من رأسه، وأصابه التخبط والحيرة لدرجة أفقدته معنى الأشياء، أولها اسمه وحتى أبسط الأشياء.

قال كوهين: «تعيّن عليّ الإنشات، وتعيّن عليّ الانتباه ولا أتشتت بكل هشا الكلام عن أشياءك أيًا كان اسمها، ماضغتك المشعجة⁽¹⁾. لا بدّ أنني تشاهلت».

ورفع نفسه بالاستناد إلى كعبيه. وكانت هيرينا وبقية العصابة يتحلقون حول النار في مدخل الكهف. وكان المتاع لا يزال في صمته وسكونه يرزح تحت الشباك في الزاوية.

قالت بيثان: «ثمة شيء غريب بخصوص هذا الكهف».

فردّ كوهين: «مَاشا؟».

- حسنًا، انظر إليه. أسبق أن رأيت صخورًا كهذه من قبل؟

وأتفق كوهين بلا ريب أن الأحجار شبه الدائرية التي تحيط بمدخل الكهف كانت غير عادية؛ كل واحدة يزيد طولها عن طول رجل ومتآكلة

(1) يقصد كوهين قول طقم أسنان، لكنه لفقدانه أسنانه ينطقها على نحو خاطئ فتعطي معنى آخر. (الترجمة)

بشدة ولامعة لمعاناً باهرًا. وكان ثمة شبه دائرة مماثلة في السقف. وكان المظهر الكلي يوحي بأنه لحاسوب صخري بناه كاهن درويد له معرفة مشوبة بعلم الهندسة الرياضي ولا حس عنده بالجابية.

- انظر إلى الجدران كذلك.

زرَّ كوهين عينيه ناظرًا على الجدار المجاور له، فرأى أوردَةً بها كريستال أحمر. ولم يكن متيقنًا تمامًا من هذا، لكن كان الأمر أشبه بوجود نقاط صغيرة من الضوء راحتْ تومض وتنتفضي في أعماق الصخرة نفسها.

كما هبتْ تيارات هوائية، وهبَّ نسيم متواصل خارجًا من أعماق الكهف المظلمة.

همست بيثان قائلة: «أنا متأكدة أنه كان يهب في الاتجاه الآخر عند دخولنا، ما قولك يا توفلاور؟».

ردَّ توفلاور: «حسنًا، أنا لست خبير كهوف، لكنني أظن فحسب أن ذاك الشيء المسمى بصواعد الكهوف⁽¹⁾ المتدلّية من السقف هناك مثيرة للاهتمام، إن لها شكلًا بصليًا، أليس كذلك؟».

فنظرا إليه.

وقال توفلاور: «لا أستطيع حقًا أن أفهم سبب شعوري، لكن أعتقد أنه ربما يكون رأيًا سديدًا جدًّا لو خرجنا من هنا».

ردَّ كوهين ساخرًا: «آه، أجل. أشنُّ أنه يُفضَّل أن نشأل هؤلاء الناش أن يفكوا وشاقنا ويتركونا نرحل، أليس كشك؟».

(1) الصواعد تكون في أرضية الكهف، والنوازل تكون في سقفه، وهنا قد خلط توفلاور بينهما. (الترجمة)

لم يكن كوهين قد قضى الكثير من الوقت بصحبة توفلاور، وإلا لم يكن ليتفاجأ عندما أوماً الرجل الصغير مبتهجاً وقال بصوته العالي البطيء الحذر الذي يستخدمه كبديل للتحدث إلى الناس بالطريقة التي تناسبهم في الواقع: «عذراً؟ هل يمكنكم أن تفكوا وثاقنا وتتركونا نذهب؟ فالمكان هنا رطب جدًّا وبه الكثير من التيارات الهوائية. معذرة».

نظرت بيثان نظرةً جانبيةً إلى كوهين.

- أكان مفترضًا به أن يقول هذا؟

- إنه أمر جديد ومختلف كليًّا، أوافقكِ الرأي.

وفعلًا ترك ثلاثة أشخاص المجموعة التي كانت تجلس حول النار وأتوا تجاههم. ولم يبدو عليهم أن في نيتهم فكًّا وثاق أيٍّ أحد. في الواقع، بدا الرجلان من النوع الذي إن رأى أشخاصًا آخرين مربوطين، فسيشرعون في العبث بالسكاكين وطرح اقتراحات بغیضة ويكثرون من نظراتهم المريبة.

أثبتت هيرينا حضورها باستلال سيفها وتوجيهه إلى قلب توفلاور، وسألت: «أي منكم هو رينسوينا الساحر. كان هنالك أربعة خيول، هل هو هنا؟».

أجابها توفلاور: «اممم، لا أعرف أين يكون، كان يبحث عن بعض البصل».

- إذن أنتم أصدقاؤه وبدوره سيأتي للبحث عنكم.

وحدقت إلى كوهين وبيثان، ثم نظرت إلى المتاع من كئيب.

كان تريمون حازمًا في تأكيده عليهم ألا يلمسوا المتاع، قد يكون الفضول قتل القط، لكنَّ فضول هيرينا كان بإمكانه نبح زمرة من الأسود.

فشَقَّت الشُّبَاك وأمسكت بغطاء الصندوق.

جَفَل توفلاور.

وقالت في نهاية المطاف: «مقفل، أين المفتاح أيها البدين؟».

فقال توفلاور: «إنه.. إنه ليس له مفتاح».

فأشارت قائلة: «ثمة ثَقْب مفتاح».

فقال توفلاور مضطربًا: «حسنًا، أجل، لكنه إذا أراد أن يبقى مقفلًا،

فسيبقي مقفلًا».

كانت هيرينا مدركةً ابتسامَةً جانسيا، فزمجرتُ غاضبة.

وقالت: «أريد فتحه، جانسيا، احرص على فعل ذلك». ومشتُ بخطى

واسعة مرة أخرى إلى النيران.

استل جانسيا خنجرًا طويلًا رقيقًا ومال إلى الأسفل مقتربًا من وجه

توفلاور.

وقال: «إنها ترغب في فتحه». ورفع نظره إلى الرجل الآخر وابتسم.

- إنها ترغب في فتحه يا وييمس.

- أجل.

فلوَّح جانسيا بسكينه ببطء أمام وجه توفلاور.

قال توفلاور متأنياً: «انظر، لا أظن أنك تفهم. لا سبيل لأحد أن يفتح

المتاع لو أنه متقمصٌ مزاج الإقفال».

قال جانسيا متفكرًا: «أه أجل، لقد نسيْتُ. طبعًا، إنه صندوق سحري،

أليس كذلك؟ يقولون إن له أرجلًا صغيرة. لكنني أقول، هل ثمة أرجل في

ناحيتك يا وييمس؟ أليس كذلك؟».

وَبُتَّتْ سَكِينَهُ عَلَى حَلْقِ تُوْفَلَاوْرَ، وَقَالَ: «أَنَا فِي غَايَةِ الْإِحْبَاطِ بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ، وَوَيِيْمِسُ كَذَلِكَ. وَهُوَ لَا يَتَكَلَّمُ كَثِيرًا، بَلْ أَفْعَالُهُ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَهُوَ يَمِزُقُ النَّاسَ إِرْبًا إِرْبًا. لَذَا، افْتَحْ -ال- صَنْدُوقًا!».

وَاسْتَدَارَ وَسَدَدَ رَكْلَةً فِي جَانِبِ الصَنْدُوقِ، تَارِكًا شَرْحًا شَدِيدًا بِشَعِ الْمَنْظَرِ فِي خَشْبِهِ.

ثُمَّ أَتَى صَوْتَ طَقْطَقَةٍ بَسِيْطٍ.

فَابْتَسَمَ جَانِسِيَا. انْفَتَحَ الْغَطَاءُ إِلَى الْأَعْلَى بِبِطْءٍ، بِطَرِيقَةٍ مَمْلَةٌ جَدًّا. تَلَأَلَتْ أَضْوَاءُ النَّيْرَانِ الْبَعِيدَةِ عَلَى الذَّهَبِ، الْكَثِيرِ مِنَ الذَّهَبِ، فِي أَشْكَالِ أَلْوَاحٍ وَسَلْسَلٍ وَعَمَلَاتٍ، وَبَدَأَ الذَّهَبُ ثَقِيْلًا مَتَلَأَلْنَا فِي الْعَتَمَةِ الْمَتَقَطَّةِ بَيْنَ الظَّلَامِ وَالضُّوْءِ.

وَقَالَ جَانِسِيَا بَرَفَقًا: «حَسَنًا».

وَنَظَرَ إِلَى الرِّجَالِ غَيْرِ الْمَكْتَرِثِينَ لِلْأَمْرِ الْجَالِسِينَ حَوْلَ النَّيْرَانِ، وَبَدَأَ أَنَّهُمْ يَهْتَفُونَ بِأَحَدِهِمْ خَارِجَ الْكَهْفِ. ثُمَّ رَجَعَ يَنْظُرُ إِلَى وَيِيْمِسَ مَحَاوِلًا تَخْمِينِ شَيْءٍ مَا. وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ بِلَا صَوْتٍ بِجَهْدٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ يَبْذُلُهُ أَحَدَهُمْ فِي عَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِ الذَّهْنِيِّ.

فَخَفَضَ نَظْرَهُ إِلَى سَكِينِهِ.

ثُمَّ تَحَرَّكَتِ الْأَرْضُ.

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «لَقَدْ سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ، هُنَاكَ فِي الْأَسْفَلِ، بَيْنَ الِ -آه- صَخُورًا».

وَصَدَحَ صَوْتُ رَيْنَسُوِيْنِدٍ عَالِيًّا مِنْ قَلْبِ الظَّلَامِ.

وَقَالَ: «يَا أَنْتُمْ».

قالت هيرينا: «ماذا؟».

هتف رينسوينا قائلاً: «أنتم في خطر محقق! عليكم إطفاء النيران!».

قالت هيرينا: «كلا، لا. لقد أخطأت فهمي، أنت الذي في خطر محقق.

وستبقى النار مشتعلة».

- ثمة ترول قديم مُسنٌ وضخم...

فقالت هيرينا: «معروف للجميع أن مخلوقات التروال تتحاشى

النيران. وأومات لرجلين فأتيا مستلّين سيوفهما وتسلا في الظلام.

هتف رينسوينا بياس: «صحيح تمامًا! إلا هذا التروال بعينه لا

يستطيع، كما ترين».

قالت هيرينا مترددةً: «لا يستطيع؟». ومسّها شيء من الخوف الكامن

في صوت رينسوينا.

- أجل، لأنك كما ترين قد أوقدتها على لسانه.

ثم تحركت الأرض.

استيقظ الجدُّ القديم ببطء من نومته التي دامت قرونًا. ولم يكن قد

استيقظ تقريبًا من قبل، وفي الحقيقة بعد مُضي بضعة عقود، لم يكن

ليحدث أي من هذا. فعندما تتقدم مخلوقات التروال في العمر وتشرع في

التفكير بجدية في ماهية الكون، فإنها تبحث عن مكان هادئ وتكرس

نفسها للتفلسف الجاد، وبعد مدة تبدأ في نسيان أطرافها. ثم تأخذ في

التبلور من عند الحواف حتى لا يبقى من أثرها شيء إلا رفق بسيط من

الحياة بداخل تلة كبيرة جدًا عليها طبقة غريبة من الصخور.

وحتماً لم يصل الجد القديم إلى هذا الحد، فقد أفاق من تساؤل مُبشر
جداً عن معنى الحقيقة ثم وجد طعم رمادٍ ساخن في الشيء الذي تذكّر
أنه فمه، بعد تفكّر طويل طبعاً.

فبدأ يشعر بالغضب، وانسابت الأوامر على طول المسارات العصبية
في السيليكون غير الخالص. ففي أعماق جسده السيلكي، انزلقت
الحجارة بسلاسة على طول خطوط صدوع معينة. وانقلبت الأشجار
وتفرق العشب فيما تنبسط أصابع بحجم سفن البحار وتمسك بالأرض.
وأشار المنزلقان الصخريان الضخمان في أعلى وجه الجرف إلى تفتُّح
عينيه اللتين مثل حجري أوبال عتيقين كبيرين.

ولم يستطع رينسويند رؤية كل هذا طبعاً، إذ إن عينيه كانتا تبصران
المشكلات الموجودة في وضوح النهار فحسب، لكن بلا شك قد رأى الأفق
الذي يلفه السواد يهتز من تلقاء نفسه ببطء ثم راح يعلو تجاه النجوم
بصورة يصعب وصفها.

أشرقت الشمس.

ورغم ذلك فلم يبرز ضوء الشمس. وكان ما جرى أن ضوء الشمس
المعروف في القرص والذي، كما سبق بيانه، ينتقل ببطء كبير خلال
الحقل السحري القوي للقرص، انساب برفق فوق الأراضي المحيطة
بالحافة واستهلَّ معركته الهادئة الصامتة ضد جيوش الليل المتقهقرة.
وانسكب الضوء مثل الذهب المصهور⁽¹⁾ على الأفق الناعس مشرقاً
وصافياً وقبل كل شيء بطيئاً.

(1) * ليس على وجه الدقة بالطبع. فلا تشتعل الأشجار باللهب فجأة، ولا الناس
يستيقظون في الصباح يجدون أنفسهم أثرياء ولا يفتك بهم الموت على حين غرة، ولا
تتحول البحار إلى بخار في غمضة عين. وفي الواقع سيكون تشبيهه "لا يشبه الذهب
المصهور" تشبيهاً أفضل. (المؤلف)

ولم تتردُّ هيرينا لحظةً، فبحضور عقل تام، جرتُ إلى حافة الشِّفة السفلية للجد القديم وقفزت وراحت تتقلب عند ارتطامها بالأرض. وتبعها الرجال وهم يطلقون ألسنتهم بالسباب هابطين في الحطام. وكرجل بدين يحاول أداء تمارين الضغط بالرفع إلى الأعلى، دفع الترول القديم نفسه ليقف مستقيمًا.

لم يكن هذا المشهد ظاهرًا من حيث المكان الذي كان يستلقي فيه الأسرى. وجلُّ ما عرفوه هو أن الأرضية استمرت في التقلب من تحتهم وأن هنالك جلبة كثيرة متعالية ومستمرة، وكان أغلبها تعافه الأذان. أمسك وييمس بذراع جانسيا.

وقال له: «إنه زلزال، لنخرج من هنا!».

ردَّ جانسيا: «ليس من دون هذا الذهب».

- ماذا؟

- الذهب، الذهب. قد نغدو أثرياء مثل كريوسوت⁽¹⁾!

ربما يتمتع وييمس بمعدل نكاه مثل معدل درجة حرارة الغرفة، لكنه يعرف الحماسة عندما يلمحها. كانت عينا جانسيا أكثر لمعانًا من الذهب، وبدا كأنه يحدق إلى أذن وييمس اليسرى.

نظر وييمس في يأس إلى المتاع. وكان المتاع لا يزال مفتوحًا بطريقة مغرية، وهو ما كان أمرًا غريبًا كان المرء ليظن أن كل تلك الاهتزازات كفيلة بأن تصفق الغطاء وتغلقه.

فاقترح قائلاً: «لن نحمله أبدًا». وأضاف: «فهو ثقيل جدًّا».

(1) شخصية تُذكر في الأجزاء التالية من السلسلة يُعرف عنه أن أي شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، قد تكون هذه إشارة إلى الملك كرويسيوس، ملك ليديا المشهور بثروته الطائلة. (الترجمة)

صرخ جانسيا قائلاً: «تَبًّا، سنحمل بعضه!». وقفز تجاه المتاع فيما تعاود الأرض الاهتزاز.

أطبق المتاع غطاءه وأغلق، ثم اختفى جانسيا.

وتحسباً لو ظن وييمس أن الأمر كان حادثاً عرضياً، فتح المتاع غطاءه سريعاً ثانية، لحظة واحدة فحسب، ثم خرج لسان كبير أحمر كخشب الماهوجني يلحق أسناناً عريضة بيضاء كبياض شجر الجميز. ثم أقفل بسرعة مجدداً.

ومما زاد الرعب في نفس وييمس أنه انبثقت مئات الأرجل الصغيرة من أسفل الصندوق. وقام بكل عزم على أرجله قاصداً إظهارها ثم رَتَّب أقدامه في حرص ومشى مسرعاً ليوأجهه. كانت ثمة نظرة حاقدة جداً حول ثَقْب مفتاحه، تلك النظرة التي تقول 'هيا، أسعد يومي...'.
تراجع مبتعداً ونظر إلى توفلاور نظرة توسل.

فقال توفلاور مقترحاً: «أظن أنها قد تكون فكرة سديدة لو فككت وثاقنا. يصبح المتاع في غاية الود واللطف حالما يتعرفك».

لحق وييمس شفثيه مضطرباً ثم استلَّ خنجره. فأصدر المتاع صريراً بنبرة محذرة.

راح وييمس يقطع الأحبال التي تقيدهم ووقف متراجعاً سريعاً.

قال توفلاور: «شكراً لك».

وقال كوهين يشكو آلامه فيما تساعده بيثان على النهوض: «أعتقد أن شهري يؤلمني مجدداً».

فسألته بيثان: «ما الذي عليّ فعله مع هذا الرجل؟».

فقال كوهين: «نشتولي على خنجره ونأمره بأن يغرب عن وجهنا، أليش كشك؟».

فقال وييمس: «أجل، يا سيدي! أشكرك يا سيدي!»، ثم فرَّ هاربًا تجاه مدخل الكهف. وللحظة وجيزة ظهر في أفق السماء الرمادية التي تسبق مطلع الفجر، ثم اختفى. وتلا ذلك صرخة «آآآآه» بعيدة.

هَدَرَ ضوء الشمس في صمت خلال الأراضي كموجة مُتَكَسِرَة. وسبقتُ السنة الصباح النهار في نواحٍ متفرقة حيث كان الحقل السحري أضعف نوعًا ما، تاركًا جُزُر الليل المنعزلة التي انكشفت وتقلصت بفعل تدفق المحيط الباهي إلى الداخل.

وبرزت الروابي التي تحيط سهول الدَّوامة أمام المد المتقدم مثل سفينة رمادية كبيرة.

من الممكن طعن مخلوق الترول، إلا أن طريقة فعل ذلك تتطلب التمرس والتدريب ولم تتسنَّ الفرصة لأحد للتدرب أكثر من مرة واحدة. ورأى رجال هيرينا مخلوقات الترول وهي تلوح في الأفق في ظلمة الليل مثل أشباح ذات أجسام شديدة الصلابة. وتهشمت السيوف في اصطدامها بالجلد السيلكي، وتعالَت صيحة واحدة أو صيحتان قصيرتان رتيبتان، ثم لم يُسَمَع المزيد إلا صرخات من بعيد في قلب الغابات وهم يباعدون المسافة قدر الإمكان بينهم وبين الأرض المنتقمة.

تسلل رينسوينا من خلف شجرة ونظر حوله. كان وحيدًا، لكنَّ الشجيرات من خلفه راحت تُصدر حفيفًا وخشخشةً جراء سعي مخلوقات الترول وراء العصاة بخطى ثقيلة.

فنظر إلى الأعلى.

ومن الأعلى، صَبَّتْ عيناں بلوريتان كبيرتان كراهيتهما على كل شيء رقيق وطيني وقبل كل شيء دافئ. فانكمش رينسوينا مرتعبًا لأن يدا بحجم منزل ارتفعت عاليًا وتكورت في شكل قبضة وسقطت تجاهه.

حلَّ النهار صاحبًا معه انفجارًا صامتًا للضوء. وللحظة، غدت الكتلة المرعبة الكبيرة للجد القديم كحاجز أمواج مكون من الظلال فيما يتدفق ضوء النهار متخطيًا ذاك الحاجز. ثم سمع صوت سحق وجيز. هبط الصمت على المكان.

مرت بضع دقائق، ولم يحدث أي شيء.

أخذت بعض الطيور تغرد، والنحلة الطنانة تطنُّ على جلمود صخر كان سابقًا قبضة الجد القديم ثم حطت على رقعة من الزعتر قد نما تحت ظفرٍ حجري.

كانت هنالك حركة سريعة ومرتبكة في الأسفل. وانزلق رينسوينا خارجًا من الفجوة الضيقة التي كانت بين القبضة والأرض كثعبان يغادر جحره.

استلقى رينسوينا على ظهره، محدقًا إلى صفحة السماء بعيدًا عن جسم التروال المتجمد. لم يتغير التروال بأي شكل، بصرف النظر عن السكون، فإن العين راحت تلعب الألاعيب. ففي الليلة الماضية نظر رينسوينا إلى الشقوق التي في الحجارة وشاهدها وهي تتحول إلى أفواه وأعين، ونظر في هذه اللحظة إلى الوجه العظيم الذي على شكل جرفٍ ورأى أنه قد غدا، بمفعول السحر، مجرد علامات في سطح الصخرة. قال: «عجيبًا!».

ولم يبدُ أن هذا قد ساعده على إدراك الأمر. فوقف ورفض الغبار عن نفسه ونظر حوله. وبخلاف النحلة الطنانة، فقد كان وحيدًا تمامًا.

وبعد أن طاف المكان مدةً وجيزة بحثًا عن أي شيء يعرفه، وجد
صخرة بدت مثل بريل من زوايا معينة.

كان تائهاً ووحيدًا وبعيدًا عن دياره. كان...

جاء صوت انسحاق من فوقه وتناثر فتات صخور على الأرض.
وظهرت فتحة في الأعلى في وجه الجد القديم؛ لاح من هنالك لمحة
وجيزة من الجانب الخلفي للمتاع في محاولته الصعبة لتثبيت أقدامه
مرة أخرى، ثم برز رأس توفلاور من مدخل الكهف.

- هل من أحد بالأسفل؟ مرحبًا؟

صاح الساحر قائلًا: «أهلاً!، كم أنا سعيد برؤيتك!».

سأله توفلاور: «لا أعرف. هل أنت كذلك؟».

- أنا ماذا؟

- يا إلهي، ثمة مشهد بديع يلوح من الأعلى هنا!

استغرق الأمر منهم نصف ساعة كي يتمكنوا من النزول. ومن حسن
الحظ أن الجدَّ القديم كان به الكثير من الجروف والعديد من المواضع
التي يمكن للمرء التشبث بها، غير أن أنفه كان ليشكل عائقًا صعبًا لولا
شجرة البلوط الوارفة التي ترعرعت في أحد خيشوميه.

ولم يعب المتاع بالتسلق، بل قفز قفزة واحدة وشقَّ طريقه إلى
الأسفل دون أن يلحق به أي أذى ظاهر.

جلس كوهين في الظل، محاولًا التقاط أنفاسه ومنتظرًا عقله الراجح
أن يلحق به. وراح يمعن في النظر إلى المتاع متفكرًا.

قال توفلاور: «لقد فقدنا كل الخيول».

ردَّ كوهين: «شجدها». وراحت عيناه تحديقان إلى المتاع، الذي بدأ يشعر بالحرَج.

قال رينسويند: «لقد كانت تحمل كل طعامنا».

- هنالك الكثير من الطعام في الغابات.

قال توفلاور: «لديّ بعض البسكويت المُغذي في المتاع. بسكويت سهل الهضم للمسافر. لطالما يكون سلواناً في المواقف الصعبة».

علق رينسويند: «لقد جربته، إن حوافه قاسية، وكذلك...».

وقف كوهين جافلاً.

وقال بصوت رتيب: «أشتميحكم عُشرًا هنالك شيء عليّ معرفته».

ومشى إلى المتاع وأمسك بغطائه. فتراجع الصندوق إلى الوراء سريعًا، لكنَّ كوهين مدَّ قدمه النحيلة وعرقل نصف أرجل المتاع. وبينما يلتف المتاع ليقفل غطاءه عليه بسرعة خاطفة، كزَّ كوهين أسنانه وزفر جاذبًا المتاع سريعًا من غطائه حيث راح الصندوق يهتز ويتأرجح في غضبٍ مثل سلحفاة برية غاضبة.

فقال توفلاور: «مهلاً، هذا متاعي! لم يُهاجم متاعي؟».

قالت بيثان في هدوء: «أظن أنني أعرف. أظن أنه خائف منه».

التفت توفلاور إلى رينسويند، فاغراً فاه. فهزَّ رينسويند كتفيه، وقال:

«لست أدري، فأنا أفرُّ من الأشياء التي أرتعب منها، أتحدث عن ذاتي».

اندفع المتاع في الهواء مغلقًا غطاءه في حركة خاطفة وفرَّ هاربًا، ما جعل إحدى زواياه النحاسية تصيب كوهين بقرعة في قصبتي ساقه. وبينما يستدير الصندوق وقعت يد كوهين عليه فأحكم قبضته عليه وقتاً طويلاً بما يكفي حتى انطلق المتاع مندفعًا واصطدم في صخرة.

علق رينسويند مبدياً إعجابه: «ليس سيئاً».

ترنح المتاع إلى الوراء وتوقف لحظةً ثم توجه إلى كوهين وهو يلوح بغطائه مهددًا إياه. فقفز كوهين ونزل فوقه، وكانت يده وقدماه بين الفجوة التي بين الصندوق والغطاء.

كان هذا فعلًا أربك المتاع، وما زاد زهوله هو أن كوهين قد أخذ نفسًا عميقًا ثم زفره، وبرزت عضلاته في ذراعيه النحيلتين مثل جورب مليء بحبات جوز الهند.

وبقيا هنالك بلا حراك بعض الوقت، وتر كوهين يواجه مفصل المتاع. وراح أحدهما بين حين وآخر يصدر صوت صرير.

لكزت بيثان توفلاور بمرفقها في أضلعه، وقالت: «افعل شيئًا». فقال توفلاور: «اممم، أجل. يكفي هذا على ما أظن. أنزله أرضًا من فضلك».

أصدر المتاع صريرًا بنبرة توحى بالخيانة عند سماع صوت سيده. وارتفع غطاؤه بقوة بالغة لدرجة جعلت كوهين ينقلب إلى الوراء، لكنه نهض على قدميه ورمى بنفسه تجاه الصندوق. فانكبت محتوياته خارجه.

مدَّ كوهين يده إلى داخل المتاع. صرَّ المتاع قليلًا، لكنه كان قد وازن سابقًا فرص إرساله إلى أعلى تلك الخزانة العظيمة في السماء. ولما وجد رينسويند من نفسه الجرأة ليختلس النظر من بين أصابعه، كان كوهين ينظر إلى المتاع بإمعان ويشتم في سره.

وهتف متعجبًا: «غسيل؟ هل هذا كل ما في الأمر؟ مجرد غسيل؟». وكان يشتاظ غضبًا.

ردّ توفلاور بصوت هادئ يشوبه ارتياب: «أظن أن هنالك بعض البسكويت كذلك».

قال كوهين وهو ينظر إلى رينسوينا متوسلاً: «لكن كان هنالك شهب! ورأيتُه بناشري وهو يأكل أحدهم!».

فتنهذ الساحر، وقال: «لا تسألني، فلستُ مالِكًا ذاك الشيء اللعين». ردّ توفلاور مدافعاً: «لقد ابتعته من متجر ما، لقد قلتُ لهم أريد صندوق سفر».

علق رينسوينا: «وهذا ما حصلتُ عليه، جيد».

قال توفلاور: «إنه مخلص جدًّا».

وافقه رينسوينا قائلاً: «أوه، أجل. لو أن الإخلاص هو السمة التي تبحث عنها في الحقيبة».

قال كوهين الذي استراح على صخرة: «مهلاً، أكان واحداً من تلك المتاجر، أقشد، أَسُنُّ أنك لم تلاحشه من قبل ثم بعدما عدتُ مجدداً لم يكن موجوداً هناك؟».

تهلل وجه توفلاور، وقال: «هذا صحيح!».

- أكان صاحب المتجر شيخاً واهناً شغير البنية؟ والمتجر مليء بالأشياء العجيبة؟

- بالضبط! ولم أستطع إيجاداه مجدداً، وقد ظننتُ أنه لا بدُّ أني قد أخطأتُ الشارع، ولم أجدُ سوى حائط من الطوب حيث ظننتُ أن المتجر موجود هناك. وأتذكر أني أعتقدت في هذا الوقت أنه كان...

هَزَّ كوهين كتفيه، وقال: «إنه متجر من تلك المتاجر⁽¹⁾». هَشا يوضح الأمر إشن». وتحسس ظهره وتلوى وجهه، وأردف: «هرب الحُشان اللعين بمرهمي!».

تذكر رينسوينا شيئاً، فراح يبحث في أعماق ثوبه الممزق والذي قد أصبح الآن متسخاً، ثم رفع زجاجة خضراء.

فقال كوهين: «هَشا هو الشيء المطلوب. أنت أعجوبة». وراح ينظر شذراً إلى توفلاور.

وقال بهدوء: «كنت شأغلبه، حتى لو لم تأمره بوقف هجومه، كنت لأغلبه في النهاية».

وافقته بيتان: «هذا صحيح».

وأضاف كوهين: «أنتما الإشنان أريانا منكما نفعاً. لقد نجح هشا المتاع في اختراق شن التروول ليخرجنا. وكانت تلك الشن من الألاماش. انشرا لو بإمكانكما العشور على شكائم الخيل. فلدي فكرة بشأنها».

وبينما تشمر بيتان عن ساعديها وتزيل فلينة القنينة، أخذ رينسوينا توفلاورَ إلى أحد الجوانب. ولما أصبحتا خافيتين عن الأنظار بأمان خلف شجيرة، قال: «لقد أصابه الجنون».

قال توفلاور وهو في صدمة حقيقية: «هذا كوهين البربري الذي تتحدث عنه! إنه أعظم محارب قد...».

(1) * لا أحد يعرف السبب، لكنَّ أغلب الأغراض التي تكون غاية في الغرابة والسحر تُبتاع من متاجر تظهر ثم، بعد حياة تجارية كاملة أقصر حتى من عمر شركة تزجيج مزدوج، تختفي كالدخان. وكانت هنالك العديد من المحاولات لمحاولة وضع تفسير لهذا، والتي لم تعطِ تعليلاً كاملاً يستند إلى الحقائق المُدركة. وتظهر هذه المتاجر في أي مكان في الكون، ويُستنتج عدم وجودها الفوري في أي مدينة بعينها استنتاجاً طبيعياً من جموع الناس التي تجوب تلك الشوارع تُمسك بأغراض سحرية من زمن فات وبطاقات ضمان مزخرفة وتنتظر في ريبة إلى حائط من الطوب. (المؤلف)

قال رينسويند سريعًا: «كان. لقد مضت كل تلك الأشياء التي تخصص الكهنة المحاربين والزومبي آكلي البشر منذ سنين. فكل ما لديه الآن هو الذكريات والكثير من الندوب التي تُمكنك من لعب لعبة إكس أوه على جسمه».

فقال توفلاور: «إنه أكبر سنًا بكثير عما تخيلتُ، بالتأكيد». والتقط شظية من الألماس.

قال رينسويند: «لذا علينا أن نتركهما ونعثر على خيولنا ونمضي في طريقنا».

- تلك خدعة خبيثة نوعًا ما، أليس كذلك؟

فقال رينسويند بعاطفة بالغة: «سيكونان على ما يرام. المغزى هو، أستكون سعيدًا بصحبة شخص سيهاجم المتاع بيديه العزلاوين؟».

قال توفلاور: «هذا هو المغزى».

- يمكنهما أن يكونا أفضل حالًا من دوننا على أي حال.

- هل أنت متأكد؟

قال رينسويند: «تمام التأكد».

عثرا على الخيول تجوب الأرض التي تغطيها الحشائش بلا وجهة، فتناولوا فطورهما من لحم الخيل المُقدد سيئ التجفيف، وانطلقا تجاه ما يظن رينسويند أنه الوجهة الصحيحة. وبعد بضع دقائق، ظهر المتاع من بين الشجيرات وتبعهما.

ارتفعت الشمس عاليًا في كبد السماء، لكنها أخفقت في حجب ضوء النجم.

فسأل توفلاور: «لقد زاد حجمه بين عشية وضحاها. لم لا يفعل أي أحد شيئاً ما؟».

- مثل ماذا؟

فكر توفلاور، وقال: «ألا يستطيع أحدهم أن يخبر أتوين العظيم بأن يتفاداه؟ يدور حوله نوعاً ما؟».

- لقد جُرِّبَ هذا الأمر من قبل. لقد حاول السحرة مواكبة عقل أتوين العظيم ومعرفته.

- ألم يفلح الأمر؟

- أوه، لقد نجح الأمر تمامًا، إلا أن...

فسر رينسوينا الأمر، إلا إنه كانت هنالك أخطار مؤكدة غير متنبأ بها لقراءة عقل بعظمة سلحفاة العالم. وقد تدرَّب السحرة على السلاحف البرية والسلاحف البحرية العملاقة في مطلع الأمر، وذلك لمعرفة كيفية التعامل مع الطبيعة العقلية للسلاحف البحرية الخضراء، لكن رغم أنهم عرفوا أن عقل أتوين العظيم سيكون كبيراً، فإنهم لم يتوقعوا أنه سيكون بطيئاً.

قال رينسوينا: «هنالك ثلثة من السحرة عكفت على قراءته بالتبادل مدة ثلاثين سنة. وكل ما اكتشفوه أن أتوين العظيم يتطلع إلى شيء ما».

- ماذا؟

- من يعلم؟

وساروا في ركابهما والصمت يلفهما مدةً وجيزةً قاطعين دربهما في قُطرٍ وعرٍ حيث اصطفت كتل من الحجر الجيري على جانبي المسار. وفي نهاية المطاف، قال توفلاور: «علينا العودة، كما تعلم».

ردّ رينسويند: «انظر، سنصل إلى سمارل بحلول الغد. فلن يحدث لهم شيء هناك بالخارج، لا أعرف لم...».

كان يتحدث إلى نفسه، إذ إن توفلاور قد أدار حصانه وراح يسلك طريقه للعودة، وأخذ يُبدي كل مهارات الفروسية التي يتمتع بها جُوال بطاطا.

فخفض رينسويند بصره وبدوره فحصه المتاع بنظرة حادة مُعنة. فسأله الساحر: «إلآم تنظر، بإمكانه أن يقفل راجعًا لو أراد، ما شأنِي أنا؟».

لم يقل المتاع شيئًا.

قال رينسويند: «انظر، أنا غير مسؤول عنه. لنكُن واضحين غاية الوضوح بشأن هذا».

لم يقل المتاع شيئًا، لكن كان وقع هذا أعلى هذه المرة.

- اذهب، اتبعه. فلا علاقة لك بي.

أرجع المتاع سيقانه الصغيرة إلى الخلف وجلس في منتصف الطريق.

قال رينسويند: «حسنًا، أنا ذاهب». وأضاف: «بجدية».

وأدار رأس الحصان مرة أخرى تجاه الأفق الجديد، ونظر إلى الأسفل، فوجد المتاع جالسًا هنالك.

- لا جدوى من محاولتك استجداء طيبتي. بإمكانك المكوث هنا

طوال اليوم ولا أهتم لذلك. سأنتقل راحلاً، موافق؟

ورمق المتاع بنظرات غاضبة، فنظر إليه المتاع بدوره.

قال توفلاور: «ظننتُ أنك ستعود».

ردَّ رينسويند: «لا أريد الحديث عن الأمر».

- هل علينا التحدث عن أمر آخر؟

قال رينسويند: «أجل، حسناً، سيكون من الأفضل التناقش في كيفية

فك هذه الحبال». وراح يشد الحبال التي تقيده يديه ويلويها.

قالت هيرينا: «يستعصي على مخيلتي السبب الذي يجعلك مهمماً».

وجلست على الصخرة المقابلة لهما، وسيفها على ركبتيها. وكان أغلب

العصابة يستلقون بين الصخور في الأعلى، يشاهدون الطريق. لقد كان

رينسويند وتوفلاور فريسةً لكمين سهل مثير للشفقة.

وأضافت: «لقد أخبرني وييمس بما فعله صندوقك بجانسيا. لا

يمكنني قول إن هذه خسارة كبيرة، لكنني آمل أن يفهم أنه لو اقترب قدر

ذراع واحدة منا، فسأدق عنقيكما بنفسي، حسناً؟».

أوما رينسويند بقوة.

وقالت هيرينا: «جيد، أنتما مطلوبان حيئذٍ أو ميتئذٍ، ولا أهتم بأي

حالة منهما، لكنَّ بعض الرجال قد يريدون التناقش معكما وقتاً وجيزاً

عن مخلوقات التروول تلك. إن لم تطلع الشمس في موعدها...».

وتركت الكلمات عالقة، ومشت مبتعدة.

فقال رينسويند: «حسناً، ذاك وضع حرج آخر». وراح يشد الحبال

التي تربطه. كان من ورائه صخرة، ولو كان بمقدوره رفع معصميه...

أجل هكذا، وبينما يفكر، جرحته الصخرة التي كانت في الوقت نفسه

غير حادة فلم يكن لها أي تأثير في قطع الحبل.

سأل توفلاور: «لكن لم نحن؟ الأمر متعلق بالنجم، أليس كذلك؟».

أجابه رينسويند: «لا أعرف أي شيء عن النجم. ولم يسبق لي حتى أن حضرت دروسَ الفلك في الجامعة!».»

فقال توفلاور: «أتوقع أن كل شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف».

نظر رينسويند إليه. فدائمًا ما أربكته تلك الملاحظات.

وقال: «أتظن ذلك حقًا؟ أقصد، حقًا؟».

- حسنًا، في العموم تسير الأمور على نحو مُرضٍ، عندما تفكر في الأمر.

- لو كنتَ تعتقد أن الاضطراب التام في حياتي على مدار السنة الماضية أمرٌ مُرضٍ، فقد تكون مصيبًا. إذ إنني قد فقدت قدرتي على إحصاء المرات التي كدت ألقى حتفي فيها...

قال توفلاور: «سبعة وعشرون».

- ماذا؟

قال توفلاور بنية المساعدة: «سبعة وعشرون مرة. لقد نجحتُ في عدها، لكنك لم تفعل».

قال رينسويند الذي بدأ ينتابه الشعور المألوف بأن المحادثة قد سلبت منه: «ماذا؟ نجحت في ماذا؟».

- كلا، كونك لم تلقَ حتفك. ألا يبدو هذا مريبًا بعض الشيء؟

قال رينسويند: «لم أعترض على الأمر بتاتًا، إن كان هذا قصدك». ثم نظر إلى قدميه. لقد كان توفلاور محققًا، بلا ريب. كانت التعويذة تبقىهِ حيًّا، كان الأمر واضحًا جليًّا. فلا شك في أنه لو قفز من على جرف لتلقفته سحابة مارة.

وقد قرر رينسويند: أن معضلة هذه النظرية هي أنها تنجح حال عدم إيمانه بصحتها. ففي اللحظة التي يظن فيها أنه مُحصَّن ولا سلطة للموت عليه، فستلقفه المنايا.

لذا في مجمل الأمر، كان من الأحكم ألا يفكر في الأمر مطلقًا. فعلى أي حال قد يكون مخطئًا.

ولكنَّ الأمر الذي قد يكون متأكدًا منه، هو أنه كان يصاب بالصداع. وكان يحذوه أمل في أن تكون التعويذة في موضع ما من المنطقة المصابة بالصداع وتعاني حقَّ المعاناة.

لما خرجوا بجيادهم من الوادي، كان رينسويند وتوفلاور يتشاركان جوادين كل واحد منهما مع واحد من أسريهم. فجثم رينسويند بلا ارتياح أمام وييمس الذي لوى كعبه وكان مزاجه عكراً. وجلس توفلاور أمام هيرينا ما معناه أنه أبقى أذنيه دافئتين على الأقل لكونه قصيرًا للغاية. وركبتُ الجواد مُستلَّةً خنجرها ومبقيَّةً عينيها منتبهة لأي صناديق سائرة، فلم تخلص هيرينا إلى ماهية المتاع، لكنَّ كان لها من الذكاء الكافي الذي يجعلها تعرف أن المتاع لن يسمح لأحد بقتل توفلاور.

وبعد نحو عشر دقائق، رأوه في منتصف الطريق. وكان غطاؤه مفتوحًا بطريقة مغرية. وكان مليئًا بالذهب.

فقال هيرينا: «اسلكوا طريقكم من حوله».

- لكن...

- إنه فخ.

قال وييمس وقد شُحِب وجهه: «هذا صحيح. اسمعوا نُصحي».

قادوا خيولهم في تردد من حول الإغراء البراق وراحت الخيول تخبب على طول الطريق. التفتَ وييمس إلى الوراء خائفًا، متهيبًا من رؤية الصندوق يلاحقه.

لكنَّ ما وقعتُ عليه عينه كان أسوأ. لقد اختفى الصندوق.

وبعيدًا جدًّا على أحد جانبي الطريق، تحرك العشب الطويل بطريقة غامضة ثم سكن.

لم يرقَ رينسوينا إلى درجة الساحر ولا حتى المقاتل، إلا أنه كان خبيرًا في الجبن ويعرف الخوف عندما يشتم رائحته. فقال في هدوء: «سيتبعك، كما تعلم».

قال وييمس وقد بدا عليه التشتت: «ماذا؟». كان لا يزال يدقق النظر إلى العشب.

- إنه صبور لا يستسلم أبدًا. إن ما تتعامل معه هو خشب الكمثرى الحكيم. سيدعك تظن أنك قد غبت عن باله، ثم ذات يوم تسير في شارع معتم ستسمع تلك الأقدام الصغيرة من خلفك وستصدر صوت شلب شلب، ثم ستشرع في الجري وستُسرع من خطاها، شلبشلبشلب...

هتف وييمس: «أخرس!».

- قد يكون عرفكَ فعلاً، لذا...

- قلت أخرس!



telegram @
yasmeenbook

التفتت هيرينا وهي على سرجها وحدقت إليهما. تجهم وييمس وجذب أذن رينسوينا حتى صارت أمام فمه، وقال بصوت أجش: «أنا لا أهاب شيئًا، أتفهم؟ أغراض السحرة تلك لا أعبأ بها».

فقال رينسويند: «جميعهم يرددون هذا إلى أن يصل إلى أسماعهم وقع الخطوات». ثم توقف رينسويند إذ إن سنَّ الخنجر كان يَخِرْ ضلوعه.

لم يحدث شيء لبقية اليوم، غير أن المتاع قد أظهر نفسه عدة مرات، ما زاد من رضا رينسويند وذعر وييمس المتفاقم. فهو ههنا يجثم في مكان غريب على جرف، وهنالك يكون شبه مختبئ في قناة ما تنمو عليه الطحالب.

بحلول الظهرية وصلوا إلى قمة تلةٍ ونظروا إلى الأسفل إلى وادٍ فسيح في صعيد نهر سمارل، أطول نهر على وجه القرص. كان النهر بعرض ما يقرب من كيلومتر فعلاً عند هذا الموضع، وغنيًا بالظمي الذي جعل من أسفل الوادي المنطقة الأكثر خصوبة في القارة. ولفت خيوط من ضباب الصباح المبكر ضفافه.

قال رينسويند: «شلب». فشعر بوييمس ينتفض إلى الأعلى على سرجه.

- نعم؟

قال رينسويند: «أنا أتحنح فحسب». وابتسم ابتساماً أوحى بأنه تخطر له الكثير من الأفكار. كانت ذاك النوع من الابتسامات التي ترتسم على أوجه الناس عندما ينظرون إلى أذنك اليسرى ويخبرونك بنبرة ملحّة أن ثمة عملاء سريين من المجرة المجاورة يتجسسون عليهم. فهي لم تكن ابتساماً توحى بالثقة. ربما قد رأى المرء العديد من الابتسامات المرعبة، غير أنها لا تأتي إلا من المبتسم ذي اللون البرتقالي المرقط بخطوط سوداء وله ذيل طويل ويجوب الأدغال باحثاً عن فرائس ليبتسم لها.

قالت هيرينا مهولة بجوادها: «توقف عن الابتسام هكذا».

كان ثمة ميناء نفطي وجرس قرصي برونزي كبير حيث يؤدي الطريق إلى أسفل ضفة النهر.

قالت هيرينا: «سيستدعي الجرس رجل العبارة. لو عبرنا من هنا فيمكننا اختصار منحى كبير في النهر. وربما حتى نصل إلى بلدة ما الليلة».

بدأت أمارات التشكك تظهر على وييمس. وازدادت الشمس ضخامة واحمرارًا، وراح الضباب يتكاثف.

- أو ربما ترغبون في إمضاء الليلة في هذا الجانب من النهر؟

التقط وييمس المطرقة وضرب بها الجرس القرصي بشدة لدرجة أن القرص راح يدور حول حامله حتى انفصل عنه.

انتظروا في صمت. وانبتقت سلسلة من المياه مصحوبة بصوت قرقعة ثم شدت بإحكام على وتد حديدي موجود في الضفة. في نهاية المطاف، ظهر جسم العبارة المسطح بطيء الحركة من قلب الضباب، وأخذ قائد العبارة الذي تغطي رأسه القلنسوة يعلو ويهبط مع حركة الموج مستندًا إلى عجلة دفة كبيرة في منتصف العبارة فيما يشق طريقه تجاه الشاطئ.

حُكَّ قاع العبارة المسطح بالحصى، واستند الشخص ذو القلنسوة إلى عجلة الدفة وهو يلهث، وتمتم: «اشنين في كل مرة وكفى. اشنين فحشب، مع الأحسنة».

بلع رينسويند ريقه، وحاول جاهدًا ألا ينظر إلى توفلاور. فعلى الأرجح أن الرجل يبتسم وترتسم على وجهه تعابير حمقاء. لكنه غامر وألقى نظرة جانبية.

كان توفلاور جالسًا فاغرا فاه.

فقالت هيرينا: «أنت لست سائق العبارة المعتاد. لقد كنت هنا من قبل، فالرجل المعتاد رجل ضخم الجثة، ونوعًا ما...

- إنه يوم عطلته.

فقالت في ارتياب: «حسنًا، جيد. في هذه الحالة ما الذي يضحكه؟».

راح كتفا توفلاور يهتزان وقد احمرَّ وجهه وكان ينخر نخرًا مكتومًا.

فحدقت إليه هيرينا، ثم دقتِ النظر إلى سائق العبارة.

- كلاكما، أمسكاه!

حانت وقفة وجيزة، ثم قال أحد الرجلين: «ماذا؟ سائق العبارة؟».

- أجل!

- لم؟

علا الذهول وجه هيرينا. فلا يفترض بشيء كهذا أن يحدث. إذ كان

من المتعارف عليه أن لو صرخ أحدهم قائلًا شيئًا من قبيل 'أمسكوه!'

أو 'يا حراس!' يسارع الناس بفعل الأمر، ولم يكن حريًا بهم أن يقبعوا

في مكانهم يتناقشون في ما بينهم.

وكان أفضل ما أتى به لسانها: «لأنني أمرتُ بذلك!». تبادل الرجلان

الأقرب إلى الشخص المنحني النظرات، وهزا كتفیهما ونزلا عن

مطايهما، وأمسك كل واحد منهما بكتف من كتفيه. كان حجم سائق

العبارة يقرب من نصف حجمهما.

قال أحدهما: «بهذه الطريقة؟». وكان توفلاور يختنق محاولًا التنفس.

- والآن، أريد أن أرى ما الذي يخبئه تحت هذا الثوب.

تبادل الرجلان النظرات.

وقال أحدهما: «لستُ على يقين من أن...».

ولم يتابع حديثه لأبعد من هذا لأن مرفقًا كثير العقد قد لكزه في بطنه مثل كَبَّاس مضخة. فنظر رفيقه إلى الأسفل نظرة زهول وأصابه المرفق الآخر في كُليته.

راح كوهين يشتم وهو يواجه صعوبة في إخراج السيف من ثوبه، فيما يقفز إلى أحد الجوانب تجاه هيرينا. فتأوّه رينسوينا وكزَّ أسنانه، وضرب برأسه إلى الوراء ضربةً شديدةً. فتعالتُ صرخة من وييمس وتدحرج رينسوينا جانبًا، ونزل بكل ثقله في الوحل وانتصب قائمًا بسرعة وغضب ونظر في ما حوله عن مكان للاختباء.

نجح كوهين في تحرير سيفه مطلقًا صيحة انتصار ولوح بطريقة توحى بالانتصار مما تسبب في جرح رجل كان يتسلل من خلفه جرحًا شديدًا.

دفعتُ هيرينا بتوفلاور من فوق جوادها وراحتُ تبحث عن سيفها. حاول توفلاور النهوض ما جعل جواد رجل آخر يشبُّ إلى الأعلى فقذف براكبه من على ظهره وأتى برأسه إلى الأسفل عند المستوى المناسب لقدم رينسوينا فركله بكل قوته. وسيكون رينسوينا أول من يطلق على نفسه لفظةً وضع كالفأر، إلا أن حتى الفئران تقاتل في المواقف الحرجة.

حطتُ يدا وييمس على كتفي رينسوينا، وضربته قبضةً مثل حجارة متوسطة الحجم ضربة قوية سريعة في رأسه.

وبينما يسقط أرضًا، سمع هيرينا تقول في هدوء تام: «اقتلها. وسأتعامل مع هذا الشيخ الأخرق».

ردَّ وييمس: «حسنًا»، واستدار باتجاه توفلاور مستلًا سيفه.

رآه رينسوينا متردداً. وحانت لحظة صمت، بعدها حتى هيرينا أمكنها سماع رشرشة ماء بينما يظهر المتاع فجأةً مندفعاً إلى الشاطئ والماء يتصبب منه.

حدّق إليه وييمس في رعب، وسقط سيفه من يده. ثم استدار وجرى إلى قلب الضباب. وبعد لحظة قفز المتاع من فوق رينسوينا وتبعه.

انقضت هيرينا على كوهين، الذي تحاشى الطعنة وتأوّه متألماً من وخزّ ذراعه. وجاء صوت صليل السيوف واهناً ضعيفاً، ثم أُجبرت هيرينا على التراجع إلى الخلف حيث قفز كوهين قفزة إلى الأعلى كادت تنزع عنها سلاحها.

مشى رينسوينا مترنحاً تجاه توفلاور وراح يشده دونما جدوى، وتمتم: «حان وقت الرحيل».

فقال توفلاور: «هذا عظيم! رأيت الطريقة التي قام فيها ب...».

- أجل، أجل، هيا بنا.

- لكني أريد، في رأيي، أحسنت!

انزلق سيف هيرينا من يدها وانغرس مُهتزاً في الوحل. وبنخرة كلها رضا استعاد كوهين سيفه، واحولّت عيناه لحظةً وأطلق صرخة ألم ثم وقف بلا حراك.

نظرت إليه هيرينا في حيرة من أمرها. فتحرّكت حركة تجريبية تجاه سيفها وعندما لم يحدث شيء، أمسكت بالسيف، واختبرت اتزانها ثم حدقت إلى كوهين. فلم يتحرك منه إلا عيناه المعذبتان متبعة إياها في دورانها من حوله في حذر.

فهمس توفلاور: «لقد عاد ألم ظهره ثانية! ما الذي علينا فعله؟».

- يمكننا أن نرى لو بمقدورنا أن نمسك بالخيل؟

قالت هيرينا: «حسنًا، لا أعلم من أنت، أو لم أنت موجود هنا، ولا يتعلق الأمر بمسألة شخصية من أي نوع، أنت تفهم هذا».

ورفعت سيفها بكلتا يديها.

كانت هنالك حركة مفاجئة في قلب الضباب وصوت ضربة مكتومة صادرة عن قطعة خشبية ثقيلة تضرب رأسًا ما. بدت هيرينا حائرة مذهولة، ثم بعدها سقطت على وجهها.

ألقت بيثان الغصن الذي كانت تمسكه ونظرت إلى كوهين. ثم جذبته من كتفيه، ووضعت ركبتهما عند مستدق ظهره، ولوته التواءً شديدًا أعادت ظهره إلى موضعه ثم أرخت قبضتها عنه.

بدت على وجه كوهين آيات الاسترخاء، وانحنى انحناءة تجريبية.

قال: «لقد تزحزح شهري! شهري! لقد تزحزح من مكانه!».

التفت توفلاور إلى رينسويند.

وقال بطريقة ودية: «لطالما أوصى أبي بالتدلي من أعلى الباب كحلّ لعلاج الظهر».

تسلل وييمس في حذر شديد من بين الأشجار الصغيرة المُلبّدة بالضباب. وحبس الهواء الشاحب المُحمل بالرطوبة كل الأصوات، لكنه كان متأكدًا من أنه لم يكن ثمة شيء يمكن سماعه على مدار العشر دقائق الماضية. فاستدار ببطء بالغ، ثم منح نفسه رفاهية تنهّد تنهيدة طويلة من أعماق القلب. ثم دخل إلى الغطاء الشجري ثانية.

لكنّ لكز شيء ما الجزء الخلفي من ركبتيه برفق بالغ. شيء له زوايا. نظر إلى الأسفل، وبدا أن هنالك عددًا أكبر من الأقدام في الأسفل أكثر من التي يجب أن تكون موجودة.

ثم كان هنالك صوت إغلاق سريع وخاطف وحاد وقصير.

بدأت النيران كبقعة صغيرة في المشهد المظلم. وكان القمر لم يبرز بعد، لكنّ النجم كان بمنزلة وهج متربص في أفق السماء. قالت بيتان: «لقد غدا دائرياً الآن، ويبدو كشمس صغيرة. وأنا متيقنة أنه يزداد حرارة كذلك».

قال رينسويند: «كفك. كأنه تعوزوني أسبابٌ أخرى للقلق».

قال كوهين الذي كان يحظى بتدليك لظهره: «ما لا أفهمه هو كيف أنهم أمشكوا بك دون أن نشمع بالأمر. فلم نكن لنعرف مطلقاً لو أن متاعك لم يواشل القفش إلى أعلى وإلى أسفل».

قالت بيتان: «ويتذمر». فنظر الجميع تجاهها.

فقالت: «حسناً، بدأ كأنه يتذمر. أعتقد أنه بالغ اللطف في الواقع».

التفتت أربعة أزواج من الأعين تجاه المتاع، الذي كان جاثماً على الجانب الآخر من النيران. فهبّ واقفاً، وعن قصد تراجع إلى ستر الظلام بلا تردد.

قال كوهين: «شهل المطعم».

قال رينسويند متفقاً: «صعب فقدان».

قال توفلاور مقترحاً: «مخلص».

قال كوهين: «فشيح».

قال رينسويند: «لكنّ لن أقول لطيفاً».

سألهم كوهين: «أعتقد أنك لن ترغب في بيعه؟».

هز توفلاور رأسه، وقال: «لا أظن أنه سيفهم الأمر».

قال كوهين: «كلا، لا أعتقد ذلك». نهض وعض شفته، واستطرد: «كنت أبحش عن هدية أقدمها لبیشان، كما ترى. إذ شنتزوج». قالت بيثان وقد توردت وجنتيها: «ظننا أنه يجب أن تكونوا أوائل العارفين».

لم يفلح رينسوينا في جذب انتباه توفلاور.
- حسنًا، هذا جدُّ، إمام...

قالت بيثان: «حالما نجد بلدة بها كاهن. إذ أريد للأمر أن يتم على النحو الصحيح».

فقال توفلاور بجدية: «هذا أمرٌ مهم جدًّا. لو كان العالم به الكثير من الأخلاقيات والعادات الطيبة لم نكن لنصطدم بالنجوم». أخذوا يتفكرون في الأمر للحظة، ثم انبسطت أسارير توفلاور، وقال: «هذا يلزمنا الاحتفال، لديّ بعض البسكويت والماء، ولو كان لا يزال لديكم بعض لحم الخيل المقدد ذاك».

قال رينسوينا بفتور: «أوه، جيد». ثم نادى كوهين وأخذه بعيدًا عنهم. وقد يحسب من يرى الشيخ في ليلة ظلماء وهو مشذب لحيته أنه ابن السبعين.

قال: «هل هذا الأمر، أأ، جاد؟ أستتزوجها فعلًا؟».

- بكل تأكيد. هل من اعتراض؟
- حسنًا، لا، طبعًا، لكن، أقصد أنها ابنة السابعة عشرة ربيعًا وأنت، وأنت كيف يمكنني أن أصيغها لك، أنت من جيل كبار السن.
- حان الوقت لأحط ركابي، أتقصد هذا؟

أخذ رينسوينا يبحث عن الكلمات، وقال: «أنت أكبر منها بسبعين سنة يا كوهين. هل أنت متأكد من أن...».

قال كوهين موبخًا: «لقد كنتُ مُتَشَوِّجًا من قبل، كما تعلم. فأنا أتمتع بشاكرة جيدة للغاية».

- لا، ما أرمى إليه هو، حسنًا، أقصد قدرتك الجسدية، فالمغزى هو، كما تعلم، ماذا عن الفارق العمري وكل تلك الأشياء. إنه أمر متعلق بالصحة، أليس كذلك، كما...

قال كوهين متأنياً: «آه، فهمت قشذك. الشدُّ العضلي. لم أنظر إلى الأمر من هذا الجانب».

قال رينسويند وقد استقام واقفاً: «لا، كلا، حسنًا، هذا أمر اعتيادي». ردَّ كوهين: «لقد لفت انتباهي للتفكير في الأمر، وهذا أمر لا غبار عليه».

- آمل أنني لم أحبط فيك أيَّ شيء.

قال كوهين في شرود وإبهام: «لا، كلا. لا تأشف. كنتُ مُشيبًا في الإشارة إلى الأمر».

واستدار ونظر إلى بيتان، التي لوَّحت له، ثم نظر عاليًا إلى النجم الذي توهج من بين الضباب.

وقال في نهاية المطاف: «تلك أوقات خطيرة».

- هذا حقيقي.

- مَنْ يعلم ماذا يخبئه لنا المستقبل؟

- ليس أنا.

رَبَّتْ كوهين كتف رينسويند، وقال: «يتحتم علينا في بعض الأحيان أن نخوض المشاعب. لا تشتتاً، فإني أشن أننا شنقيم الشُّفاف على أي

حال، كما، حسناً»، نظر إلى بيثان وتنهّد، ثم أردف: «كل ما علينا أن نؤمله هو أن تكون قوية بما يكفي».

في اليوم التالي قرب الظهيرة، عرجوا على مدينة صغيرة ذات جدران طينية تلفها الحقول التي كانت لا تزال خضراء وارفةً. وبدا أن هنالك حركة مرور كبيرة على الجانب الآخر رغم ذلك. وراحت عربات كبيرة تقطع الطريق مقررةً باتجاههم وقطعان الماشية تتمشى على طول قمة الطريق والعجائز يضربن الدرب بأقدامهنّ تجاههم حاملات كل أغراض منازلهنّ وأكوام من القش على ظهورهنّ.

سأل رينسوينا وهو يُوقف رجلًا يدفع عربة يدوية مليئة بالأطفال: «هل انتشر وباء ما؟».

فهز رأسه بالنفي، وقال: «إنه النجم يا صديق، ألم تره في كبد السماء؟».

- لم تفتنا رؤيته، طبعًا.

قال الرجل: «يقولون إنه سيضربنا في ليلة الهوجوسوتش وستغلي البحار وستنهار كل بلاد القرص وستسقط الملوك وستغدو المدن كبحيرات من زجاج. وأنا راحل إلى الجبال».

سأل رينسوينا متشككًا: «سيساعد هذا على تلاشي الأمر، أليس كذلك؟».

- لا، لكن سيكون المشهد أفضل.

رجع رينسوينا على حصانه إلى الآخرين، وقال: «ينتاب الجميع القلق حيال النجم. وعلى ما يبدو، بالكاد بقي القليل من الناس في المدن، فجميعهم خائفون منه».

علقتُ بيثان: «لا أريد أن استجلب عليكم القلق، لكن ألم تلاحظوا أن الجوَّ حار في غير موسمه؟».

قال توفلاور: «هذا ما قلته ليلة البارحة، الجوُّ دافئ جدًّا، حسب ظني».

قال كوهين: «في سني أن الجوُّ شيزداد حرارة. لندخل المدينة».

وركبوا سائرين في الشوارع التي رددتِ الصدى التي كانت فعليًّا قد هُجرت. وراح كوهين ينظر بإمعان إلى لافتات التُّجار إلى أن أجم حصانه وقال: «تلك بُغيتي التي كنت أبحش عنها. أنتما اعشرا على معبد وكاهن، وشأوا فيكم عما قريب».

فقال: «رينسوينا: «صائع جواهر؟».

- إنها مفاجأة.

قالت بيثان: «سأحتاج إلى فستان جديد كذلك».

- شوف أشرق لك واحدًا.

قرر رينسوينا: إن أجواء المدينة توحى بطابع استبدادي كاظم، كما كان هنالك شيء غاية في الغرابة.

فقد رُسمَ على كل باب تقريبًا نجم أحمر كبير.

قالت بيثان: «إنه أمر مقزز، كأنَّ الناس قد أرادت الإتيان بالنجم إلى هنا».

فردَّ توفلاور: «أو إبعاده».

قال رينسوينا: «لن يفلح ذلك مع كبر حجمه هذا». ورأى وجوههم تلتفت نحوه.

فسأل سؤالًا ينمُّ عن عدم ثقة: «حسنًا، إنه أمر عقلاني، أليس كذلك؟».

أجابت بيثان: «لا».

قال توفلاور: «النجوم أضواء صغيرة في السماء. سقط منها واحد قرب منزلي ذات مرة، شيء كبير أبيض بحجم منزل توهج لأسابيع ثم خفت ضوءه».

قال صوت: «هذا النجم مختلف. فقد تسلق آتوين العظيم شاطئ الكون. هذا هو المحيط العظيم الشاسع للفضاء».

سأل توفلاور: «كيف لك أن تعرف؟».

قال رينسويند: «أعرف ماذا؟».

- الذي قلته لتوك عن الشواطئ والمحيطات.

- لم أنبس ببنت شفة!

هتفت بيثان: «أجل، لقد فعلت، أيها الرجل الأخرق! لقد رأينا شفتيك ترتفعان وتهبطان وكل ذلك!».

أغمض رينسويند عينيه. وشعر بداخل عقله أن التعويذة تركض مسرعةً لتختبئ خلف وعيه، وتغمغم بينها وبين نفسها.

قال: «لا بأس، لا بأس. لا حاجة إليكم بالصراخ. أنا. أنا لا أعرف كيف لي أن أعرف، أنا فحسب أعرف...».

- جيد، أتمنى لو أنك تخبرنا.

ثم انعطفوا عند الزاوية.

ضمت المدن المحيطة بالبحر الدائري كافةً منطقتاً مقتطعةً خصوصاً للآلهة، كان القرص يحظى بوفرة كبيرة منها. وبدت تلك المناطق في العادة مزدحمة ولا تحظى بأي جاذبية معمارية. وحُصت معظم كبار الآلهة بمعابد كبيرة بديعة ولا ريب، إلا أن المعضلة كانت في أن الآلهة اللاحقة حديثة العهد قد طالبت بالمساواة وعماً قريب توسعت المناطق المقدسة بسبب أنه قد بُنيت فيها السقائف مائلةً السطح والمباني

الملحقة وغرف العليّة المجددة والسراديب الفرعية والشقق الصغيرة الأنيقة وشغل الأراضي الفضاء الكنسية واقتسام الممتلكات بتحديد مدد زمنية لكل جماعة وتبادلها، حيث لا يوجد إله سيحلم بالعيش خارج الربع المقدس أو، الذي قد غدا، ثلاثة أثمان. وكان هنالك ثلاثة آلاف نوع مختلف من البخور يُحرق وكانت الضوضاء بطبيعة الحال شديدة عند عتبة الألم لأن الكهنة تنافسوا في ما بينهم مطالبين بنصيبهم من المؤمنين ليأتوا للصلاة.

إلا أن هذا الشارع كان هادئاً هدوء القبور، ذاك الهدوء البغيض الذي يحل عندما يقف مئات الأشخاص الخائفين الغاضبين في سكون مطبق. استدار رجل كان في طليعة الحشد وعَبَس في وجوه القادمين الجدد. وكان هنالك نجم أحمر مطبوع على جبين الرجل.

استهل رينسوينا الكلام: «ماذا...»، ثم أحجم عن الكلام لما بدا له من علوّ صوته، فسأله: «ما هذا؟».

سأله الرجل: «هل أنتم غرباء؟».

شرح توفلاور يقول: «في الواقع نعرف بعضنا جيداً...»، ثم لاذ بالصمت. وأشارت بيثان إلى أعلى الشارع.

كان على كل معبد نجم مطبوع، كان نجماً كبيراً غير الآخرين مُلَطَّح على العين الحجرية خارج معبد آيو الأعمى، قائد الآلهة.

قال رينسوينا: «تبّاً، سينزعج آيو حقاً عند رؤيته هذا. ولا أظنُّ أن علينا التسكع هنا يا رفاق».

كان الحشد يقف قبالة منصة نفطية قد شُيِّدَتْ في منتصف الشارع الفسيح. وأسدل ستار كبير أمامها كليّة.

قالت بيثان بهدوء: «لطالما سمعتُ أن آيو الأعمى له قدرة على رؤية كل شيء يحدث في كل مكان. لمَ لم...».

قال الرجل الواقف بجانبهم: «اسكتوا! دَهوني يتحدث!».

اعتلتُ هيئةً ما المنصة، رجلٌ طويلٌ نحيلٌ له شعر كُرأس الهندياء البرية. ولم يصدح الحشد بأي تحية، بل مجرد تنهيدة جماعية. ثم بدأ الرجل الكلام.

أصغى رينسوينا في رعب متزايد. قال الرجل، أين كانت الآلهة؟ لقد اختفتُ. وربما لم يكونوا موجودين بالأساس. مَنْ تسعفه ذاكرته، في الواقع، في تذكر رؤيتهم؟ والآن قد أُرسِل النجم...

وواصل الكلام، صوت هادئ واضح استخدم كلمات مثل 'تطهير' و'تنظيف' و'تنقية' ينغرس في العقل مثل سيف ملتهب. أين كان السحرة؟ أين كان السحر؟ هل كانت منهم فائدة مرجوة حقًا، أو كان الأمر كله حُلْمًا؟

وبدأ الخوف يتملك رينسوينا من أن الآلهة قد تسمع بهذا الأمر وتشتاط غضبًا لدرجة أن تصب غضبها على أي أحد حدث أن كان موجودًا في الأرجاء في هذا الوقت.

لكنَّ بسبيل ما كان سخطُ الآلهة ليكون أفضل من وقع هذا الصوت. وبدا الصوت كأنه يقول: «كان النجم آتياً وناره الرهيبة يمكن تحاشيها فحسب من خلال... من خلال...». لم يستطع رينسوينا التأكيد، لكنه رأى مشاهدًا تتضمن سيوفًا وراياتٍ ومحاربين خاوي الأعين. كان الصوت لا يؤمن بالآلهة، وهو ما كان في عرف رينسوينا أمرًا عادلًا كفاية، لكنَّ الصوت لم يكن يؤمن بالناس كذلك.

وعن يسار رينسوينا كان ثمة غريب طويل مُغطى الرأس دفع رينسوينا بمنكبه. فاستدار رينسوينا ونظر إلى الأعلى إلى جمجمة باسمة مستترة تحت قلنسوة سوداء.

السحرة، كالقطط، يرون الموت.

بدا صوتُ الموت أحبَّ نوعًا ما مقارنة بوقع ذاك الصوت. استند الموت إلى الحائط وإلى جانبه منجله، وأوماً باتجاه رينسوينا.

همس رينسوينا قائلاً: «أجئتَ شامتًا؟».

فهزَّ الموت كتفيه، وأجاب: لقد أتيتُ كي أرى المستقبل.

- أهذا هو المستقبل؟

- مستقبلٌ ما.

- إنه مروّع.

- أميل إلى موافقتك الرأي.

- كنتُ لأظن أنك تتفق كليّة مع الأمر.

- ليس بهذه الطريقة. فموت المحارب أو الشيخ أو الطفل الصغير أفهمه، وأنا أُخلِّص المرء من الألم وأنهى المعاناة. لكنني لا أفهم موت العقل هذا.

سأل توفلاور: «إلى من تتحدث؟». واستدار العديد من أفراد الجَمع وراحوا ينظرون إلى رينسوينا في ارتياب.

أجاب رينسوينا: «لا أحد. هل يمكننا الابتعاد عن هنا؟ لقد أُصِبتُ بالصداع».

والآن راحتُ ثلثة من الناس في طليعة الحشد تغمغم وتشير إليهم. فشدَّ رينسوينا الاثنين الآخرين وأسرع بهم حول الزاوية.

وقال: «لنمتطِ خيولنا ونرحل، يساورني شعور بغيض بأن...».

حَطَّتْ يَدُ مَا عَلَى كَتْفِ رَيْنَسُوينِدْ، فاستدار فوجد عينين رماديتين كالغيوم موجودتين في رأس أصلع مدوَّر يتربع على جسم ضخم مفتول العضلات تحدقان إلى أذنه اليسرى. وكان هناك نجم مطبوع على جبهة الرجل.

وقال: «مظهرك كمظهر السحرة»، وكانت نبرته توحى بأن كونه ساحرًا هو شيء أحمق قد يجلب على صاحبه الهلاك.

ردَّ رينسويند: «مَن، أنا؟ لا، أنا كاتب. طبعًا. كاتب. هذا صحيح». ثم ضحك ضحكة قصيرة.

سكت الرجل هنيهةً، وكانت شفثاه تتحركان بلا صوت، كأنه يصغي إلى صوت داخل رأسه. وانضمَّ إليه العديد من الأشخاص الآخرين من قوم النجم. ثم راحوا جميعهم يحدقون إلى أذن رينسويند اليسرى. قال الرجل: «أظنُّ أنك ساحر».

قال رينسويند: «انظر لو كنتُ ساحرًا لكنتُ قادرًا على السحر، أليس كذلك؟ كنتُ لأحولك إلى شيء ما، ولأنني لم أفعل، لذا فأنا لستُ بساحر». فقال أحد الرجال: «لقد قتلنا سحرتنا كافة. بعضهم قد فرَّ، لكننا قتلنا منهم جمعًا كبيرًا. وقد لوَّحوا بأيديهم ولم يحدث أي شيء». حدق إليه رينسويند.

وقال الرجل القابض على رينسويند قبضةً شديدة الأحكام: «ونظن أنك ساحر كذلك. فلديك الصندوق ذو السيقان ولك هيئة ساحر».

أدرك رينسويند أن ثلاثتهم والمتاع كذلك قد افترقوا بطريقة ما عن خيولهم، وقد كانوا الآن داخل حلقة تضيق الخناق عليهم صنعها أناس جادون قاتمو الوجوه.

شُحِب وجه بيثان. وحتى توفلاور الذي كانت قدرته على استيعاب
الخطر تُعادل قدرة رينسويند على الطيران، بدا عليه القلق.
تنفس رينسويند نَفَسًا عميقًا.

ثم رفع يده في الوضعية الكلاسيكية التي تعلمها منذ سنوات خلت،
وقال بصوت أجش: «تراجعوا! وإلا سأملأكم عن آخركم بالسحرا!».

قال الرجل: «لقد اختفى السحر، فقد أخذه النجم. فجميع السحرة
الزائفين يقولون كلماتهم المضحكة ثم لا يحدث شيء وينظرون إلى
أيديهم في فزع، وفي الحقيقة قلة قليلة منهم كان لهم من العقل ما
جعلهم يهربون».

قال رينسويند: «أنا أعني ما أقول».

وفكر: إنه سيقتلني. هذا كل ما في الأمر. فلا يمكنني حتى مواصلة
الخداع بعد الآن. فلا براعة في السحر، ولا براعة في الخداع، أنا محض...
تقلبتُ التعويذة في رأسه، وشعر بها تتدفق في دماغه كالماء المُثلج
وتَبَّتْ نفسها. وسرى وخز بارد أسفل ذراعه.

ارتفعت ذراعه من تلقاء ذاتها، وأحس بفمه يُفتح ويُطبق ولسانه
يتحرك فيما يقول لسان لم يكن بلسانه، بصوت بدا عتيقًا وخشنًا،
مقاطع من كلام نُفِثَ في الهواء مثل السحب البخارية.

انبثقتُ نار بلون الأوكتارين من تحت أظفاره. ولَفَّتْ نفسها حول
الرجل المرتعب حتى غاب في سحابة باردة مبقبة ارتفعت فوق
الشارع وبقيت هناك هنيهةً، ثم انفجرتُ وتحولتُ إلى عدم، فلم يخرج
منها أي شيء.

ولم يخرج منها حتى أثر من دخان مُشَحَّم.

حدَّق رينسويند إلى يديه في رعب.

جَذبه توفلاور وبيثان من ذراعه ودفعاه خلال الحشد الذاهل إلى أن وصلوا إلى الشارع المفتوح. وحانت لحظة مؤلمة حيث اختار كل واحد منهم الجري في زقاق مختلف، لكنهم أسرعوا مواكبين قدمي رينسويند التي بالكاد تلمس حصى الرصف.

وراح يغمغم متحمسًا وممتلئًا بشعور القوة: «سحر، لقد قمت بالسحر...».

فقال توفلاور بنبرة مُهدئة: «هذا صحيح».

سأله رينسويند: «أتريد مني أن ألقى تعويذة؟». وأشار بإصبعه إلى كلب مارٍ، وقال: «مرحى!». فرمقه الكلب بنظرة مهينة.

قالت بيثان عابسةً: «سيكون من الأفضل لو جعلتَ قدميك تجريان أسرع قليلًا».

غمغم رينسويند قائلاً: «طبعًا! أيتها القدمان، اجريا سريعًا! يا رفاق، انظرا إنهما تفعلان!».

فقالت بيثان: «إن لقدميك حظًا من العقل ليس لك. أي طريق سنسلك الآن؟».

حدّق توفلاور إلى متاهة الأزقة التي من حولهم. وتهادى صوت صياح مستمر على بعد مسافة منهم.

فترنح رينسويند مبتعدًا عن قبضتهم، وهرول مترددًا إلى أقرب زقاق. وهتف هتافًا شديدًا قائلاً: «يمكنني فعل الأمر! احذروني جميعًا...». علق توفلاور: «إنه في حالة صدمة».

- لمَ؟

- لم يُلِقِ أيّ تعاويذ من قبل.

- لكنه ساحر!

قال توفلاور وهو يجري خلف رينسويند: «إن الأمر معقد بعض الشيء. على أي حال، لستُ على يقين بأنه هو فعلاً. فلم يبذُ هذا بالتأكيد من طباعه. أسرع بخطاك أيها الرفيق الشيخ».

نظر إليه رينسويند بعينين لا تبصران من فرط الذهول، وقال: «سأحوك إلى ورد».

ردَّ توفلاور بنبرة مُهدئة وهو يشده من ذراعه برفق: «أجل، طبعا. جيد للغاية. هيا معنا».

وتهادى وقع خطواتٍ خفيفةٍ آتيةٍ من أزقةٍ متعددة، ثم فجأة راح يهجم عليهم جماعة من قوم النجم.

فجذبت بيثان يد رينسويند المرتخية ورفعتها متوعةً.
وصرخت قائلة: «طفح الكيل!».

قال توفلاور: «صحيح! فلدينا ساحر ولا نخشى الاستعانة به!».
صرختُ بيثان وهي تلفُ رينسويند من ذراعه كرحوية سفينة،
وقالت: «أنا أعنى ما أقول!».

قال توفلاور: «صحيح! إننا مدججون بالسلاح! أليس كذلك؟».

همست بيثان من وراء ظهر رينسويند: «قلت أين المتاع؟».

جال توفلاور بنظره في الأرجاء. لم يكن المتاع موجوداً.

وعلى الرغم من ذلك كان لرينسويند التأثير المرجو في قوم النجم.
وبينما تتحرك يده بعشوائية في الأنحاء، عاملوا يده كأنها منجل دوار
وحاولوا الاختباء وراء واحد منهم الآخر.

- حسناً، أين ذهب الصندوق؟

ردَّ توفلاور: «كيف لي أن أعرف؟».

- إنه متاعك الخاص!

- لا أعرف في العادة مكان متاعي، فهذا هو المغزى من كون المرء سائحًا. على أي حال، لطالما تجوّل وحده. وربما يفضل عدم السؤال عن السبب.

أدرك الحشد أنه لم يحدث شيء في الحقيقة، وأن رينسويند لم يكن بأي حال ليطلق لسانه بالسباب ناهيك بالنار السحرية. فتقدموا وأعينهم تراقب يديه في حذر.

تراجع توفلاور وبيثان، ورنا توفلاور بعينيه في الأنحاء.

- بيثان؟

سألته بيثان ولم تبعد عينيها عن الأجسام المتقدمة باتجاههم: «ماذا؟».

- هذا طريق مسدود.

- هل أنت متأكد؟

فقال توفلاور بنبرة عتاب: «أظنني أعرف حائط القرميد عندما أراه». قالت بيثان: «لا سبيل آخر إذن».

- أتظنين ربما لو شرحتُ...؟

- لا.

- أوه.

أضافت بيثان: «لا أظن أن تلك النوعية من الأشخاص تصغي إلى الشرح والتوضيح».

حدّق إليهم توفلاور. وكما سبق ذكره، كان في أغلب أحواله غافلاً عن الخطر المُحدّق به. وقد آمن توفلاور على عكس ما تمليه التجربة البشرية أجمعها أنه لو تبادل الناس أطراف الحديث واحتسوا بعض المشروبات وتبادلوا صور أحفادهم، أو ربما حضروا عرضًا مسرحيًا أو

شيئاً من هذا القبيل معاً، حينها تكون كل المشكلات قابلةً للحلّ. كما قد
أمن أن الناس طيبون بالأساس، لكنهم يمرون بأيام عصيبة في بعض
الأحيان. والذي كان آتياً من الشارع تجاهه كان له فيه التأثير نفسه
لوجود غوريلا في مصنع زجاج.

تهادى من ورائه صوت من أخفت الأصوات، لم يكن صوتاً بمعنى
صوت، بل في الواقع كان تَغْيِراً في بنية الهواء.

فغرّت الوجوه التي أمامه أفواهها واستدارت ثم اختفت سريعاً في
الزقاق.

قالت بيثان التي كانت لا تزال تسند رينسوينا الغائب عن الوعي:
«عفوًا؟».

أما توفلاور فكان ينظر في الاتجاه المقابل إلى نافذة زجاجية كبيرة
زاخرة بالأدوات الغريبة ومدخل مُطرز ولافتة كبيرة تتربع فوق كل ذلك،
والتي كانت تقول الآن، ريثما انتهت حروفها من التَّلَوِّي وتَرْتَبَّت في
مواضعها:

سكيليت ووانج ويوركسلييت وبانجلستف

وَكُوملاد وباتيل

التأسيس: متنوع

المُوردون

قَلْب الصائغ الذهب في تَأَنَّ على السندان، ووضع الماسة الأخيرة
ذات القَطْع الغريب في مكانها الصحيح تماماً.

تمتم سائلًا وهو يزرُّ عينيه من كُثب ليركز في عمله: «لقد قلتَ إنها من سن التروول؟».

ردَّ كوهين: «أجل، وكما قلتُ، لك أن تأخسَ كلَّ ما يتبقى»، وراح يتحسس ويتفحص صينية من الخواتم الذهبية.

تمتم الصائغ الذي كان من الأقسام ويعرف الصفقة الرابحة عندما يصادفها: «كرم بالغ». ثم تنهد.

سأله كوهين: «قلَّ العمل مؤخرًا؟». ونظر إلى الخارج من النافذة الصغيرة فرأى زمرةً من الأشخاص حاويي الأعين مجتمعين على الطرف الآخر من الشارع الضيق.

- الأوقات عصيبة، طبعًا.

سأله كوهين: «مَن يكون كل أولئك الأشخاص الشين يرشمون نجومًا على جباههم؟».

لم يرفع الصائغ القزم عينيه.

وأجابه: «مجانين، يقولون إنني يجب أن أتوقف عن العمل بسبب قدوم النجم. فأخبرتهم أن النجوم لا تؤذيني مطلقًا، أتمنى لو أقدر على قول هذا عن البشر».

أوماً كوهين في إمعان فيما يتفرق ستة رجال عن زمرتهم آتين تجاه المتجر. وكانوا يحملون تشكيلة متنوعة من الأسلحة، وبدت عليهم نظرة اندفاع وإصرار.

قال كوهين: «غريب».

قال الصائغ: «أنا، كما ترى، من قوم الأقسام التي يقال إنها من الأعراق السحرية. ويعتقد قوم النجم أن النجم لن يدمرَ القرص لو أننا انصرفنا عن السحر. ربما هم آتون ليضربوني قليلًا. تلك حال الدنيا».

ورفع عاليًا ما صاغه في شكله النهائي مُمسكًا إياه بملقط.
وعلق: «أغرب شيء صنعته، لكنه عملي حسبما أرى. ماذا قلت إنها
تسمى مجددًا؟».

قال كوهين: «ماضغات مُشعجة». ونظر إلى المصوغات التي تشبه
حدوة الحصان القابعة في راحة يده المُجعدة، ثم فَتَحَ فمه وأطلق
أصوات نخر تنم عن الألم.

انفتح الباب فجأة ودخل منه رجال أخذوا أماكنهم قرب الحائط.
وكانوا يتصيبون عرقًا وتساورهم الشكوك، لكنّ دفع قائدهم كوهين
جانبًا باشمئزاز وأمسك القزم من قميصه، وقال: «أخبرناك بالأمس
أيها الشيء الصغير. فلا نكثرث أخرجتَ على قدميك أم على رأسك. لذا
سنغدو الآن جدّ...».

نقره كوهين على كتفه، فنظر الرجل حوله متشككًا.
وزمجر متسائلًا: «ما الذي تريده أيها الجد؟».

توقف كوهين هُنيئًا إلى أن استولى على اهتمام الرجل كليّةً، ثم ابتسم.
كانت ابتسامه بطيئة كسلانة، تكشف عن 300 قيراط من جواهر الفم
التي بدت أنها تضيء المكان.

وقال بصوت ودود: «سأعدُّ إلى ثلاثة. واحد، اثنان»، وارتفعت ركبته
الhezيلة واستقرت في مغبن الرجل مُصدرَةً صوت اصطدام مُرَضٍ
باللحم، واستدار نصف استدارة ليستجمع كامل قوة مرفقيه ليضرب
بهما كُليتيه ليسقط القائد متكومًا ومتألمًا ألمًا شديدًا.

وقال كوهين للكرة المتكومة من فرط الألم على الأرضية: «ثلاثة».
لقد سمع كوهين عن مبادئ القتال العادل من قبل، لكنه قد قرر من زمن
طويل أنه لن يعمل بها.

ثم نظر إلى الرجال الآخرين، وابتسم لهم ابتسامته المشرقة المذهلة. وكان على الرجال أن يسرعوا في الوصول إليه، لكن بدلاً من ذلك انسلَّ واحد منهم خفيةً بحركة جانبية تجاه كوهين، مطمئناً بمعرفته أنه يملك سيفًا عريضًا على عكس كوهين.

قال كوهين وهو يُلَوِّح بيده: «أوه، لا. هيا يا رجل، ليس على هذا النحو».

نظر الرجل إليه نظرة متوجسة.

وسأله في تشكك وحيرة: «ليس مثل ماذا؟».

- ألم تحمل سيفًا من قبل؟

استدار الرجل بعض الشيء إلى رفاقه ساعياً إلى التأكد والاطمئنان منهم، وقال: «ليس كثيرًا، لا. ليس في الغالب». وراح يُلَوِّح بسيفه مُرتبِّغًا. هَزَّ كوهين كتفيه، وقال: «ربما سألقى حتفي، لكن عليَّ أن أتمنى الموت على يد رجل يمكنه حمل سيفه كالمحارب».

فنظر الرجل إلى يديه، وقال متشككًا: «تبدو جيدة».

- انظر يا صاح، أعرف القليل عن هذه الأمور، أقصد، تعالَ إلى هنا لحظةً وأيضًا، أتمانع؟ جيد، تضع يدك اليسرى هنا، حول الرُّمانة، وتضع يدك اليمنى - هذا صحيح، هنا تمامًا - ويخترق النصل ساقك تمامًا».

وبينما يصرخ الرجل ويُمسك قدمه، ركل كوهين قدمه الأخرى واستدار إلى الغرفة بأكملها دون أن يُمسك به أحد، وقال: «يصبح الأمر مملًا، لمَ لا تهجمون هجمة رجل واحد؟».

فقال صوت ما إلى جانبه: «هذا صحيح»، كان الصائغ قد أخرج فأساً كبيرة متسخة تكفلت بزيادة مخاوفهم بالإصابة بالكزاز إلى جانب مخاوفهم الأخرى من آلات القتال.

فكر الرجال الأربعة في هذه المزايا قليلاً، وتراجعوا نحو الباب.

فقال كوهين: «وأمسحوا تلك النجوم السخيفة. يمكنك أن تُخبروا الجميع بأن كوهين البربري سيغضب كل الغضب لو رأى مثل تلك النجوم مجددًا، متفقون؟».

انغلق الباب سريعًا. وبعد لحظة ارتطمتِ الفأس بالباب ثم ارتدت فقطعتُ شظية من جلد إصبع صندل كوهين.

علّق القزم: «عذرًا، هي لجدي وأنا استخدمها فحسب لشق الحطب». تحسس كوهين فكه ليختبره. وبدت الماضغات المزعجة مستقرة تمامًا في مكانها الصحيح.

وقال: «لو كنتُ مكانك لخرجت من هنا على أي حال». لكن راح القزم يهرول في أرجاء الغرفة فعلاً، يفرغ محتويات صواني من المعادن والجواهر النفيسة في جُوال جلدي. ثم وضع لفافة من الأدوات في إحدى الجيوب ووضع جَعبة صغيرة مليئة بالجواهر المصقولة في جيب آخر. ثم أدخل ذراعَيْه في المقبضين الموجودين على جانبي فرن الحدادة الصغير ورفع بنفسه بكل ثقله على ظهره، وقال: «حسنًا، أنا جاهز».

- هل أنتِ آتٍ معي؟

- إلى بوابات المدينة فحسب، إن لم تمنع. فلا يمكنكِ لومي، أليس

كذلك؟

- لا، لكن اتركِ الفأس.

فخرجوا تحت شمس الظهيرة وفي الشارع المهجور. ولما فتح كوهين فمه أنارت نقاط صغيرة من الضوء الساطع كل الظلال.
وقال: «لديّ بعض الأصدقاء في هذه الأثناء سأصطحبهم معي». وأضاف: «أمل أن يكونوا بخير، ما اسمك؟».

- لَاجُؤ.

قال كوهين: «أثمة مكان في الأثناء يمكنني أن...»، ثم توقف والحنين بادٍ عليه، واستطرد متلذذًا بنطقه للكلام: «أين يمكنني الحصول على شرائح اللحم؟».

- لقد أغلق قوم النجم كل الحانات، فهم يقولون إنه لا يصح الأكل والشرب عندما...

- أعرف، أعرف. أظنني بدأت أفهم لبّ الأمر. ألا يسمحون بأي شيء؟
عَرِقَ لَاجُؤ في أفكاره للحظة، وقال في نهاية المطاف: «إشعال النيران في الأشياء. إنهم يبرعون في هذا، الكتب وأشياء أخرى. إنهم يمتازون بإشعال تلك النيران الكبيرة العظيمة في العراء».

اعترت كوهين صدمة.

- نار في العراء مشتعلة بفعل الكتب.

- أجل، فظيع، أليس كذلك؟

قال كوهين: «أجل»، وفكر أن هذا أمر غاية في الفظاعة. فشخص قضي حياته يعيش مُشردًا يفتersh الأرض ويلتحف السماء يعرف قيمة كتاب جيد سميك، لا بُد أن يصمد الكتاب موسمًا واحدًا على الأقل من إشعال نيران الطبخ إن كان المرء حريصًا في قطعه إلى صفح. إذ قد أَنْقَذَتِ العديد من الأرواح في ليلة ثلجية بحفنة من الحطب المشبعة

بالماء وكتاب جاف جدًّا. فإذا اعترت المرء حاجة إلى التدخين ولم يكن له سبيل إلى غليون ماء، فالكتاب هو مُخْلِصك في كل مرة.

وأدرك كوهين أن الناس يكتبون أشياء في الكتب، وقد بدا له دائمًا أن هذا مضيعة تافهة للورق.

وقال لأكجُو في أسي وهم يقطعون الشارع: «أخشى أن لو التقاهم أصدقاؤك لواجهوا المتاعب».

وانعطفا عند الزاوية ورأيا النيران المنصوبة في العراء. كانت النيران تنتصب في منتصف الشارع. وكان بضعة من قوم النجم يلقمونها بالكتب التي استخرجوها من منزل كبير، وكان باب المنزل مهشمًا وملطخًا بالنجوم.

ولم تكن أخبار كوهين قد انتشرت بعد، ولم يلاحظه حارقو الكتب وهو يجول في الأنحاء ثم استند إلى الحائط. تطاير فتات منحٍ من الأوراق المحترقة في الهواء الساخن وطفًا بعيدًا على أسطح المباني. سألهم: «ما الذي تفعلونه؟».

رفعت امرأة من قوم النجم شعرها عن عينيها بيدها المسوَّدة بفعل السخام وأخذت تحديقًا بإمعان إلى أذن كوهين اليسرى، وقالت: «نُخِّصُ القرص من الشر».

خرج رجلان من المبنى وأخذوا يحدقان إلى كوهين، أو إلى أذنه على الأقل.

مدَّ كوهين يده وأخذ الكتاب الثقيل الذي كانت تحمله المرأة. كان غلافه مغطًى بأحجار حمراء وسوداء كان كوهين متأكدًا أنها تهجئة لكلمة ما. فأراه لأكجُو.

قال القزم: «كتاب التواصل مع الموتى، يستعين به السحرة. إنه يشرح طريقة التواصل مع الموتى، حسب ظني».

قال كوهين: «إنه شيء يخص السحرة بالنسبة إليك». وتحسس صفحة منه بين إصبعيه، كانت رقيقة وناعمة للغاية. ولم تُخَفِه الكتابة شديدة البغض المكتوبة بشيء ما عضوي قطُّ. فطبعًا، كتاب مثل هذا، يمكن أن يكون صديقًا حقيقيًا للإنسان...

قال لواحد من رجال جماعة النجم الذي أمسك ذراعه: «نعم؟ هل من شيء تريده؟».

قال الرجل وهو يخالطه بعض الشك لأن شيئًا بخصوص أسنان كوهين جعله يشعر شعورًا مريبًا حيال صحة عقله: «لا بدُّ أن تُحرق كل كتب السحر».

قال كوهين: «لم؟».

«لقد أُوجِي إلينا»، وغدت ابتسامة كوهين الآن واسعة وسع الفضاء، وازدادت خطورة.

قال لأكجُو منفعلاً: «أظن أن علينا المضي قدمًا». فقد ظهرت جماعة من قوم النجم في الشارع من خلفهما.

ردَّ عليه كوهين وكانت الابتسامة لا تزال على وجهه: «أظن أنني أودُّ قتل أحدهم».

قال الرجل وهو يتراجع مبتعدًا: «يُملي علينا النجم تطهير القرص». فقال كوهين وهو يستلُّ سيفه: «لا قدرة للنجوم على الكلام».

فردَّ الرجل الذي تراجع في تلك اللحظة إلى الجدار: «إن قتلتني، فسيحلُّ محلي ألفٌ غيري».

قال كوهين بنبرة عقلانية: «طبعًا، لكنّ هذا ليس هو المغزى، أليس كذلك؟ فالمغزى هو أنك ستكون ميتًا».

راحت عقدة حنجرة الرجل تهتز كلعبة اليويو. وضيق عينيه ناظرًا إلى سيف كوهين.

واستسلم قائلاً: «هو كذلك، طبعًا. ما رأيك، ماذا لو أطفأنا النار؟».

قال كوهين: «فكرة سيّدة».

شدد لأكجو في إمساكه حزامه. وكان جماعة النجم الآخرون يجرون تجاههم. كان هنالك الكثير منهم، والعديد منهم مسلحون، وبدت الأمور كأنها ستغدو أكثر جدية.

لوح إليهم كوهين بسيفه متحديًا إياهم ثم استدار وجرى. وقد شقَّ على لأكجو نفسه مواكبته في الجري.

وقال لاهتًا وهما يندفعان جريًا إلى زقاق آخر: «مضحك. ظننت لحظةً - أنك قد تريد التوقف لتقاتلهم».

- أمر لا يستحق أن تبذل فيه جهدًا.

في خروجهم إلى النور على الجانب الآخر من الزقاق، ارتمى كوهين على الحائط. واستلَّ سيفه ووقف وأدار رأسه إلى جانب واحد وهو يفكر في أمر الخطوات المقتربة. ثم قرَّبَ السيف بحركة مستوية عند ارتفاع بطنه. وتعالى صوت جلبة مُنْفرة وصرخات عدَّة، لكن حينها كان كوهين قد ابتعد كثيرًا إلى الطرف الآخر من الشارع وهو يجري بطريقته الخرقاء غير المعتادة ليتفادى ألم وعكات قدميه.

وبينما يجري لأكجو إلى جانبه بوقع خطواته العالية والضيق يملكه، انعطف كوهين داخل حانة مرسوم عليها نجوم حمراء، وقفز على المنضدة ما جعله يئنُّ أنيبًا بسيطًا من الألم، وتابع جريه فوقها. في

حين جرى لأكجُو أسفل المنضدة دون أن يخفض رأسه بحركات راقصة أقرب إلى المثالية. ثم قفز كوهين إلى الناحية الأخرى وشقَّ طريقه خلال المطبخ وخرج من زقاق آخر.

وأسرعا في تخطي المزيد من المنعطفات ثم توقفا عند المدخل. والتصق كوهين بالجدار وراح صدره يُصدر أزيزًا حتى اختفت الأضواء الزرقاء والأرجوانية.

وقال لاهئًا: «حسنًا، ما الذي حصلتَ عليه؟».

قال لأكجُو: «إممم، عُلبة ملح».

- هذا فحسب؟

- حسنًا، كان عليَّ الدخول تحت المنضدة، أليس كذلك؟ أنت نفسك لم تفعل هذا على أتم وجه.

فنظر كوهين بازدراء إلى الشَّمَام الصغير الذي استطاع أن يطعنه بسيخه في أثناء هروبه. وقال وهو يقضم القشرة: «لا بُدَّ أن الأمور هنا صعبة للغاية».

سأله القزم: «أتريد بعض الملح عليه؟».

لم ينبس كوهين ببنت شفة، فقد وقف حاملًا الشَّمَام فحسب، فاغرًا فاه.

رنا لأكجُو ببصره في الأرجاء، حيث كان الشارع المسدود الذي كانوا فيه خاليًا تمامًا، إلا من صندوق قديم تركه أحدهم إلى جانب أحد الجدران.

أخذ كوهين يمعن في النظر إليه، وناول القزم الشَّمَام دون أن يحيد بنظرة عن الصندوق، وخرج إلى ضوء الشمس.

شاهده لآكجُو وهو يتسلل خُلسة حول الصندوق، أو خُلسة قدر الإمكان ومفاصله تُصدِر صريرًا مثل سفينة متأهبة للإقلاع، ونكزه كوهين بسيفه مرة أو مرتين، لكن في احتراس بالغ، كأنه شبه متوقع انفجار الصندوق.

ناداه القزم قائلًا: «إنه مجرد صندوق، ما المميز في صندوق؟». لم يتفوه كوهين بأي كلمة. وجثم أرضًا متألّمًا ونظر من كُتب إلى القفل الموجود على الغطاء.

وسأله لآكجُو: «ما الذي بداخله؟».

فقال كوهين: «حري بك ألا تعلم، ساعدني على النهوض، هل يمكنك؟».

- أجل، لكن هذا الصندوق...

قال كوهين: «هذا الصندوق، هذا الصندوق يكون...». ثم لوّح بيده بطريقة عشوائية.

- هل لأنه مستطيل الشكل؟

قال كوهين بطريقة توحى بالغموض: «غريب مخيف».

- غريب مخيف؟

- أجل.

قال القزم: «أوه»، ووقفًا ينظران إلى الصندوق للحظة.

- كوهين؟

- ماذا؟

- ما معنى غريب مخيف؟

قال كوهين: «حسنًا، غريب مخيف...»، ثم توقف لحظةً وخفض بصره منفعلاً، وتابع: «اركله وسترى».

ضرب لأكجو جانب الصندوق بحذاء الأقرام المغطى بالفولاذ. فجفل كوهين ولم يتمخض الأمر عن أي شيء.

قال القزم: «أرى هذا. غريب مخيف تعني خشبيًا؟».

قال كوهين: «لا، إنه، إنه، لم ينبغ أن يكون هذا رد فعله».

فقال لأكجو: «أرى هذا»، قالها فحسب ليستكين كوهين، وقد بدأ يتمنى لو لم يخرج كوهين إلى ضوء الشمس الحار الذي ينتشر في كل الأنحاء. واستطرد: «كان ينبغي له الهروب، هل تظن هذا؟».

- أجل، أو كان عَضَّ قدمك حتى قطعها.

قال القزم: «آه»، ثم أخذ بذراع كوهين برفق، وتابع: «الجو جميل وظليل ها هنا، لم لا تحظى فحسب بالقليل من...».

تملص كوهين منه، وقال: «إنه يراقب هذا الجدار. انظر، لهذا لا ينتبه إلينا. إنه يحدِّق إلى الجدار».

فقال لأكجو مُهدئًا إياه: «أجل، هذا صحيح. طبعًا إنه يراقب هذا الجدار بأعينه الصغيرة...».

ردَّ كوهين سريعًا في غضب: «لا تكن أحمق، فليس لديه أيُّ أعين».

قال لأكجو سريعًا: «عذرًا، عذرًا. إنه يراقب الجدار دون أعين، آسف».

- إنه قلق حيال شيء ما.

- حسنًا، إنه كذلك، أليس هكذا؟ أظن أنه يريدنا أن نغادر إلى مكان ما ونتركه وشأنه.

- أظن أن الحيرة تملكه.

علق القزم: «أجل، إنه ولا شك يبدو مذهولًا». فحدَّق إليه كوهين.

وسأله سريعاً في غضب: «كيف لك أن تقول هذا؟».

أدرك لآكجُو أن الأدوار أخذت تتقلب انقلاباً غير عادل. ورنما بنظرة من كوهين إلى الصندوق، وفمه ينفتح وينطبق.

وقال: «كيف لك أن تقول هذا؟». لكن لم يكن كوهين يصغي على أي حال. إذ جلس أمام الصندوق، مفترضاً أن الجزء الذي يضم ثَقَبَ المفتاح كان الجزء الأمامي، وأخذ يراقبه بإمعان. فتراجع لآكجُو. وقال عَقَله، مضحك، لكن الشيء اللعين ينظر إليّ.

قال كوهين: «لا بأس، أعرف أنني أنا وأنت لسنا على وفاق، لكننا جميعاً نحاول العثور على شخص ما نهتم لأمره، أليس كذلك؟».

قال لآكجُو: «أنا...»، وأدرك أن كوهين لم يكن يعنيه بالكلام بل يتحدث إلى الصندوق.

- لذا أخبرني أين ذهبوا.

وبينما ينظر لآكجُو مرتعباً، مدَّ المتاع سيقانه الصغيرة واستعد للانطلاق ثم جرى بأقصى سرعته إلى أقرب حائط. فانفجرت اللبنة الطينية والملاط المُغَبَّر من حوله.

نظر كوهين من الفتحة فوجد على الجانب الآخر مخزناً صغيراً وضيعاً. ووقف المتاع في منتصف الأرضية يغلبه الذهول الشديد.

قال توفلاور: «متجراً!».

نادت بيتان: «هل من أحد هناك؟».

علق رينسويند: «أوف».

اقتراح توفلاور: «أظن أن علينا أن نُجِلسه في مكان ما ونُحضر له كوبًا من الماء. لو كان ثمة ماء هنا».

فقالت بيثان: «إن المتجر يحتوي على أي شيء آخر».

كانت الحجرة زاخرةً بالأرفف، والأرفف زاخرةً بكل شيء. والأشياء التي لم تجدْ لنفسها مكانًا على الأرفف كانت تتدلى في شكل عناقيد من السقف المظلم الذي تكسوه الظلال. وتناثرتُ صناديق وأجولة تحتوي على كل شيء على الأرضية.

ولم يكن ثمة صوت يأتي من الخارج. فنظرت وفتحت السبب.

عَلَّق توفلاور: «لم أر في حياتي مثل هذا الكم من الأشياء».

قالت بيثان بنبرة حازمة: «ثمة شيء واحد نافذ من مخزون هذا المتجر».

- كيف عرفتِ؟

- ما عليكِ إلا النظر بعينيك، لقد سُدت منافذه حديثًا.

استدار توفلاور فوجد أن في المكانين اللذين كانا مخصصين للباب والنافذة قد حُلَّت مكانهما أرفف مرصعةٌ بالصناديق. وبدا أنها موجودةٌ هنالك منذ زمن طويل.

أجلس توفلاور رينسوينا على كرسي متداعٍ قرب منضدة البيع وراح يتفحص الأرفف في ارتياب. كانت هنالك صناديق مليئة بالأظفار وفُرش الشعر. كما كانت هنالك قطع صابون بِلَيْتُ بفعل الزمان ورف من الجِرار التي تحتوي على أملاح استحمام قابلة للذوبان، وكتب أحدهم ملاحظة صغيرة غايةً في الأسى والأناقة تقول: رغم كل الأدلة التي تقول عكس ذلك، هذه هدية مثالية. كما انتشر الكثير من الغبار في المكان.

دققتُ بيثان النظر إلى الأرفف المثبتة بالحائط الآخر، ثم ضحكت وقالت: «انظر إلى هذا لو سمحت!».

نَظر توفلاور. فوجد بيثان تَمسك بـ... حسنًا، كان كوخًا جبليًا صغيرًا، لكن انتشرت قواقع البحر عليه بأكمله، وقد كتب الجاني على الرف بأداة كاوي الرسم 'تَدْكَارُ خَاصُّ' (وكان التَّدْكَارُ يُفْتَح طَبَعًا لُحْفَظ فِيهِ السَّجَائِرُ، وَيَعْرِف لِحْنًا بَسِيطًا قَصِيرًا).

سألته: «هل سبق أن رأيت شيئًا كهذا؟».

هَزَ توفلاور رأسه بالنفي. وفغر فاه من الدهول.

عاودتُ بيثان السؤال: «هل أنتَ على ما يرام؟».

فأجابها: «أظن أن هذا أجمل شيء رأيتُه على الإطلاق».

كان ثمة طنين يَهْدِر من فوق رأسيهما، فنظرنا إلى أعلى.

فوجدنا أن كرة كبيرة سوداء قد دنتْ بنفسها من عَتَمَةِ السقف. وكان بها أضواء حمراء صغيرة راحت تومض وتنطفئ مرارًا وتكرارًا. وفي أثناء تحديقهما إلى الكرة، دارت ونظرت إليهما بعين زجاجية كبيرة. كانت تلك العين مرعبةً. وبدا كأنها توحى بأنها تُراقب شيئًا مرؤعًا. نادى توفلاور: «مرحبًا؟».

ظهر رأس من على حافة منضدة البيع، وبدت عليه أمارات الغضب. وقالت في اشمئزاز: «أمل أنك تنوي الدفع مقابل هذا». وبدا من سحنتها أنها تتوقع من رينسويند أن يُجيب بالموافقة، وأنها بدورها لن تصدقه.

سألت بيثان: «هذا؟ لم أكنُ لأشتري هذا لو وضعتَ به الكثير من الياقوت و...».

تدارك توفلاور الوضع سريعاً، وقال: «سوف أشتريه. كم ثمنه؟». وراح يمد يديه في جيوبه، ثم تغيّر وجهه: «في الواقع، لا أملك معي أيّ مال. إنه في متاعي، لكنني...».

سُمع صوت نخير. وبعدها اختفى الرأس من خلف منضدة البيع، ثم عاودت الظهور من خلف نافذة عرض فرش الأسنان.

كان الرأس يخص رجلاً صغيراً جداً مختلفياً بصورة شبه تامة وراء منزرٍ وبدا عليه الانزعاج الشديد.

وتعجب: «لا يوجد مال؟ دخلتما إلى متجرني...».

فردّ توفلاور سريعاً: «لم نعمد ذلك، فلم نلاحظ أنه كان موجوداً». قالت بيثان قولاً قاطعاً: «لم يكن كذلك، إنه سحري، أليس كذلك؟». سرت الحيرة في نفس صاحب المتجر وقال متفقاً بتردد: «أجل، قليلاً».

قالت بيثان: «قليلاً، سحري قليلاً؟».

فقال مُقرّاً وهو يتراجع: «أكثر من قليل إذن»، وقال متفقاً: «حسناً»، فيما لم تزغ بيثان بنظرها عنه. «إنه سحري. ولا حيلة لي في ذلك. لكنّ الباب اللعين لم يكن كذلك، ثم اختفى مجدداً، أليس كذلك؟».

- أجل، ولا نُحِبُّ ذاك الشيء المتدلي من السقف.

نظر إلى الأعلى ثم عبس وبعدها اختفى خلال مدخل بستارة من الخرز وكان شبه مخفي بين البضائع. بعدها تعالت أصوات خشخشة وهدر، ثم توارت الكرة السوداء في العتمة. وحل محلها تباغاً حفنة من الأعشاب وكانت لعبة دوّارة معلقة تعلن شيئاً لم يسمع به توفلاور من قبل، لكن بدا أنه مشروب ما قبل النوم، ودرع محارب ودمية تمساح محشوة وعلى وجهه تعبير نابض بالحياة ينم عن ألم وذهول كبيرين.

عاود صاحب المتجر الظهور.

وسألهما في إلحاح: «الوضع أفضل؟».

فأجاب توفلاور في ريبة: «إنه مجرد تحسين، أحببتُ الأعشاب أكثر». في تلك اللحظة تأوّه رينسويند وكان على وشك الاستيقاظ.

كانت هنالك ثلاث نظريات عامة وُضِعَتْ لتفسير ظاهرة المتاجر الجوّالة أو كما تُعرَف في المجمل بـ *تابرناي فاجانتس*⁽¹⁾.

وتقول الفرضية الأولى أنه منذ مئات السنين في ما مضى في مكان ما في الكون المتعدد تَطَوَّرَ جنس كانت موهبته الوحيدة هي الشراء بسعر زهيد والبيع بسعر غالٍ. وسرعان ما سادوا إمبراطورية مَجْرِيَّة أو كما سموها إمبروريم⁽²⁾، وقد وجدت الأفراد الأكثر تطوُّراً من هذا النوع سبيلاً إلى تجهيز متاجرهم الخاصة بوحدات قوة دفع مميزة يمكنها اختراق جدران الفضاء المعتمة بحد ذاتها وافتتاح أسواق فسيحة جديدة. وبعد أمد طويل من فناء عوالم مجرة إمبروريم بعد الموت الحراري لكونهم بالتحديد، بعد التخفيض الناري المُعاند الأخير، ظلَّت المتاجر النجمية الجوّالة تبيع بضاعتها، قاطعة طريقها خلال صفحات الزمكان كدودة تنحت طريقها خلال كتاب رواية من ثلاثة مجلدات.

والفرضية الثانية تقول إن المتاجر الجوّالة خُلِقَتْ بفعل قَدْر سمبثاوي مُكَلَّف بأداء دور تقديم الشيء المناسب في الوقت المناسب.

أما الفرضية الثالثة فتقول إن المتاجر الجوّالة هي مجرد طريقة ألمعية للاحتيال على القوانين المتعددة للإغلاق أيام الآحاد.

(1) باللاتينية (*tabernae vagantes*) وتعني متجر جَوَّال. (المتجمة)

(2) معناها مكان تجاري كبير يبيع البضائع كافة. (المتجمة)

واشتركتْ هذه النظريات الثلاث رغم تعددها في شيئين ألا وهما: أنها تشرح الحقائق المرئية والآخر أنها جميعاً تخلو من الصحة كُليّة.

فَتَحَ رينسوينا عينا وظل مستلقياً مكانه ناظرًا إلى الأعلى تجاه الدمية المحشوة من فصيلة الزواحف. رغم أن هذا المشهد لم يكن أفضل ما يستفيق المرء على رؤيته من أضغاث أحلامه المضطربة...

السحر! إذن هذا هو شعور السحر! فلا عجب إذن من أن السحرة لا يميلون إلى الدخول في علاقات حميمية!

ورغم أن رينسوينا قد ذاق متعة العلاقات الحميمة ولا ريب، فإنه قد جربها مرات قليلة في حياته أو برفقة إحداهن، لكن لا شيء من تجاربه قد قارب تلك اللحظة الحاسمة المشوقة عندما تدفق كل عصب في جسده بنار زرقاء مبيضة وانبتق خام السحر مشتعلًا من أصابعه. فالسحر يملأ المرء ويرفعه ثم يجعله يركب أسفل موجة القوة الطبيعية المتصاعدة والملتفة. ولا عجب أن السحرة قد حاربوا من أجل القوة والسلطة...

وما إلى ذلك من تلك الأمور. لكن كان هذا من فعل التعويذة التي تسكن رأس رينسوينا وليس هو. تسلل الكره الشديد للتعويذة إلى قلب رينسوينا. إذ كان على يقين بأنها لو لم تُرهب التعاويذ الأخرى كافة لتبقيها بعيدة عنه، لحاول التعلم ولكن بمقدوره أن يغدو ساحرًا يحظى بالاحترام لشخصه وحده.

في موضع ما من روح رينسوينا المعذبة كُشِرتْ آفةُ العصيان عن أنيابها.

فكّر: صحيح. ستعودين ثانيةً إلى الأوكتافو عند أول فرصة تتسنى لي.

استقام جالسًا وسأل وهو يُمسك برأسه لمنعها من الانفجار: «أين يكون هذا المكان بحق الجحيم».

فأجابه توفلاور والحزن يُخيم عليه: «متجر ما».

قال رينسويند: «أمل أنه يبيع السكاكين، فأنا أظن أنني أودُّ أن أقطع رأسي». وأعادته إلى الواقع شيء ما في ردة فعل الشخصين المواجهين له.

- كانت تلك مُزحة. مُزحة في الأساس على أي حال. ما داعي وجودنا هنا في هذا المتجر؟

ردّت بيثان: «لا يمكننا الخروج».

وأضاف توفلاور موضحًا: «لقد اختفى الباب».

فوقفَ رينسويند مترنحًا بعض الشيء، وقال: «أوه، أحد تلك المتاجر؟».

ردَّ صاحب المتجر بضيق: «لا بأس، إنه سحري طبعًا، وهو يتجول في الأرجاء، بلا شك، كلا، لن أخبرك بالسبب...».

- هل لي بشربة ماء، رجاءً؟

شعر صاحب المتجر بالإهانة، وردَّ غاضبًا: «في البداية لا يملكون المال، ثم يطلبون كوبًا من الماء. ما هذا إلا...».

نَحَرَتْ بيثان وخطت خطواتها السريعة إلى الرجل الصغير الذي حالما رآها حاول الرجوع إلى الوراء، غير أنه قد فات الآن.

فالتقطته بيثان من أشرطة مئزره وحدقت إليه وجهًا لوجه. ورغم فستانها الممزق وشعرها غير المرتب، قد أضحّت لحظةً مثالًا لكل امرأة

قد أمكست برجل مُحْتال خائن يتلاعب بعمره، وهمستُ: «الوقت من ذهب. سأمنحك ثلاثين ثانية كي تجلب له كوبًا من الماء. وأظن أن هذه مُقايضة، ألا تظن ذلك؟».

همس توفلاور: «في رأيي إنها مصدر رعب حقيقي عند استفزازها، أليس كذلك؟».

قال رينسوينا بفتور: «أجل».

قال صاحب المتجر الذي بدا عليه الرعب: «حسنًا، حسنًا».

أضافت بيثان: «وبعدها تدعنا نخرج».

- لا بأس بهذا عندي، فلم أكن أفتح متجري من أجل العمل على أي حال، لقد توقفتُ هنيهةً حتى آخذ الحواملَ وقد اقتحمتُ المكان!

مضى متبرمًا خلال ستائر الخرز وعاد بكوب ماء، قال وهو يتحاشى نظرة بيثان: «لقد غسلته خصوصًا».

فنظر رينسوينا إلى السائل الموجود في الكوب. على الأرجح قد نُظِّفَ السائل قبل أن يُصب في الكوب، وبشربه الآن قد تتعرض آلاف الجراثيم البريئة لإبادة جماعية.

وضع رينسوينا الكوب بحذر.

أوضحتُ بيثان قائلة: «والآن سأحظى باستحمام جيد». ومشتُ بخيلاء خلال الستارة.

لَوَّحَ صاحب المتجر بيده بحركة مبهمَةٍ ونظر إلى رينسوينا وتوفلاور في استعطاف.

قال له توفلاور: «ليستُ شخصًا بغيضًا. إنها ستُزَفُّ إلى صديق لنا».

- هل يعرف؟

فسأل رينسويند بعطف بالغ قدر ما أمكنه: «الأمور ليست على ما يرام بخصوص عمل المتجر النجمي؟».

سرتُ في الرجل الصغير رجة، وقال: «لن تصدقا. أقصد أن المرء يتعلم ألا يتوقع الكثير، يبيع المرء ها هنا وها هناك، إنه سبيل لكسب العيش، تفهم ما أرمي إليه؟ لكنَّ الناس الذين يتعثرون بهم المرء هذه الأيام، أولئك الأشخاص الذين يرسمون نجومًا على وجوههم، حسنًا، بالكاد يتسنى لي الوقت لأفتح المتجر فهم يهدِّدونني بحرقه. فحسب قولهم إنه به الكثير من السحر. لذا فإنِّي أقول طبعًا سحري، ما الذي في جعبتك؟».

فسأل رينسويند: «هل هنالك العديد منها إذن؟».

- في كل مُنْبَسَط القرص يا صديق. ولا تسألني عن السبب.

قال رينسويند: «إنهم يؤمنون أن النجم سيرتطم بالقرص».

- هل هو كذلك؟

- يظنُّ كثير من الناس ذلك.

- يا للعار، لقد أسستَ عملاً تجاريًا مربحًا هنا. سحريًا للغاية، على

حد قولهم! ما خطب السحر، هذا ما أبتغي معرفته؟

سأله توفلاور: «ما الذي أنت فاعله؟».

قال صاحب المتجر بهدوء وارتياح: «أوه، سأذهب إلى كُونٍ ما آخر،

فثمة العديد منها في الجوار. شكرًا لإخباري بأمر النجم على كل حال.

هل تريدون أن أوصلكم إلى مكان ما؟».

ركلتِ التعويذة عقل رينسويند، فقال: «أأأ، لا. أظن أنه ربما من

الأفضل لنا البقاء. لنر إلى أين ينتهي الأمر، كما تعلم».

- أنتَ لستَ قلقًا من أمر النجم هذا إذن؟

- في النجم الحياة لا الموت.

- كيف هذا؟

- كيف ماذا؟

قال توفلاور مشيراً بإصبع الاتهام: «لقد عاودت الكرّة. تتفوه بأشياء ولا تعلم أنك تفوهت بها!».

- لقد قلتُ للتو إنه من الأفضل لنا البقاء.

فردّ توفلاور: «لقد قلت إن في النجم الحياة لا الموت. وبدا صوتك مشوشاً وبعيداً جداً. أليس كذلك؟». واستدار لينال تأكيد صاحب المتجر. قال الرجل الصغير: «هذا حقيقي، كما أظن أن عينيه احوّلتا قليلاً».

قال رينسويند: «إن هذا من فعل التعويذة إذن إنها تحاول السيطرة عليّ، فهي على علم بما هو كائن في المستقبل، وأظن أنها تريد الذهاب إلى عنخ-موربورك، كما أنني أريد الذهاب كذلك». وأضاف بنبرة كُلمها تحدّد: «أيمكنك أن تذهب بنا إلى هنالك».

- أتلّك هي المدينة المُطلّة على نهر عنخ؟ ذاك المكان مترامي الأطراف الذي تفوح منه رائحة بالوعات الصرف؟

قال رينسويند بصوت جافّ بان فيه فخره المجروح بتحضره: «إن لها تاريخاً عتيقاً مُشرفاً».

قال توفلاور: «لم يكن هذا وصفها الذي وصفته لي. لقد قلت لي إنها كانت المدينة الوحيدة التي كانت وضيعة في بدايتها».

بدأت أمارات الإحراج على وجه رينسويند، وقال: «أجل، لكنّ حسناً، إنها موطني ودياري، ألا يبدو هذا جلياً لك؟».

قال صاحب المتجر: «كلا، ليس حقيقياً لطالما أقول إن موطن المرء هو حيث يُعلّق قبعته».

قال توفلاور الذي كان من دأبه القلق عند إيضاح أفكاره: «إممم، لا المشجب هو حيث يعلق المرء قبعته. لكنَّ الموطن هو...».

قال صاحب المتجر بسرعة فيما تدخَّل بيثان: «سأنطلق من فوري وأنظر في أمر إيصالكم إلى طريقكم». وغادر المكان مارًّا بها مسرعًا. تبعه توفلاور.

كانت ثمة غرفةٌ على الطرف الآخر من الستارة تضمُّ سريرًا صغيرًا وموقدًا متسخًا ومنضدةً لها ثلاثة أرجل. ثم أحدث صاحب المتجر شيئًا بالمنضدة فصدر صوت يشبه صوت سداة فلين تنخلع مترددةً عن قنينتها، حينها ظهر في الغرفة كون يغطي أرضية الغرفة بأكملها.

قال صاحب المتجر والنجوم تتدفق من حولهم: «لا تخافوا». ردَّ توفلاور وراحت عيناه تلمعان: «لستُ خائفًا».

قال صاحب المتجر وقد أصابه شيء من الضيق: «أوه، على أي حال، إنها صورة مولدة من قبل المتجر فهي ليست حقيقية».

- إذن لك القدرة على الذَّهاب إلى أي مكان؟

أجاب صاحب المتجر قائلاً وقد بلغتْ صدمته مبلغًا كبيرًا: «أوه، لا. هناك العديد من أنظمة الأمان عند التعطل المدمجة في المتجر على كل حال، فلا جدوى من الذَّهاب إلى مكان ما لا يتوفر فيه معدل دخل متاح غير كافٍ للفرد. ولا بدَّ من وجود حائط مناسب بلا ريب. أه، ها نحن ذا قد وصلنا، هذا كونكم. لطالما اعتقدتُ أنه صغير جميل. تلوح في الأفق جامعة أو ما يشبه ذلك...».

هنا يقبع ظلام الفضاء الذي تلمع فيه وفرة من النجوم مثل حبات الغبار الماسيِّ، أو حسب أقاويل أناس آخرين، مثل كرات كبيرة متكونة

من غاز الهيدروجين المنفجر منذ زمن سحيق بعيد. لكن من ناحية أخرى، لم يكن ليطلق عليها بعض الناس أي شيء.

وما لبس أن حجب ظلُّ ما البريقَ القادمَ من بعيد، كان أشدَّ ظلمةً وسوادًا من الفضاء نفسه.

من هذا الموضع يبدو الظل أكبر بكثير لأن الفضاء ليس بهذا الحجم الكبير في الحقيقة، بل هو مجرد مكان تكون الأشياء كبيرة فيه. فالكواكب كبيرة، لكن من طبيعة الكواكب أن تكون كبيرة ولا توجد لمحة من نكاء حيال وجود الحجم الصحيح.

لكنَّ ذاك الشكل الذي كان يحجب رؤية السماء مثل كرة قدم لإله ما لم يكن كوكبًا.

كان الشكل هذا غيلماً، وهنالك مسافة ألف وستمئة متر ما بين رأسه الذي ثقبته الحفر إلى ذيله المصْفَح.

ثم إن أتوين العظيم ضخم.

وترتفع زعانفه وتهبط ببطء قاتل، وهذا ما يتسبب في تشوه الفضاء إلى أشكال غريبة. راح عالم القرص ينزلق في أرجاء السماء مثل بارجة ملكية. لكن لم يسلم أتون العظيم حتى من ملاقات الصعاب في الوقت الحالي فيما يرتحل عن أعماق الفضاء الخاوية وعليه أن يواجه ضغوط المياه الضحلة الشمسية. إذ إن السحر أضعف هنا، على حافة شاطئ الضوء. ولو طلعت على عالم القرص أيام أخرى مثل هذه فسيزول القرص الذي يعمل بقوة السحر بفعل ضغوط الواقع الخالي من السحر. وأتوين العظيم على علم بهذا، لكنه يقدر على تذكر أنه فعل كل هذه الأشياء من قبل منذ مئات السنين.

لم تكن عينا الغيلم البحري الفلكي اللتان تتوهجان باللون الأحمر في ضوء النجم القزم تركزان عليه، لكن على رقعة صغيرة من الفضاء قريبة...

*

سأله توفلاور: «طبعًا، لكن أين نحن؟». فما كان من صاحب المتجر المنحني فوق منضدته إلا أن هزَّ كتفيه، وقال: «لا أظنُّ أننا موجودون في أي مكان، أعتقد أننا في تعارض جيب التمام. قد أكون على خطأ، لكنَّ المتجر يعرف ما يفعله عامة».

- تقصد أنك لا تعرف؟

ردَّ صاحب المتجر وهو يتمخّط: «دائمًا ما أحلُّ وأرتحلُّ، فتارةً أخطُّ رحالي في عالم يفهم أهله هذه الأمور». ثم التفت بعينين صغيرتين يملأهما الحزن إلى توفلاور، واستطرد: «لك وجه طيب يا سيدي، ولا أخفي عليك قولاً».

- أي قول؟

- هذه ليست بحياة يعيشها المرء، كما تعلم بخصوص المتجر. فدومًا في حلِّ وارتحال ولا سبيلَ للاستقرار ولا سبيلَ للإغلاق.

- ولم لا تتوقف إذن؟

تمخّط ثانية وقال: «آه، هذا هو المراد، أترى يا سيدي لا قدرة لي على هذا فأنا خاضع للعنة، أنا كذلك بالتأكيد. أمرٌ مروّع».

- لعنة بإدارة المتجر؟

- إلى الأبد يا سيدي، إلى الأبد. ولا سبيلَ للإغلاق أبدًا! لمئات السنين! لقد كان هنالك هذا الساحر كما تعلم. وقد اقترفتُ فعلة مروّعة.

سأل توفلاور: «في متجر؟».

فقال موضحًا: «أوه، أجل. لا تسعفني ذاكرتي على تذكُّر الشيء الذي أراده، لكنَّ عندما طلبَ الشيء أصدرتُ. أصدرتُ صوتَ شَفْط، كما تعلم، مثل الصَّفير لكن إلى الداخل؟».

بدتِ الكآبة مرتسمَةً على وجه توفلاور، لكنه في صميم قلبه كان رجلًا طيبًا وكان دومًا مستعدًّا لغفران الزلات.

وقال متمهلاً: «أرى ذلك، حتى إن...».

- هذا ليس كل ما في الأمر!

- أوه.

- لقد أخبرته أنه لا يوجد طلب على الشيء الذي يريده.

- بعد أن أصدرت صوت الشَّفْط؟

- أجل، وربما أكون قد ابتسمتُ كذلك.

- أوه، يا عزيزي. ألم تناديه يا سيدي، ألم تفعل؟

- لقد ناديتُهُ.

- اممم.

- ثمة المزيد بعد.

- حقًا؟

- أجل، لقد ذكرتُ أنه يمكنني طلب الشيء ويمكنه أن يعاود المجيء

في اليوم التالي.

قال توفلاور: «لا يبدو أن هذا أمرٌ تلام عليه»، وكان توفلاور الشخص الوحيد من بين جموع الناس في الكون المتعدد من سمح للمتاجر بطلب الأغراض له ولم يُبَد أي اعتراض مطلقًا على دفع مبالغ مالية كبيرة كمقابل لصاحب المتجر لانزعاجه من بقاء بعض المخزون في متجره عدة ساعات في الغالب.

قال صاحب المتجر: «كان يوماً من الأيام التي يُطبَّق فيها الإغلاق المبكر».

- أوه.

- أجل، وقد سمعته يحاول الدخول ويهزُّ مقبض الباب. وكانت على بابي تلك اللافتة، كما تعلم، التي تقول شيئاً من قبيل: 'مغلق حتى لبيع سجاجير مستحضري الأرواح'، على أي حال، سمعته يقرع الباب، لكنني ضحكتُ.

- أضحكت؟

- أجل، هكذا هنيفههنيفههنيفههبلرت.

قال توفلاور وهو يهز رأسه استنكاراً: «لم يكن من الحكمة الضحك على الأرجح».

قال: «أعرف، أعرف. فلطالما قال أبي، قال 'لا تتاجر في أغراض السحرة...'. على أي حال، سمعته يهتف قائلاً شيئاً عن عدم الإغلاق مجدداً على الإطلاق والكثير من الكلمات التي يستعصي عليَّ فهمها، وبعدها المتجر - المتجر - دبَّت فيه الحياة».

- وكُتِبَ عليك التجوُّل على هذه الحال من حينها؟

- أجل، افترض أن في يوم ما قد أجد الساحر وربما يكون الشيء الذي أراه موجوداً في المخزون. وإلى أن يحين هذا، مكتوب عليَّ أن أحلَّ وأرتحل...

قال توفلاور: «يا له من أمر فظيع».

مسح صاحب المتجر أنفه في مئزره، وقال: «شكراً لك».

أضاف توفلاور: «وحتى مع هذا، لم يكن ينبغي له أن يُلقَى باللعنة عليك بهذه الطريقة المرؤعة جداً».

قال صاحب المتجر وهو يُهنِّدُ مئزره ويحاول محاولةً صغيرةً شجاعةً لاستجماع ذاته: «أوه. أجل، حسنًا. على أي حال، سيُوصِلُك هذا إلى عنخ-موربورك، أليس كذلك؟».

قال توفلاور: «الأمر المضحك أنني ابتعتُ متاعي من متجر كهذا ذات مرة. أقصد متجرًا آخر».

قال صاحب المتجر وهو يستدير ناحية المنضدة: «أوه أجل، هنالك العديد من متاجرنا. كان هذا الساحر نَزَقًا قليلَ الصبر، أنا متفهم الأمر».

فقال توفلاور وهو غارق في التفكير: «التجول غير المنقطع في أرجاء الكون».

- حَقًّا قَلتَ. مع أنه هنالك توفير في الأسعار.

- أسعار؟

قال صاحب المتجر: «أجل إنها...».

ثم وقف هنيهةً، وتغضنت جبهته ثم استطرد: «لا تسعفني ذاكرتي، فقد فات زمن طويل على هذا. الأسعار، الأسعار...».

- فئران كبيرة جدًا؟

- هذا هو المقصود على الأرجح.

قال كوهين: «تريث. إنه يفكر في أمر ما».

رفع لأكجو بصره وعلى وجهه آيات السأم إذ كان الجلوس هنا في الظل أمرًا في غاية الراحة والاسترخاء. وقد فطنَ من فوره إلى أنه في محاولته للفرار من المدينة التي تعجُّ بالحمقى المجانين قد سمح لرجل

واحد مجنون أن يستحوذ على كل انتباهه. وتساءل أن لو كان سيعيش وتمنحه الحياة فرصةً للندم على هذا.

وأملَ أملاً صادقاً في هذا.

قال بمرارة: «أوه أجل، إنه يفكر بكل تأكيد. بمقدور أي أحد رؤية هذا».

- أظن أنه وجدهم.

- أوه، خبر عظيم.

- أمسك به.

قال لأكجُو: «هل جُننت؟».

- أنا أعرف حقيقة هذا الشيء، صدّقني. على كل حال، بديلاً عن

هذا، أتودُّ لو بقيت مع الأشخاص ذوي النجوم هؤلاء؟ قد يكون لهم

اهتمام بالحديث معك؟

انسلَّ كوهين فوق المتاع خفيةً، ثم رمى بنفسه وقدميه على جانب

المتاع. فلم يحرك المتاع لذلك ساكناً.

وقال كوهين: «هيا أسرع، أظن أنه سيذهب».

هَزَّ لأكجُو كتفيه وتسلق وراء كوهين غاضباً: «أوه؟ وكيف له أن

يذ...».

عنخ-موربورك!

لؤلؤة المدائن!

هذا ليس وصفاً دقيقاً تماماً، طبعاً - فلا هي مستديرة ولا براقعة مثل

اللؤلؤ - فحتى أشد أعدائها كان ليتفق أن لو تعين على المرء تشبيه

عنخ-موربورك بأي شيء، إذن قد تكون كذلك قطعة من القانورات مغطاة بإفرازات مليئة بالأمراض لكائن رخوي ميت.

كانت هنالك مُدُنٌ أفسحَ وأكبرَ. وكانت هنالك مُدُنٌ أغنى. ومما لا شك فيه أنه كانت هنالك مُدُنٌ أجمل. لكنْ لا توجد مدينة في فسحة الكون المتعدد يمكنها أن تضاهي عنخ-موربورك في رائحتها.

فقد أجمع الأقدمون الذين كانوا حاضرين شاهدين على كل ما يخص الأكوان، وقد اشتُمُوا روائح كالكوتا وإكسرس...! ودانتاكم مارسبورت، إن هذه الأمثلة الدقيقة للشعر الأنفي ما هي إلا قصائد خماسية فكاھية عند مقارنتها بأبهة رائحة عنخ-موربورك وعظمتها.

لك أن تذكر المتشردين ولك أن تذكر الثوم. ولك أن تذكر فرنسا وواصلِ الحديث عن هذا. لكنْ إن لم تشم رائحة عنخ-موربورك في يوم حار، فأنت لم تشتم رائحةً أي شيء.

ومواطنو المدينة من رائحتها في فخر كبير إذ يحملون كراسيهم إلى الخارج ليستمتعوا بالرائحة في يوم طيب أنيس. فهم ينفخون خدودهم ويضربون صدورهم ويعلقون بسعادة على الفروق الدقيقة المميّزة بين الروائح. ومن شدة ولعهم بها وضعوا لها تمثلاً احتفاءً بذكرى الوقت الذي حاولت فيه قوات بلدِ خَصْمٍ لهم غزو مدينتهم خفية في ليلة ظلماء وقد نجحتِ القوات في اعتلاء الأسوار قبل أن تسقط سدادات أنوفهم وهو ما كان سبباً كافياً لرعبهم. ويبيعت أثرياء التجار الذين قضوا سنينَ عدّة من حياتهم خارج المدينة للديار من أجل الحصول على قنينات ذات سداة مخصصة ومُحكمة الإغلاق معبأة بتلك الرائحة، والتي تُرْفِقُ الدمع في أعينهم.

إن للرائحة هذا النوع من التأثير.

والسبيل الوحيد الحقيقي لوصف تأثير رائحة عنخ-موربورك في الأنف الزائر هو بالقياس.

أحضرتُ قطعةً من نسيج الطرطان. رشَّها بنثار الزينة. وأضئتها بمصابيح اصطرابية.

والآن أحضرتُ حرباء.

ضع الحرباء على نسيج الطرطان.

راقبها من كثب.

أترى؟

وهذا ما يفسر السبب الذي جعل رينسويند حينما تجسَّد المتجر بوجوده في عنخ-موربورك يجلس منتصبًا، وقال: «لقد وصلنا». وقد شحب وجه بيثان وقال توفلاور الذي لم يكن له أدنى حس بتمييز الروائح: «حقًا؟ كيف يمكنك معرفة هذا؟».

لقد قضوا وقتَ ظهيرة طويلاً، فقد دخلوا إلى الفضاء الحقيقي من عدة جدران في عدد من المدن لأنه وفق ما يعتقدُه صاحب المتجر، كان الحقل السحري للقرص يلهو عابثًا ومُخرَّبًا كل شيء.

كانت المدن كافة خاوية من معظم سكانها واستولت عليها عصابات جوّالة من أناس مهوَّسين بالأذن اليسرى.

سأل توفلاور وهم يفرون من حشد آخر من الناس: «من أين يأتون جميعهم؟».

قال صاحب المتجر: «في كل امرئ عاقل ثمة آخرٌ مجنون يكافح من أجل الخروج. هذا معتقدي الدائم. فلا يتحول المرء إلى الجنون سريعًا إلا إذا كان امرأ تائم العقل».

قالت بيثان: «هذا يخلو من العقلانية، أو لو كان عقلاً، فلا يعجبني».

كان النجم أكبر من الشمس. فلن يهبط الليل هذه الليلة. وبذلت شَمَيْسَةَ القرص المتربعة في الأفق المقابل جهدها حتى تأوي إلى الغروب بطريقتها الطبيعية، إلا أن التأثير العام لكل هذا الضوء الأحمر قصد إلى إظهار المدينة التي لم تحظْ قطُّ بأي جمال تبدو كأنها لوحة رسمها فنان مُهوَّس بعد أن قضى وقتاً تَعَسَّاً في استخدام مُلَمَّع الأحذية. لكنها كانتِ الديار. إذ راح رينسوينا يُنعم النظرَ في الشوارع الخاوية واعتراه شعور بسعادة شبه تامة.

أخذت التعويذة التي سكنت مؤخرَةً عقله تفتعل شجاراً وجلبةً، لكنه لم يعبأ بها. ربما صحَّ أن السحر كان يزداد ضعفاً كلما اقترب النجم، أو ربما أنه حمل التعويذة في رأسه وقتاً طويلاً جداً حتى إنه قد طوَّر مناعة نفسية لا شعورية من نوع ما، إلا أنه وجد من نفسه القدرة على مقاومتها.

أعلن رينسوينا: «إننا في مراسي السفن. استنشقوا نسيمَ البحر هذا فحسب!». .

قالت بيتان وهي تستند إلى الحائط: «أوه، أجل».

قال رينسوينا: «إنه الأوزون، بالتأكيد»، واستنشق الهواء عميقاً، واستطرد: «ذاك الهواء ذو الخصائص المميزة، طبعاً».

استدار توفلاور إلى صاحب المتجر، وقال: «حسناً، أمل أن تعثر على الساحر. وآسف لأننا لم نشترِ أي شيء، فكل أموالنا في المتاع، كما ترى».

دفع صاحب المتجر بشيء في يد توفلاور: «هدية صغيرة، ستحتاج إليها».

ثم تراجع في خفةٍ عائداً إلى متجره وصلصل الجرس وأسدت لافتة ارتطمتُ بالباب بطريقة توحى بالحزن والبؤس تقول «عُد في الغد من أجل علق سبونفيتشر، المصّات الصغيرة»، ثم اختفى المتجر في مبنى من القرميد كأنه لم يكن. مدّ توفلاور يده في حذر بالغ ولمس الحائط، فلم يكن مصدقاً الأمر تماماً.

سأله رينسويند: «ما الذي في الحقيبة؟».

كانت حقيبة بنية سميكة ورقية لها يدان من الحبال.

قالت بيتان: «لو خرج لها سيقان، فلا أهتم لهذا الأمر».

نظر توفلاور داخل الحقيبة، وأخرج منها محتوياتها.

سأله رينسويند: «أهذا كل شيء؟ بيت صغير تنتشر عليه الأصداف؟».

فردّ توفلاور عليه مدافعاً: «إنه مفيد جداً، يمكنك الاحتفاظ بالسجائر

فيه».

فقال رينسويند: «وهي ما تحتاج إليه بالتحديد، أليس كذلك؟».

ردّت بيتان: «كنت لأفضل زجاجةً من زيت التسمير القوي جداً».

قال رينسويند: «هياً تعاليا»، وانطلق يقطع الشارع فتبعه الآخران.

خطر لتوفلاور أنه ينبغي قول بعض كلمات الطمأنينة والترويح،

مجرد حديث قصير لبقٍ للتسرية عن بيتان، كما يقولها بلغته، وإدخال

السرور على قلبها عامة.

- دعي عنك القلق، فثمة فرصة لأن يكون كوهين لا يزال حياً.

قالت: «أوه، أتوقع أنه حيٌّ ولا بأس به»، وراحت تخبط بقدميها على

طول امتداد الحصى كأنها قد رفعت شكاوى شخصية ضد كل واحدة

منها. وأردفت: «لا يبلغ المرء سن السابعة والثمانين في نوعية العمل

الذي يشتغل به إذا كان يجوب الأنحاء والموت يطارده في كل موضع.
لكنه ليس هنا».

قال توفلاور: «ولا متاعي. وطبعًا هذان أمران مختلفان».

- أتظن أن النجم سيرتطم بالقرص؟

قال توفلاور وكله ثقة: «لا».

- ولم لا؟

- لأن رينسوينا لا يظن هذا.

رنت بعينها إليه في زهول.

تابع السائح قائلاً: «كما ترين، أتعرفين الغرض الذي من أجله
يستخدم المرء العشب البحري؟».

لقد ترعرعتُ بيثان في سهول الدوامة فلم تسمع بالبحر إلا في
الحكايات، وقد قررتُ أنها لا تحبه. وعلا وجهها الزهول.

- يؤكل؟

- كلا، ما تفعليته هو تعليقه خارج بابك ويخبرك أكانت السماء
سُتْمَطِر.

وتعلمت بيثان شيئاً آخر وهو أنه لا جدوى من محاولة فهم أي شيء
يتفوه به توفلاور، وأن جُلَّ ما يمكن للمرء فعله هو مجاراة حديثه وتغيير
الموضوع عند أول فرصة سانحة.

وعليه قالت: «فهمت هذا».

- رينسوينا مثل هذا، كما ترين.

- مثل عشب البحر.

- نعم، لو كان من شيء يستدعي الخوف والرعب، لكان رينسوينا خائفًا. لكن لم يمسه شيء من الخوف. فالنجم هو الشيء الوحيد الذي لم أجد رينسوينا خائفًا منه. فلو لم يكن رينسوينا قلقًا، فاسمعي نصحي، ليس ثمة شيء يستدعي القلق.

تساءلت بيتان: «هل ستمطر؟».

- حسنًا، لا، كان كلامًا من باب المجاز.

قالت بيتان: «أوه»، وقد قررت ألا تطرح أي سؤالٍ عن معنى 'المجاز'، حال كان شيئًا له علاقة بعشب البحر.

التفت لهم رينسوينا: «هلمًا، لقد اقتربنا الآن».

سأل توفلاور: «إلى أين وجهتنا؟».

- الجامعة الخفية بلا ريب.

- أهذا رأي سديد؟

قال رينسوينا: «على الأغلب ليس كذلك، لكنني مُصرٌّ على الذهاب...»، ثم توقف هنيئًا، وعلت وجهه سيماء تنمُّ عن الألم. ثم وضع يده على أذنيه وتأوه.

- هل تؤرقك التعويذة؟

- يارج⁽¹⁾.

- جرِّب أن تُتمِّم.

بدا التجهم على وجه رينسوينا، وقال بصوت أجشٍّ: «سأتخلص من هذا الشيء، ستعود إلى الكتاب حيث أنت. فأنا أريد استعادة رأسي!».

(1) معناها «نعم» في لغة القراصنة. (الترجمة)

قال توفلاور: «لكن حينها...»، ثم توقف. إذ أمكن لهم جميعاً سماع هذا؛ وقع غناء وصفق أقدام كثيرة يعلو من بعيد. سألت بيثان: «أتظنونهم قوم النجم؟».

كانوا هم فعلاً. وظهرت طليعة المشاة عند زاوية تبعد قدر مئة ياردة، وكانت تتقدمهم لافتة بيضاء مُهللة مطبوع عليها نجمة ثمانية. قال توفلاور: «ليسوا قوم النجم فحسب، بل أناس من كل حذب وصبوب!».

جرَّهم الحشد في طريقه، ففي لحظة كانوا واقفين في شارع مهجور وفي اللحظة التالية رغماً عنهم يتحركون مع موجة البشر التي حملتهم سائرين إلى الأمام خلال جنبات المدينة.

خَفَق ضوء المشعل وارتعش بسهولة في الدهاليز الرطبة الواقعة بعيداً جداً تحت الجامعة في حين أخذ رؤساء الجماعات السحرية الثمانية بالتقدم مصطفين.

قال أحدهم: «على الأقل الجوُّ هنا بارد».

- لا ينبغي لنا أن نكون هنا في الأسفل.

لم ينبس تريمون الذي يقود الجَمع ببنت شفة، إلا أنه غرق في بحر أفكاره. كان باله مشغولاً بقنينة الزيت الموجودة في حزامه والمفاتيح الثمانية التي يحملها السحرة؛ ثمانية مفاتيح ستجد لنفسها منفذاً في الأقفال الثمانية التي تُغلغل الأوكتافو بالأغلال في مقرأه. وخيّل إليه أن السحرة كبار السن الذين يملكهم إحساس بأن السحر يتقلص ويختفي مشغولون بمشكلاتهم وحدهم وربما حتى يُولون اهتماماً أقل مما يجب

عليهم. كان يفكر أنه خلال دقائق معدودة سيكون رهن يديه الأوكتافو؛
أعظم تَجمع للسحر على وجه القرص.

ورغم البرود التي تنتشر في الدهليز فقد بدأ يتصبب عرقًا.
وَصَلَ السحرة إلى باب مُبَطَّنٍ بالرصاص مُرَكَّبٍ في الحجر الخالص.
ثم أخرج تريمون مفتاحًا ثقيلًا؛ مفتاحًا مُتَقَنَّأً أصيلًا ليس مثل المفاتيح
المُعَوَّجَةِ المُربِكة التي ستفض أقفال الأوكتافو، ورَشَّ القفل برشَّة من
الزيت ثم أدخل المفتاح وأداره. فصَرَ القفل كأنه صرير اعتراض.
سألهم تريمون: «هل نحن أشخاص نتحلى بالعزيمة والإصرار؟». سرت
همهمات مبهمة توحى بالتأكيد.

حينها دفع تريمون الباب.

فهبَّت عليهم هبةٌ هوجاء دافئة من الهواء الثخين والمُزَيَّتِ إلى حد ما.
كان الهواء زاحمًا بثرثرة عالية النبرة تعافها الأذان. وتوهجت شرارات
طفيفة من نار الأوكتارين عند كل أنف وظفر ولحية.

تقدَّم السحرة إلى الأمام ورؤوسهم منحنية في وجه عاصفة السحر
العشوائي التي هبَّت من الغرفة. وراحت أشكال غير كاملة الهيئة تُقهقه
وترفرف من حولهم إذ إن ساكني الكوابيس من زنازين الأبعاد لطالما
حاولوا سَبْر دائرة ضوء النار - بأشياء تُعادل الأصابع لأنها فحسب كانت
عند نهاية الذراعين - من أجل الدخول مباشرة إليها والتي كانت تمثل
كونَ العقل والنظام.

وحتى في ظل هذا الوقت العصيب على كل ما هو سحري، وحتى في
حجرة صُمَّتْ خصوصًا لإخماد كل الاهتزازات السحرية، كان الأوكتافو
يقرقع ويطلق بفعل القوة الكامنة فيه.

لم تكن ثمة حاجة إلى المشاعل، فقد ملأ الأوكتافو الغرفة بضوء مُعْتَمٍ كئيب، وهو ما لم يكنُ ضوءاً على الإطلاق لكنه نقيض الضوء، فالعَتْمَةُ ليست نقيضَ الضوء، بل هي ببساطة غيابه، والذي كان يشعُّ من الكتاب هو الضوء الذي يقع على الطرف الأبعد من العَتْمَةِ، الضوء الباهر. كان لوننا أرجوانياً شديداً الكآبة.

وكما سبق علمه، كان الأوكتافو مقيداً بالسلاسل إلى مقرأ منحوت على شكل شيء بدا كالطيور بلا هيئة واضحة، وكان يشبه الزواحف إلى حد ما وينبض بالحياة لدرجة مخيفة. نظرتُ عينان برأقتان إلى السحرة بكراهية خفية.

قال أحدهم: «لقد رأيتُهُ يتحرك».

فردَّ تريمون: «إننا بمأمن ما دمنا لم نمسَّ الكتاب». ثم أخرج لفافة من جزامه وفتحها.

- قَرَّبَ هذا المِشْعَلُ إلى هنا. وأطفئ هذه السيجارة!

انتظر تريمون تفجُّر الكبرياء المُحْتَقِنَةِ، غير أن شيئاً لم يحدث، فما كان من الساحر المذنب إلا أن أخرج عقب السيجارة من بين شفثيه بأصابع مرتجفة ودعسها في الأرضية.

بدا الابتهاج على وجه تريمون. لذا فكَرَّ في نفسه قائلاً، إنن هم يفعلون ما أطلبه منهم. في الوقت الحالي فحسب، ربما لكنَّ الوقت الحالي فحسب هو المطلوب.

أمعنَ في النظر إلى الكتابة المرؤعة التي خطَّها ساحر غيِّبه الموت منذ أمد بعيد: «حسناً، لنرَ: «طلباً لرضاه، الشيء الذي هو الحامي...».

تدفَّق الحشد فوق أحد الجسور التي تربط موربورك بعنخ. ومن تحت الجسر كان النهر الذي لطالما كان عامراً بالماء في أطياب الأزمان وقد غدا خيط رفيع من الماء يتَبَخَّر.

راح الجسر يهتَزُّ من تحت أقدامهم أكثر مما يلزم. وسرى تموج صغير غريب على البقايا الطينية للنهر. وانزلقت بضع قراميد من على سطح أحد المنازل القريبة.

سألها توفلاور: «ما كان هذا؟».

نظرت بيثان من خلفها ثم راحت تصرخ.

كان النجم يرتفع في السماء. فبينما هُرِعَتْ شمس القرص إلى مغربها لتضمن سلامتها تحت الأفق، صعدت الكرة العظيمة الآخذة في النمو ببطء إلى كبد السماء حتى كانت كلها على بُعد درجات فحسب من حافة العالم.

ثم جذبوا رينسوينا إلى جِمي أحد المداخل. وأخذ الحشد الذي بالكاد انتبه إلى وجودهم يهرول فزعاً مثل قوارض اللاموس.

قال توفلاور: «ثمة بُقْع على النجم».

أجابه رينسوينا: «لا، إنها... أشياء. أشياء تدور حول النجم. كدوران الشمس حول القرص. لكنها قريبة جداً لأنها، لأنها...»، وتوقف ثم تابع: «أنا شبه عارف بهذا!».

- عارف بماذا؟

- عليّ التخلص من هذه التعويذة!

سألته بيثان: «من أي طريق تكون الجامعة؟».

أجابها رينسوينا مشيراً إلى الشارع: «من هذا الطريق!».

- لا بُدَّ أنه طريق شائع جداً، فالجميع يتجه إليه.

فتساءل توفلاور: «أتساءل عن السبب وراء ذلك؟».

قال رينسويند: «بطريقة ما، لا أظن أنه للتسجيل في الفصول المسائية».

في واقع الأمر كانت الجامعة الخفية تحت الحصار، أو على الأقل كانت الأجزاء البارزة للأبعاد العادية اليومية هي التي تحت الحصار. وكانت الحشود المجتمعة خارج أبوابها يطالبون بمطلب من مطلبين عامة. فقد طالبوا إما: أن يتوقف السحرة عن اللهو والعبث ويخلصونهم من النجم. وإما: وكان هذا المطلب محببًا لدى قوم النجم، عليهم أن يوقفوا كل السحر وينتحمروا وفق ترتيب منظم، وبهذا يكونون قد خلصوا القرص من لعنة السحر وحصّنوا أنفسهم من الخطر المحدق بهم في قلب السماء.

وأما السحرة على الجانب الآخر من الجدران فلم تكن لهم أدنى فكرة عن طريقة فعل الأمر الأول ولا نية لهم في فعل الأمر الثاني، وقد مال العديد منهم إلى الأمر الثالث، وهو ما كان يتألف بشكل كبير من الإسراع في الجري من الأبواب الجانبية الخلفية وقطع الطريق على أصابع أقدامهم بأقصى سرعة ممكنة، إن لم يكن أسرع من السرعة الممكنة.

وقد استُحضر ما تبقى من السحر الذي قد يُعتمد عليه والموجود في جنبات الجامعة لتأمين البوابات الكبيرة. ورغم تعلّم السحرة أن وجود مجموعة من البوابات مقفلة بالسحر أمر في غاية العُجب والروعة، كان ينبغي أن يخطر لعمال البناء أن يضمنوا نوعًا من أجهزة الطوارئ الاحتياطية، مثل مزلاجين من الحديد العادي الضخم بشع المنظر.

في الميدان الواقع خارج نطاق البوابات أُشِعِلَت العديده من النيران الكبيرة في العراء، لتزيد من غرابة الأجواء شأنها كشأن كل الأمور الأخرى، لأن الحرارة المنبعثة من النجم كانت شديدة وحارقة.

قال توفلاور: «لكن لا يزال بوسع المرء رؤية النجوم، أقصد النجوم الأخرى. تلك الصغيرة. في ظلمة السماء».

لم يعبأ به رينسويند، فقد كان ينظر إلى البوابات وقد أخذت ثلثة من جماعة النجم والمواطنين تحاول ضرب البوابات لتحطيمها.

قالت بيتان: «إنه أمر ميؤوس منه، لن نفلح في الدخول مطلقًا. إلى أين ستذهب؟».

أجاب رينسويند: «سنذهب لنتمشى»، ثم أخذ يمشي بإصرار إلى شارع جانبي.

في طريقهم وجدوا واحدًا أو اثنين من مفتعلي الشغب المأجورين، وغلب على حالهم الانشغال بتحطيم المتاجر. لكن رينسويند لم يعرهم أيَّ اهتمام، فقد تابع سيره بمحاذاة الجدار حتى وجد الجدار يسير موازيًا لزقاق مُظلم تفوح منه الرائحة المعتادة الكريهة التي تفوح من كل الأزقة في كل مكان.

راح رينسويند ينظر من كُتَب إلى البناء الحجري. وعلا الجدار قدر ستة أمتار عند هذا الموضع وكانت هنالك نتوءات معدنية حادة في أعلاه. وقال: «أريد سكينًا».

سألته بيتان: «هل ستشق طريقك إلى الداخل بها؟».

ردَّ رينسويند: «اعترا لي على سكين فحسب». وراح ينقر الأحجار.

تبادل توفلاور النظرات مع بيثان، ثم هز كتفه. وفي غضون دقائق عادا حاملين تشكيلة من السكاكين، حتى إن توفلاور تمكن من العثور على سيف.

قالت بيثان: «لقد تدبرنا حالنا».

قال توفلاور: «لكننا تركنا بعض المال. أعني، كنا لنترك بعض المال لو كان بحوزتنا أي مال...».

قالت بيثان بنبرة توحى بالسأم: «وعليه أصرَّ على كتابة ملحوظة بخصوص الأمر».

استقام توفلاور مُمدِّداً جسده ليظهر طوله الكامل في إباء، وهو ما كان أمراً لا يستحق العناء، وقال بحدّة: «لا أرى مُسوغاً...».

فقالت بيثان وهي جالسة في وجوم على الأرض: «أجل، أجل. أعرف أنك لا تفعل. لقد تحطمت كل المتاجر فعدت مفتوحة. وكان هناك جَمْع كبير من الناس منتشرين في أنحاء الشارع يتدبرون أحوالهم ويأخذون آلاتٍ موسيقيةً، هل بوسعك تصديق ذلك؟».

ردَّ رينسويند: «أجل»، والتقطَ سكيناً وأخذ يُجربُ نصلها بحرص. واستطرد: «عازفو العود حسب ظني».

ثم أعمل النصلَ في الجدار ولفَّه وتراجع فيما يسقط حجر ثقيل. نظر إلى الأعلى وراح يَعدُّ في سره وزحزح صخرة أخرى من تجويفها. فسأله توفلاور: «كيف فعلتَ هذا؟».

قال رينسويند: «ساعدني فحسب حتى أصعد إلى الأعلى، هل ستفعل؟». بعدها وبوضع قدميه في الفتحتين اللتين صنعهما، كان يقترب من منتصف طريقه إلى أعلى الجدار.

قال وصوته يهبط إلى الأسفل: «لقد كان على تلك الحالة لقرون طويلة. فبعض الأحجار لا يوجد بها أي ملاط. وبهذا تكون مدخلاً سرياً، أترين؟ احترسا في الأسفل».

واصطدم حجر آخر بحصى الشارع وتهشم.

قال رينسويند: «لقد فعل الطلاب هذا منذ أمد بعيد. فتلك طريقة سهلة للدخول والخروج بعد خلود الجميع للنوم».

قال توفلاور: «آه، فهمت. يخرجون من فوق الجدار إلى الحانات جيدة الإضاءة لتناول الشراب والغناء وإلقاء الأشعار، أليس كذلك؟».

قال رينسويند: «شبه صحيح ما عدا الغناء وإلقاء الشعر، طبعاً. ستنفكُ اثنين من هذه النتوءات...».

ثم سَمِعَ صوت خشخشة.

قال وقد وصل إليهما صوته بعد عدة ثوانٍ: «المكان ليس منخفضاً كثيراً في هذه الناحية». وتابع: «أسرعاً، إذن. لو أردتما المجيء».

وبهذا كان قد دخل رينسويند وتوفلاور وبيثان إلى الجامعة الخفية.

في مكان ما في الحرم الجامعي...

أدخل السحرة الثمانية مفاتيحهم في الأقفال ثم أداروها وهم يتبادلون نظرات توشي بالقلق بين بعضهم. وتهادى صوت قرقرة صادر عن انزلاق القفل وهو يفتح.

لقد فُكَّتْ أغلال الأوكتافو. وتراقص على جنبات جلده ضوء باهت بلون الأوكتارين.

مَد تريمون يده وأمسكه، ولم يُبِد أي من الحاضرين اعتراضه. ثم
سرى وخز في ذراع تريمون.
استدار تجاه الباب.

وقال: «والآن توجهوا إلى القاعة الكبرى أيها الإخوة، واسمحو لي بأن
أكون في الطليعة...».
لم يُسَمِع أيُّ اعتراض منهم.

وصل تريمون إلى الباب والكتاب مدسوس تحت ذراعه. كان ملمسه
ساخنًا، وشائكًا إلى حد ما.

توقع في كل خطوة خطأها أن يسمع صوت صيحة، صوت اعتراض،
لكنه لم يسمع شيئًا. كان عليه أن يتحلى بأعلى درجات ضبط النفس
حتى يمنع نفسه من الضحك. إذ إن الأمر كان أسهل مما تخيله.

قطع السحرة الآخرون من خلفه منتصف طريقهم إلى الزنزانة
الخائقة في الوقت الذي قد عَبَر فيه من الباب، ربما قد لمحوا شيئًا غريبًا
في هيئته ووقفته، لكنَّ الأوان قد فات، فقد عَبَر عتبة الباب وجذب مقبضه
ثم صَفَّقه وأدار المفتاح وابتسم تلك الابتسامة العريضة.

عاد تريمون يشقُّ طريقه بلا أي مشقة تعترضه على طول الممر غير
عابئ بالصرخات المُكَلِّلة بالسخط والغضب التي أطلقها السحرة الذين
اكتشفوا من فورهم استحالة إلقاء تعاويذ في غرفة صُمِّمَتْ لتكون منيعة
ضد السحر.

راح الأوكتافو يتلوى ويتفَلَّت، لكنَّ تريمون أحكم قبضته عليه. في
تلك اللحظة جرى متغافلًا عن الأحاسيس المروعة التي يشعر بها تحت
ذراعه حينما تحول شكل الكتاب إلى أشياء مُشعِرة ذات عظام ونبوءات
حادة. وسرى الخِدر في يده. غدتْ أصوات الثرثرة التي كان يسمعها

تعلو وترتفع، كان ثمة أصوات أخرى تتهادى من خلف تلك الأصوات؛
أصوات تلهف، أصوات استدعاء، أصوات الرعب تستعصي على التخيل
والتي لم يستعص على تريمون تخيلها في ذلك الحين. أطلق تريمون
قدميه وجرى في القاعة الكبرى، لكن عند الدَّرج الرئيسي بدأت الظلال
في التحرك وإعادة تشكيل نفسها فحوطته وضيقت الخناق عليه، وأدرك
كذلك أن شيئاً كان يتبعه، شيئاً له سيقان خفيفة العدو تتحرك بسرعة
بالغة. كما تشكَّل الثلج على الجدران. وهاجمته مداخل الأبواب وهو يتجه
نحوها مهرولاً. ثم كان للدرج من تحت أقدامه ملمسٌ مثل اللسان...

لم يقضِ تريمون ساعاتٍ طويلاً في الموازي الغريب لصالة الألعاب
الرياضية في الجامعة هباءً، بل من أجل أن يبني لنفسه عضلة عقلية.
فقد علم أنه ليس على المرء الثقة بالحواس لأنها يمكن أن تُخدع. وعليه
فالدَّرج موجود هناك، في مكان ما /اجعله موجوداً هناك، استدعه ليوجد
فيما تصعد، ويا فتى من الأفضل أن تتقن فعل هذا. لأن هذا ليس من فعل
المُخيلة مطلقاً.

أبطأ أتوين العظيم من حركته.
وراح الغيلم السماوي يبذل جهده بزعانفه التي بحجم قارات ليقاوم
جذبَ النجم، ثم انتظر.
لكن لن يدوم هذا الانتظار طويلاً...

تسلل رينسوينا إلى القاعة الكبرى. كان ثمة مَسَاعِل قليلة بها نار،
وبدا كأنها قد وُضِعَتْ لطقس سحري من نوع ما. لكنَّ الشموع الشعائرية
قد قُلبَتْ رأساً على عقب، وقد كُشِطَتْ أشكال النجوم الثمانية المعقدة

المرسومة على الأرض كأنَّ أحدهم قد رقص فوقها، وكان الهواء تفوح منه رائحة كريهة حتى بالنسبة إلى معايير عنخ-موربورك الواسعة. وكانت هنالك مسحة من رائحة الكبريت في الهواء، وقد أُنذر هذا بوجود ما هو أسوأ. كانت رائحته تشبه قاع بُحيرة.

أتى صوت تحطم مفاجئ من بعيد، وأصوات صراخ كثيرة.

فقال رينسويند: «يبدو أن البوابات قد انهارت».

ردَّت بيثان: «لنخرج من هنا».

قال رينسويند: «طريق السرايب من هنا»، ثم انطلق في طريقه خلال مدخل قوسي.

- هناك بالأسفل؟

- أجل، أفضّلين البقاء هنا؟

وأخذ المشعل من حامله المثبت بالجدار وراح ينزل خطوات الدرج. بعد هبوط رينسويند سلالم متعددة، لم تعد الجدران مكسوة بألواح خشبية، بل كانت مجرد حجر عارٍ. وكانت الأبواب في نواحٍ متفرقة مُسندةً لتظل مفتوحة.

حينها قال توفلاور: «لقد سمعتُ شيئاً».

أصغى رينسويند، وبدا فعلاً أن هنالك جلبة آتية من الأعماق بالأسفل. لم يكن وقعها مخيفاً، بل بدت كأنها مهمات لكثير من الأشخاص تجاه باب ما وكان من بينها صراخ 'أووي!'.
سألته بيثان: «إنها ليست تلك الأشياء التي تقطن زنازين الأبعاد التي كنت تُحدثنا عنها، أليس كذلك؟».

أجابها رينسويند: «إن الأشياء لا تُسبُّ بهذه الطريقة».

قطعوا الطريقَ مسرعين على طول الممرات التي تُنقَطُ بالماء، متتبعين الصرخاتِ التي تعلو بالشتائم والسعال العميق الخشن الذي يبث الطمأنينة إلى حد ما، فقد قرر السامعون أن شيئاً يصدر عنه مثل هذا الأزيز، فلا يمكن أن يمثل خطراً على الأرجح.

وفي نهاية المطاف وصلوا إلى باب مُركَّب في تجويف. وبدا قوياً كفاية ليتصدى لبحر هائج. كانت ثمة نافذة شبكية صغيرة.

هتف رينسويند: «مرحباً!». لم يكن نداؤه مُجدياً غير أنه لم تخطر له أي فكرة أفضل.

ساد صمت مفاجئ، ثم قطعه صوت من الجانب الآخر للباب قائلاً ببطء شديد: «مَن هناك؟».

تعرَّف رينسويند الصوتَ الذي لطالما جعله ينتفض من أحلام يقظته في العديد من فصول الظهيرة شديدة الحرارة منذ سنوات طوال. لقد كان ليمويل بانتر، ذاك الذي جعل شغله الشاغل في يوم ما تثبيت أُسسِ علمي التنبؤ والاستدعاء في عقل رينسويند. وتذكَّر العينين اللتين تشبهان مثقابين في وجه كوجه خنزير وتذكَّر الصوت وهو يقول: 'والآن سيأتي السيد رينسويند إلى هنا ويرسم الرمز المقصود على اللوح، والمِشية الطويلة جداً مروراً بالفصل الذي ينتظره فيما يحاول جاهداً أن يتذكَّر ما كان يهدر به الصوت منذ خمس دقائق. ورغم أن الحلق الذي جاء منه الصوت قد جفَّ الآن من الرعب والشعور بالذنب المُبهم. فلم تكن زنازين الأبعاد سبباً في أي من هذا.

قال رينسويند بصوت حاد: «من فضلك يا سيدي، إنه أنا، يا سيدي، رينسويند، يا سيدي». ورأى توفلاور وبيثان يحدقان إليه ويسعلان. وأضاف بصوت عميق قدر إمكانه: «طبعاً. إنه هو. رينسويند. بلا شك».

تهادتُ تمتمات همس من الجانب الآخر من الباب.

- رينسويند؟

- رئيس من؟

- أتذكر فتى لم يكن قط...

- التعويذة، أتتذكر؟

- رينسويند؟

حانت سكتة، ثم قال الصوت بعدها: «أعتقد أن المفتاح ليس في القفل، أليس كذلك؟».

ردَّ رينسويند: «لا».

- ماذا قال؟

- قال لا.

- ليس غريبًا على هذا الفتى.

سأل رينسويند: «امم، من الذي بالداخل؟».

قال الصوت بنبرة كلها تعالٍ: «سادة السحر».

- لم؟

حانت سكتة أخرى، ثم تلاها الكثير من الهمسات التي توحى بالإحراج.

قال الصوت بنبرة مترددة: «إننا، امم، قد حُبِسْنَا بالداخل».

- ماذا، مع الأوكتافو؟

تكررت الهمسات ثانية.

قال الصوت ببطء: «الأوكتافو في الواقع ليس هنا، حقيقةً».

سأل رينسويند: «أوه، لكنكم كذلك؟»، وقالها بأدب جَمَّ قدر الإمكان وهو يبتسم كالمهوّس بالجنث في غرفة الموتى.

- يبدو أن هذه هي الحال.

سأل توفلاور والقلق بادٍ عليه: «هل من شيء نقدمه لكم؟».

- يمكنك محاولة إخراجنا من هنا.

سألته بيثان: «أيمكننا فض القفل؟».

قال رينسويند: «لا جدوى من ذلك فالقفل مضاد للسرقة كلية».

قالت بيثان بنبرة تدل على وفائها الأصيل: «أتوقع لو أن كوهين

موجودًا لكان بوسعه فعل ذلك وفعل ما يتطلبه الأمر».

قال توفلاور موافقًا إياها: «كان المتاع ليحطمه في أقرب فرصة».

قالت بيثان: «حسنًا، هذه حالنا إذن. لنخرج إلى الهواء المنعش. هواء

أنعش من الهواء الذي هنا على أي حال». واستدارت لتمشي.

قال رينسويند: «تريثًا، تريثًا. هذا هو المعتاد، أليس كذلك؟ إذ سيكون

رينسويند الشيخ ناضب الأفكار، أليس كذلك؟ أوه، لا، إنه تكلمة للعدد

فحسب، إنه كذلك. اركله لو صادفته في طريقك. لا تعتمد عليه، إنه...».

قالت بيثان: «حسنًا، لنسمع الحلّ منك إذن».

- شخص تافه، مُخفّق، إنه مجرد... ماذا؟

سألته بيثان: «كيف ستفتح الباب؟».

نظر إليها رينسويند فاغرًا فاه، ثم نظر إلى الباب. لقد كان الباب

صلبًا جدًّا، وكان القفل يبدو متعجرفًا ومعتزًّا بنفسه.

لكنه قد دلف إلى هذا المكان من قبل ذات مرة منذ أمد بعيد. فقد

دفع رينسويند لَمَّا كان طالبًا البابَ فانفتح بسهولة، ثم بعد لحظة قفزت

التعويذة إلى عقله وأفسدت عليه حياته.

قال أحد الأصوات من خلف النافذة الشبكية بنبرة مفعمة بالعطف

قدر الإمكان: «انظر، اذهب فحسب وأحضر لنا ساحرًا. ثمة رفيق صالح».

أخذ رينسويند نفسًا عميقًا، ثم قال بصوتٍ أجشٍّ: «تراجعوا».

- ماذا؟

صاح وصوته يرتجف بعض الشيء قائلاً: «جِدُوا لأنفسكم مخبأً». ثم قال لبيثان وتوفلاور: «وأنتما كذلك».

- لكن لا يمكنك...

- أنا أعني ما أقول!

فقال توفلاور: «إنه يعني ما يقول. فذاك الوريد في جانب جبهته، تعلمين، عندما ينبض هكذا، حسنًا...».

- اخرس!

رفع رينسويند إحدى ذراعيه متشككًا نحو الباب.

ساد صمت مطبق.

وقال في نفسه: يا للآلهة، ماذا يحدث الآن؟

في الظلمة التي تسود مؤخرة عقله تَقَلَّبَت التعويذة بلا ارتياح.

حاول رينسويند أن يتناغم مع الحالة العقلية للقفل أو أيما يطلق على هذا. لو كان بإمكانه رؤية الخلاف يدبُّ بين ذرات القفل حتى تتفكك عن بعضها...

لم يحدث شيء.

ابتلع رينسويند ريقه، وحَوَّل انتباهه إلى الخشب. كان خشبًا قديمًا وأقرب إلى التحجر، ولن يحترق على الأغلب حتى لو نُقِعَ في الزيت ثم رُمِيَ في الفرن. لكنه لم يبخل عليه بمحاولة على أي حال، شارحًا للجزيئات العتيقة أنه ينبغي لها محاولة القفز إلى أعلى وإلى أسفل لتتباعد عن بعضها للحفاظ على دفتها...

وفي الصمت الذي يسوده الاضطراب الكامن في عقله، حدّق إلى التعويذة التي بدا عليها الإحراج من بلادتها.

ثم راح يفكر في الهواء المحيط بالباب نفسه، وكيف أنه قد يكون من الأفضل لو تحوّل الهواء وتلوّى في هيئة أشكال غريبة حتى يكون الباب موجودًا في مجموعة أبعاد أخرى مختلفة كليةً.

لكن بقي الباب هنالك، صلبًا عتيًا.

بينما يتصبب رينسوينا عرقًا وعقله يقطع الطريق اللانهائي إلى اللوح أمام الفصل المُبتسم، استدار يائسًا إلى القفل مجددًا. لا بدّ أنه مصنوع من قطع معدنية صغيرة، وليست ثقيلة جدًّا...

ومن النافذة الشبكية أتى أخفت الأصوات. كانت الجلبة الصادرة عن السحرة وهم يُسرّون عن أنفسهم ويهزون رؤوسهم.

همس أحدهم قائلاً: «لقد أخبرتكم...».

أتى صوت صرير وتلاه صوت طقطقة.

تجمّد وجه رينسوينا، وتصبب العرق من ذقنه.

وعلا صوت طقطقة مرة أخرى، وصوت صرير مغازل القفل الحائرة. كان تريمون قد زيّت القفل، إلا أن الصدا والغبار اللذين تراكما عليه سنواتٍ قد تشرّبًا الزيت، والسبيل الوحيد لأي ساحر حتى يُحرّك شيئًا ما بالسحر هو استخدام قوة عقله فقط، إلا إذا كان يملك قدرة تُطوّع له قوى حركية خارجية.

حاول رينسوينا جاهدًا منع عقله من أن ينبثق خارجًا من أذنيه.

خشخش القفل. وارتخت الأقطاب المعدنية في مجاري القفل البالية واستسلمت ودفعت الأقطاب الرفاعات.

ثم طقطقتُ الرافعاتُ وتعشَّقتُ السنون. أتى صرير سَحْبٍ طويل
ترك رينسوينا جاثيًا على ركبتيه.

انفتح الباب عن آخره مستندًا إلى مفصلاته المُتعبة. وتسلل السحرة
إلى الخارج في حذر.

بعدها أغان توفلاور وبيثان رينسوينا على النهوض. فوقف مكفهر
الوجه مترنحًا.

قال أحد السحرة وهو ينظر من كُتُب إلى القفل: «ليس سيئًا، وإن
كان بطيئًا بعض الشيء».

ردَّ جيجلاد ويرت مسرعًا: «لا عليك بهذا! هل رأى ثلاثكم أيَّ أحد في
طريقه إلى لأسفل هنا؟».

أجاب توفلاور: «لا».

- لقد سرق أحدهم الأوكتافو.

انتفض رأس رينسوينا وركزت عيناه.

- مَنْ؟

- تريمون...

ابتلع رينسوينا ريقه، وسأل: «رجل طويل؟ له شعر أشقر ناصع
يشبه النَّمس إلى حد ما؟».

- والآن إذ إنك أتيت على ذكر الأمر...

قال رينسوينا: «لقد كان في فصلي الدراسي، لطالما قالوا إنه
سيكون له شأن عظيم».

قال أحد السحرة الذي يلفُّ سيجارة في عجالة بين أصابعه
المرتجفة: «وسيرتفع شأنه أكثر لو فتح الكتاب».

قال توفلاور: «لمَ؟ ما الذي سيحدث؟».

تبادل السحرة النظرات في ما بينهم.

قال ويرت: «إنه سر قديم، توارثه ساحر عن ساحر، ولا يمكننا تمريره إلى غير السحرة».

قال توفلاور: «أوه، هيا قل».

- أوه حسنًا، على الأرجح لم تعد هنالك فائدة من كتمان الأمر. لا يمكن لعقل واحد أن يستوعب كل التعاويذ. سينكسر ويترك فيه ثقبًا.

- ماذا؟ في رأسه؟

قال ويرت: «اممم، لا. بل في نسيج الكون. قد يظن أن له من القوة ما يجعله يتحكم فيها وحده، لكن...».

لقد شعروا بالصوت قبل أن يسمعوه. لقد بدأ من الأحجار في هيئة اهتزاز بطيء، ثم علا فجأة إلى صوت أنين حاد يصم الآذان إذ مرَّ من طبلي الأذن وانصبَّ مباشرة في الدماغ. بدا صوت كصوت غناء بشري أو ترنم أو صراخ، لكنه تضمَّن نغمات توافقية شديدة العمق والرعب.

شُحِب وجه السحرة وتغير، ثم التفوا التفاتة رجل واحد وقطعوا الدرج جريًا إلى الأعلى.

كانت الحشود متجمعة خارج المبنى. وحمل بعضهم المشاعل واكتفى آخرون بإشعال أكوام من الحطب حول الجدران. غير أن أنظار الجميع حدّقت إلى برج الفنون.

شقَّ السحرة طريقهم خلال جموع الناس غير المكترثة، والتفتوا لينظروا إلى الأعلى.

امتلات السماء بالأقمار. كان كل واحد منهم أكبر بثلاث مرات من قمر القرص، وساد الظلام كل واحد من الأقمار إلا من هلال وردي اللون حيث عكس لون النجم.

في مقدمة كل شيء كانت قمة برج الفنون تُشعُّ بغضب محتقن. فهناك أشكال يُمكن رؤيتها في العتمة بداخل البرج، ولم تكن هذه الأشكال تبعث الطمأنينة قطً. وتغير الصوت الآن وأصبح طنيناً يشبه طنين الزنبور، ولكنه مُضخَّم مليون مرة.

جتا بعض السحرة على أقدامهم.

قال ويرت وهو يهز رأسه: «لقد فعلها. لقد فُتح ممراً».

سأل توفلاور: «هل تلك الأشياء شياطين؟».

قال ويرت: «أوه، شياطين. إن الشياطين لتكون أرحم مقارنة بما يحاول الخروج في الأعلى هناك».

قال بانتر: «إنها أبشع من أي شيء قد يخطر على مخيلتنا».

فقال رينسويند: «بوسعي تخيلُ بعض الأشياء شديدة البشاعة».

- هذه أسوأ.

- أوه.

قال صوت يتسم بالوضوح والصفاء: «وما الذي تقترحون فعله حيال الأمر؟».

استداروا جميعاً فوجدوا بيتان واقفةً تحديق إليهم عاقدة ذراعيها.

قال ويرت: «عذراً؟».

- أنتم سحرة، أليس كذلك؟ حسناً، تعاملوا مع الأمر.

فسألها رينسويند: «ماذا، نتعامل مع هذا الوضع؟».

- هل تعرف أحدًا آخر؟

تقدم ويرت إلى الأمام، وقال: «يا سيدتي لا أظنُّ أنكِ تفهمين...».

سألته بيثان: «سيتدفق ساكنو زنازين الأبعاد إلى كوننا، أليس كذلك؟».

- حسنًا، أجل...

- ستأكلنا أشياء لها مَجَسَّات لامسة بدلاً من الوجوه، صحيح؟

- الأمر كله بغيض، لكن...؟

- وستدعون الأمر يحدث هكذا بلا رادع؟

قال رينسويند: «اسمعي، لقد انتهى كل شيء، أترين؟ فلا يمكن إعادة التعاويذ مرة أخرى إلى الكتاب، لا يمكن عدم قول ما قيل، هل يمكن ذلك؟».

- يمكنكم المحاولة!

تنهد رينسويند والتفت إلى توفلاور.

لكنه لم يكن موجودًا هنالك. فانتقلت عين رينسويند مباشرة إلى قاعدة برج الفنون، وفي الوقت المناسب تمامًا رأى هيئة السائح مكتنز الجسم حاملاً سيفه في يده بلا أي مهارة ثم اختفى وهو يدخل إلى أحد الأبواب.

اتخذتُ قدما رينسويند قرارهما وقد فهمتا الأمر على نحو خاطئ تمامًا، من وجهة نظر رأسه.

راقبه السحرة الآخرون وهو ينصرف.

فقال بيثان: «حسنًا؟ إنه ذاهب».

حاول السحرة تحاشي النظر إلى أعين بعضهم.

وفي نهاية المطاف قال ويرت: «بمقدورنا أن نجرب، أظن ذلك. فلا يبدو أنه ينتشر».

فقال أحد السحرة: «لكننا بالكاد نملك أيّ سحر يُذكر».

- هل تملك فكرة أفضل إذن؟

استدار السحرة ومشواً بتناقل تجاه البرج، واحدًا تلو الآخر وأثوابهم الشعائرية تلمع تحت الضوء الغريب.

كان البرج خاويًا من الداخل، وكانت درجات السلم الحجرية الحلزونية مثبتة بالملاط في الجدران. وكان توفلاور قد صعد عدة منعطفات فعلاً عندما لحق به رينسوينا.

وما لبس أن قال بنبرة مبهجة قدر إمكانه: «تمهل، تلك مهمة تليق بأمثال كوهين، وليس أمثالك. لا أقصد أي إهانة».

- أكان سيُفيد في وضع مثل هذا؟

رفع رينسوينا نظره عاليًا لينظر إلى الضوء الأكتيني المشع الذي انبثق من الفتحة البعيدة في أعلى الدّرج.

أجابه مقرًا: «لا».

قال توفلاور مستلًا سيفه المنهوب في حركة درامية: «إذن سأكون بارعًا مثله، ألا أقدر؟».

هُرِعَ رينسوينا من ورائه، ملتصقًا بالجدار قدر الإمكان: «أنت لا تفهم! توجد أهوال في الأعلى تستعصي على المخيلة!».

- لطالما رَدَدت أني لا أملك أي مُخيلة.

أقر رينسوينا قائلًا: «معك حقُّ، لكن...».

جلس توفلاور: «انظر، لطالما تطلعتُ إلى شيء من هذا القبيل، منذ أن أتيت إلى هنا. أقصد هذه مغامرة، أليست كذلك؟ وحدي ضد الآلهة، هذا النوع من الأشياء؟».

فتح رينسوينا فمه وأطبقه عدة ثوانٍ قبل أن تجد الكلمات الصحيحة سبيلها إلى الخروج.

وسأله بنبرة واهنة: «هل تقدر على استعمال السيف؟».

- لا أعلم، لم يسبق لي أن جربتُ.

- أنت مخبول.

نظر إليه توفلاور مميلاً رأسه إلى أحد الجانبين، وقال: «من كان بيته من زجاج لا يرمي الناس بالحجارة. لقد انتهت بي الحال إلى هنا لأن هذا أفضل ما عندي، لكن ماذا عنك؟»، ثم أشار إلى الأسفل إلى حيث كان السحرة الآخريين يشقون طريقهم صاعدين الدَّرَج وقال: «ماذا عنهم؟». ضرب ضوء أزرق حاد كالرمح الجزء الداخلي من البرج. وعلا صوت قصف الرعد.

لَحِقَ بهما السحرة والسعال يُنهِكُ صدورهم ويلهثون لالتقاط أنفاسهم.

سأله رينسوينا: «ما الخطة المقترحة؟».

أجابه ويرت: «ما من خطة».

قال رينسوينا: «لا بأس. حسنًا، سأدعمك تتدبرون الأمر، إذن».

قال بانتر: «سوف تأتي معنا».

- أنا حتى لستُ ساحرًا لائقًا، لقد طردتموني، أتتذكرون؟

قال الساحر الشيخ: «لا يخطر ببالي أي طالب أقل منك مقدرة على التعامل مع الأمر، لكنك موجود هنا فعلاً، وهذه هي السمة المؤهلة الوحيدة التي تحتاج إليها. فهلم».

برق الضوء فجأة ثم خفت. وسكتت الأصوات فجأة سكوتاً تاماً كأنها قد سُنِقَتْ.

ملاً الصمت جنبات البرج، صمتٌ ثقيلٌ يحبس الأنفاس.

قطعه توفلاور قائلاً: «لقد توقف».

تحرك شيء ما في الأعلى بعيداً عند الدائرة السماوية الحمراء. ثم سقط ببطء وراح يتقلب مراراً وتكراراً تارةً وينجرف من جانب إلى آخر تارةً أخرى. واصطدم بمنعطف الدّرج الذي فوقهم.

كان رينسوينا أول مَنْ رآه.

كان الشيء الساقط هو كتاب الأوكتافو، لكنه استقرّ على الحجارة هشاً ضعيفاً بلا حراك شأنه شأن أي كتاب آخر، وتلاعب النسيم الذي يهبُ صاعداً إلى أعلى البرج بصفحاته.

لهث توفلاور من خلف رينسوينا، ثم نظر إلى الأسفل، ثم همس: «إن الصفحات فارغة، كل صفحة منه فارغة تماماً».

قال ويرت: «إن فقد فعلها، لقد قرأ التعاويذ. وقد نجح في ذلك أيضاً. لم أكن لأصدق الأمر».

قال رينسوينا والشك يُخالطه: «سمعنا كل تلك الجلبة. ورأينا الضوء كذلك وتلك الأشكال. وهذا لا يبدو لي أن الأمر كان ناجحاً تماماً».

قال بانتر بازدراء: «أوه، لطالما يسترعي المرء اهتماماً كبيراً خارجاً عن أبعاد عالمنا بأي عمل سحري عظيم. إن الناس يُبهرون بالسحر لا أكثر».

قال توفلاور وهو يقف قرب رينسويند: «يبدو أنه توجد وحوش بالأعلى هناك».

ردَّ ويرت: «وحوش؟ أرني بعض تلك الوحوش!».

ونظروا تلقائياً إلى الأعلى، فلم يسمعوا صوتاً ولا رأوا شيئاً يتحرك عند دائرة الضوء.

قال ويرت: «أظنُّ أنه يتعيَّن علينا الصعود إلى الأعلى ثم، اممم، نهنته».

انفجر رينسويند غضباً قائلاً: «تهنئونه؟ لقد سرق الأوكتافو! لقد حبسكم!».

تبادل السحرة نظراتٍ تنمُّ عن تفهمهم الأمر.

وقال واحد منهم: «أجل، حسناً. عندما تكون خبيراً في الصنعة يا فتى ستُدرك أن ثمة أوقات يكون النجاح فيها هو الأهم».

قال ويرت بنبرة صريحة: «إن الوصول إلى النجاح هو الأهم وليس السبيل الذي تسلكه».

وانطلقوا صاعدين الدَّرج الحلزوني.

جَلَس رينسويند متجهماً عابساً في الظلام.

وأحسَّ بيد تتحس كتفه، كانت يد توفلاور الذي كان يحمل الأوكتافو.

- هذه ليست الطريقة الصحيحة التي يجب أن يُعامل بها أي كتاب.

انظر، لقد ثنى كعب الكتاب إلى الخلف. هذا دأب البشر، فلا

يملكون أدنى فكرة عن التعامل مع الكتب.

ردَّ رينسويند بلا انتباه: «نعم».

قال توفلاور: «لا تقلق».

ردّ رينسويند بسرعة وغضب: «أنا لست قلقًا، أنا فقط غاضب. أعطني ذلك الشيء اللعين!».

وانتزع الكتاب وفتحه مسرعًا وغازبًا بعدوانية.

أخذ يفتش عشوائيًا في مؤخرة عقله، حيث تتسكع التعويذة، ثم قال والغضب يتملّكه: «لا بأس، لقد حظيت بمتعك. وأتعست حياتي، والآن عودي إلى حيث تنتمين!».

قال توفلاور معترضًا: «لكني...».

- التعويذة، أقصد التعويذة! هيا تقدمي، عودي إلى الصفحات!

ظل رينسويند يحدق إلى ورق البرشمان القديم إلى أن احوّلت عيناه. ثم هتف قائلاً وتردد صوته إلى أعلى البرج: «إذن سوف أنطق بك. بوسعك اللحاق بالتعاويد الأخرى وقد يعود عليك هذا بالنعف!».

ورمى بالكتاب مرة أخرى إلى ذراعي توفلاور وصعد الدّرج مترنحًا. كان السحرة قد وصلوا إلى الأعلى، واختفوا عن الأنظار. فصعد رينسويند ليتفقدهم، وتمتم: «فتى، هل أنا كذلك؟ عندما أكون خبيرًا في الصنعة، هه؟ لقد تمكنتُ من العيش والتجول بتعويذة من التعاويد العظيمة في رأسي سنواتٍ دون أن يمسنني الجنون كُليةً، أليس كذلك؟». وأخذ يتفكر في السؤال الأخير من كل النواحي. ثم قال لبيت الطمأنينة في روحه: «أجل، لقد فعلتُ. فلم تُحدّث الأشجار، حتى عندما تحدثت إليك الأشجار».

ثم ظهر برأسه في الهواء الحار الرّطب في قمة البرج.

لقد توقع أن يرى أحجارًا متفحمة متقاطعة مع علامات مخالِب، أو ربما شيئًا أسوأ بكثير.

لكن بدلاً من هذا فقد رأى السحرة السبعة الكبار يقفون إلى جانب تريمون، الذي بدا في أفضل أحواله ولم تُمسَّ شعرة منه. استدار وابتسم لرينسوينا مبتهجًا.

- آه، رينسوينا. تعال وانضم إلينا، هلا أتيت؟

فكر رينسوينا: إن هذا هو ما عليه حقيقة الأمر. كل تلك الإثارة ذهبت سدى. ربما لم أخلق لأكون ساحرًا، ربما...

ورفع بصره إلى عيني تريمون.

ربما قد أثرت التعويذة في عيني رينسوينا بفعل السنين التي قضتها في رأسه. ربما قد تعلم رؤية الأشياء كما هي من الوقت الذي قضاه مع توفلاور الذي كان يرى الأشياء كما هي.

لكن ما لا ريب فيه أن أصعب شيء أقدم رينسوينا على فعله حتى الآن في مُجمل حياته كان النظر إلى تريمون دون أن يهرب خوفًا وفزعًا أو حتى يصيبه إعياء شديد.

لم يتضح أن الآخرين قد لاحظوا ما لاحظته رينسوينا.

بل بدا أنهم يقفون ساكنين تمامًا.

لقد حاول تريمون أن يضع كل التعاويذ السبعة في عقله فانكسر، وقد وجدت زنازين الأبعاد مخرجها، بلا شك. ومن السخافة أن يتخيل المرء أن الأشياء كانت لتخرج تتمشى من صدع في السماء، وتلوح بفكيها العلويين ومجساتها. فهذا أمر مضى عهده وبه الكثير من الأخطار. وحتى المخاوف التي لا نقدر على صياغتها بالأسماء تعلمت مواكبة الجديد. إلا أن جُلَّ ما احتاجوا إلى الدخول إليه هو رأس واحد.

كانت عيناه مجرد ثقبين فارغين.

طعنت المعرفة عقل رينسويند مثل سكين من الجليد. كانت زنازين الأبعاد شيئاً لا يُذكر مقارنة بما قد تفعله الأشياء في كون منظم. كانت الناس تتوق إلى النظام. وكان النظام هو ما يحصلون عليه، النظام المتحصل بكماشة الأصابع، القانون الثابت للخطوط المستقيمة والأرقام. سيتوسلون لاستخدام المسحاة⁽¹⁾...

أخذ تريمون ينظر إليه. كان شيء ما ينظر إليه. لم يلاحظ الآخرون حتى الآن. هل بمقدوره تفسير الأمر؟ بدا تريمون كما كان دومًا، إلا من العينين، وتشع بشرته ببريق لامع.

حملق رينسويند، وأدرك أن ثمة أمور أسوأ من الشر نفسه. فقد تُعذّب الشياطين القابعة في الجحيم روحك، لكن كان هذا تحديداً لأنها تُقدر الأرواح تقديراً كبيراً، فلطالما حاول الشر الاستيلاء على الكون، لكن على الأقل يرى أن الكون جدير بالاستيلاء عليه. إلا أن العالم الرمادي الكامن من وراء العينين الخاويتين سيسحق ويدمر دون أن يمنح ضحاياه شرف الكراهية. إذ لن ينتبه لهم من الأساس.

مدَّ تريمون يده، وقال: «أعطني التعويذة الثامنة»

تراجع رينسويند.

- هذا يُعدُّ عصياناً يا رينسويند فأنا رئيسك قبل كل شيء. وفي الحقيقة لقد صوّت لي لأكون كبير رؤساء الجماعات الثمانية. قال رينسويند بصوت أجشّ: «حقاً؟». ثم رنا بعينه إلى السحرة الآخرين، فوجدهم ثابتين كالأصنام لا يتحركون.

قال تريمون مبتهجاً: «أوه، طبعاً. ودون أي مطالبة أبداً. يتسم الأمر بالديموقراطية تماماً».

(1) المسحاة أداة التعذيب التي وردت في قصة كافكا «في مستعمرة العقاب». (الترجمة)

- أنا أفضل العادات القديمة. فبتلك الطريقة حتى الموتى يمكنهم أن يشاركوا في التصويت.

- ستعطيني التعويذة طواعية، أو هل لك رغبة في أن أريك ما أعتمز على فعله بديلاً عن هذا؟ وفي نهاية الأمر ستُذعن وتعطيني إياها، حتى إنك ستصرخ حتى تتسنى لك الفرصة لإعطائي إياها.
فكّر رينسويند: لو كان ثمة حدٌ يوضع لهذا الأمر، فليوضع هنا.

- سيتعيّن عليك أخذها، فلن أعطيك إياها.

- أنا أتذكرك، فلم تكن مضربَ مثل للطالب الجيد، حسب ما أتذكر. فلم تؤمن إيماناً حقاً بالسحر، وواصلت ترديد أنه لا بدّ من وجود طريقة أفضل لإدارة الكون. حسناً، سترى. فأنا لديّ خططي يمكننا...

قال رينسويند بنبرة حادة: «لا تجمعني معك».

- أعطني التعويذة!

قال رينسويند وهو يتراجع: «جَرِّبْ وخذها، فلا أظن أنك تقدر على ذلك».

- حقاً؟

قفز رينسويند إلى أحد الجوانب في حين ومضت نار الأوكتارين من أصابع تريمون وخَلَفَتْ من ورائها بركةً صخريةً تبقي على الأحجار. وشعر بالتعويذة تختبئ في مؤخرة رأسه. وتمكن من الإحساس بخوفها.

في خبايا رأسه حاول رينسويند الوصول إليها. فتراجعت التعويذة في زهول، مثل كلب واجه خروفاً غاضباً. فتبعها، وهو يضرب بقدميه غاضباً في الأرجاء المهجورة والمناطق الداخلية المنكوبة في عقله

الباطن، إلى أن وجدها ترتعد منكمشة خلف كومة من الذكريات غير الصالحة للاستخدام. فزمجرتُ في تحدُّ صامت في وجه رينسوينا لكن لم ينطَلِ عليه هذا.

فصرخ عليها: هل هذا ما تفعليينه؟ عندما يحين وقت المواجهة الحاسمة، تذهبين وتختبئين؟ هل أنتِ خائفة؟

قالت التعويذة: هذا هراء، لا يمكنك تصديق هذا، فأنا واحدة من التعاويذ الثمانية. لكن رينسوينا تقدم نحوها مغتاظاً وهو يصرخ قائلاً: ربما، لكن الحقيقة أنني أصدق الأمر، ويُستحسن أن تتذكري في رأس من تكونين، أليس كذلك؟ يمكنني تصديق أي شيء يُعجبني هنا!

قفز رينسوينا قفزة جانبية مجدداً لما طاح سهم ناري في ظلام الليل شديد الحرارة. ابتسم تريمون ونفذ حركة أخرى معقدة بيديه.

أحكم الضغط بقبضته على رينسوينا، فشرع بأن كل جزء من جلده كأنه سندان تُطرق عليه المعادن. فارتمى على ركبتيه.

قال تريمون مسروراً: «هنالك أشياء أسوأ بكثير، يمكنني إحراق لحمك على عظامك، أو أملاً جسدك بالنمل. لدي القدرة على...».

- لدي سيف كما تعلم.

كان الصوت حاداً ربيعاً ويصدق بالتحدي.

ورفع رينسوينا رأسه. ورأى من خلال التشوش الذي تسبب به الألم توفلاور يقف خلف تريمون حاملاً سيفه بالطريقة الخاطئة تماماً.

ضحك تريمون ثم ثنى أصابعه. ولوهلة تششت انتباهه. كان رينسوينا غاضباً، غاضباً من التعويذة ومن العالم ومن الظلم في كل شيء ومن حقيقة أنه لم يحظَ بقسط كافٍ من النوم مؤخراً ومن أنه لم يكن يفكر في الصورة الصحيحة مطلقاً. لكنَّ جُلَّ غضبه كان من تريمون، ووقوفه

هنالك مفعماً بالسحر الذي لطالما رغب فيه رينسوينا إلا أنه لم يصل إليه قط، ولا يفعل به شيئاً نافعاً.

قفز رينسوينا ضارباً برأسه بطن تريمون ورمى بذراعيه حوله بكل ما يملك من قوة. وأصاب توفلاور ضربة قذفته جانباً فيما ينزلق تريمون ورينسوينا على الصخور.

زَمجر تريمون غاضباً، ونطق بأول مقطع من التعويذة قبل أن يضربه رينسوينا بمرفقه بعنف ضربة استقرت في عنقه. فأصابت هبةً من السحر العشوائي شعر رينسوينا بحرق خفيف.

قاتل رينسوينا كما يُقاتل دائماً، بلا أي مهارة أو نزاهة أو خطط، لكن بمجهود كبير كله نشاط. وكانت الإستراتيجية تكمن في عدم إتاحة الوقت الكافي للخُصم ليدرك أن في الواقع لم يكن رينسوينا مقاتلاً بارعاً أو قوياً، ولطالما نجحت هذه الاستراتيجية.

بدأت الاستراتيجية تنجح حينها لأن تريمون قد قضى الكثير من الوقت في قراءة المخطوطات القديمة ولم يمارس التمرينات الصحية ولم يتناول الفيتامينات الكافية. وقد تمكن من تسديد عدة ضربات لم يلاحظها رينسوينا بسبب الغضب الذي استولى عليه، لكن لم يقدر تريمون إلا على استخدام يديه في حين أن رينسوينا قد استعمل ركبتيه وقدميه وأسنانه كذلك.

لقد كان في الواقع يفوز عليه.

كان هذا بمنزلة صدمة له.

وكان هذا بمنزلة صدمة أكبر، وهو يجثو على صدر تريمون وأبرحه ضرباً على رأسه، عندما رأى وجه الرجل الآخر يتغير. وتكشكش جلده وتموج كشيء يراه الرائي من خلال السراب، ثم تحدث تريمون.

لوهلة نظرت عيناه إلى رينسوينا في خوف وألم واستعطاف. ثم لم تعد عينين على الإطلاق، لكنها غدت أشياء متعددة الأوجه في رأس يمكن فحسب أن نطلق عليه لفظة رأس حال لو وسعنا التعريف إلى أقصى حدوده. وامتدت مجسات ومخالب وأرجل أطرافها كسُنُّ المنشار لتمزيق لحم رينسوينا المتفرق على جسده.

اختفى توفلاور والبرج والسماء الحمراء جميعهم. ومرَّ الوقت بطيئاً، ثم توقف.

عَضَّ رينسوينا إحدى المجسات التي حاولت نزع وجهه عضّةً شديدةً. وبينما تتمدّد المجسة في ألم شديد، ضرب رينسوينا بيده بقوة شديدة وشعر أنها تكسر شيئاً ساخناً وليناً.

كانوا يشاهدون. فأدار رينسوينا رأسه فوجد أنه كان يتقاتل على أرضية مُدرّج هائل. وحدّقت إليه مخلوقات كانت تتراصُّ في الصفوف من كل جانب، مخلوقات لها أجسام ووجوه بدا أنها قد أتت نتاج كوابيس مُهجنة. وقد لمحت عيناه أشياءً أسوأ بكثير من خلفه، ظللاً عملاقة تتمدد في صفحة السماء الملبّدة بالغيوم قبل أن يطعنه وحش تريمون بإبرة لانعة بطول رُمح.

حاول رينسوينا أن يتفاداه بالتحرك إلى اليمين تارةً وإلى اليسار تارةً أخرى، ثم استدار ويدها مشبوكتان معاً في شكل قبضة لكمّت الشيء في بطنه، أو على الأرجح في قفصه الصدري، بضربة انتهت بصوت انسحاق مادة الكيتين يُشعر بالرضا.

فسقط إلى الأمام وهو يقاتل في تلك اللحظة بدافع الرعب مما قد يحدث لو توقف عن القتال. وضجّت الساحة الممتلئة بالأشباح بثرثرة مخلوقات الزنازين، بحر من الأصوات المخشخشة التي صمّت أذنيه

وهو يصارع من أجل حياته.. تخيل رينسويند هذا الصوت يملأ جنبات القرص، وسدد الضربة بعد الضربة من أجل إنقاذ عالم البشر، من أجل الحفاظ على حلقة ضوء النار الصغيرة في الليلة الظلماء التي تشيع فيها الفوضى وحتى يسد الفجوة التي كان يقترب من خلالها الكابوس. لكن في المقام الأول قد ضربه حتى يمنعه من رد الضربة له.

رسمت تلك المخالب أو البرائن خطوطاً شديدة الحرارة على ظهره، وعضَّ شيءٌ ما كتفه، لكنه وجد مجموعة من الأنابيب الناعمة بين كل الشعر والصدف فضغطها بشدة.

أطاحت به ذراع بها نتوءات شائكة، وتدحرج على التراب الأسود الصلب.

دفعته غريزته إلى التكوُّر، إلا أن شيئاً لم يحدث. وبدلاً من أن ينقضَّ عليه المخلوق انقضاضة الغاضب التي توقعها رينسويند، فتح عينيه ليجد أن المخلوق يعرج مبتعداً عنه وتتسرب منه العديد من السوائل. لقد كانت هذه أول مرة يفرُّ فيها شيء ما هارباً من رينسويند.

فقفز من ورائه وأمسك بقدمه الحُرشفية ثم لوأها. تمتم المخلوق في وجهه وأشاح في يأس بذيله اللاحق ويكأنه لا يزال يعمل، لكنَّ قبضة رينسويند لم ترتجف أو تهتز. فنهض بنفسه وسدد ضربة أخيرة مُرضية إلى عينه المتبقية. فصرخ المخلوق وجرى. ولم يكن أمامه من سبيل يسلكه إلا مكاناً واحداً.

عاد البرج والسماء الحمراء بنقرة الزمن المُستعاد.

حالما شعر بوجود حجر الأرضية تحت قدميه، رمى بثقله إلى جانب واحد وتدحرج على ظهره وكان المخلوق المروِّع على بُعد ذراع منه. وصرخ: «الآن!».

قال توفلاور: «الآن ماذا؟ أوه، طبعًا. صحيح!».

لَوْح توفلاور بالسيف بطريقة تخلو من أي خبرة أو مهارة لكن فيها بعض القوة، متخطيًا رينسويند بمقدار بوصات قليلة وغرسه عميقًا في الشيء. تعالَى صوت طنين صارخ، كأنه قد هَشَّم عَشَّ زنابير، وتحركت مجموعة من الأذرع والأرجل والمجسَّات وهي تتألم ألمًا شديدًا. وتدحرج الشيء مجددًا، وهو يصرخ ويضرب حجارة الأرضية، ثم راح يضرب الفراغ لأنه قد تدحرج من على حافة الدَّرَج، آخذًا رينسويند معه.

ثم كان هنالك صوت انسحاق فيما يترد الشيء ويرتطم بدرجات السلم، ثم أتت صيحة بعيدة متلاشية بينما يسقط الشيء في أعماق البرج.

في نهاية المطاف كان هنالك صوت انفجار مكتوم ووميض بضوء الأوكتارين.

ثم غدا توفلاور وحده على قمة البرج، وحده، أو بعبارة أخرى، ما عدا سبعة سحرة لا يزالون يبدون متجمدين ولا يحركون ساكنًا حتى هذا الحين.

جَلَس توفلاور والذهول يملكه في حين انبثقت سبع كرات نارية من قلب الظلام ودفعت نفسها إلى داخل كتاب الأوكتافو المُهْمَل، والذي بدا فجأة كحالته القديمة بل ازداد تشويقًا وإثارةً.

وقال توفلاور: «أوه يا إلهي، أظن أنها التعاويد».

قال صوت: «توفلاور». كان صوتًا مُخَوِّخًا وله صدى، وتُدركه الأذان كصوت رينسويند تمامًا.

توقف توفلاور ويده في طريقها إلى الكتاب، وقال: «نعم؟ هل هذا، هل هذا أنت يا رينسويند؟».

أجابه قائلاً بصوت منخفض جداً: «أجل. ويوجد شيء فائق الأهمية أريد منك أن تفعله من أجلي يا توفلاور».

نظر توفلاور من حوله، واستجمع ذاته. إذ إن مستقبل القرص يعتمد عليه قبل كل شيء.

وقال وصوته يتذبذب من زهو الفخر: «أنا جاهز، ما الشيء الذي تريد مني أن أفعله؟».

قال صوت رينسوينا معدوم الجسد في أناةٍ وصبرٍ: «بادئ ذي بدء، أصغ إليّ بحرص».

- كلّي أذان مصغية.

- مهم للغاية عندما أخبرك بما تفعله، فلا تقلّ لي (ماذا تقصد؟) أو تجادل أو أيّ شيء من هذا القبيل، أفهمت؟

وقف توفلاور بوضعية الانتباه العسكرية، أو قد وقف بعقله فحسب إذ إن جسده لم يكن بمقدوره ذلك. وبرز ذقنه ولغده: «أنا على أهبة الاستعداد».

- رائع. والآن، ما أريد منك فعله هو...

- أجل؟

ارتفع صوت رينسوينا من أعماق بئر الدرّج: «أريد منك أن تأتي وتعاونني على النهوض قبل أن تفلت قبضتي من هذا الحجر».

فغر توفلاور فاه ثم أطبقه سريعاً. وهرع إلى الفتحة المربّعة ونظر من خلالها إلى الأسفل. وعلى الضوء الأحمر المنبعث من النجم أمكنه أن يرى عيني رينسوينا تنظران إليه.

استلقى توفلاور على بطنه ومدّ يده. أحكم رينسوينا قبضته على معصم توفلاور، قبضة أوحّت لتوفلاور أنه إن لم يسحب رينسوينا إلى

الأعلى فلن تكون ثمة طريقة أخرى ممكنة لأن تُرعى هذه القبضة عن زراعته.

- أنا مسرور أنك حيٌّ.

- جيد، وأنا كذلك.

وظل مُعلِّقًا في الظلام بعضَ الوقت. وكان الأمر بعد الدقائق المعدودة الماضية شِبْه مُمتع، لكنه شبه ممتع فحسب.

وقال له مُلمحًا: «اسحبني إلى الأعلى إذن».

نَخر توفلاور: «أظن أن هذا قد يكون صعبًا نوعًا ما».

- لا أظن حقيقة أنه بإمكانني فعل الأمر حقًا.

- ما الذي تتشبث به إذن؟

- أنت.

- أقصد إلى جانبي.

سأله توفلاور: «ما قصدك من «إلى جانبي»؟».

نبس رينسوينا بكلمة.

فقال توفلاور: «حسنًا، انظر إن درجات السلم تلتف حلزونيًا، صحيح؟ لو أرجحتك ثم تركتك...».

قال رينسوينا في حدة: «لو كنت تقترح محاولتي للسقوط من نحو ستة أمتار إلى أسفل برج مُظلم ظلمةً دهماء على أمل أن أصطدم ببضع درجات صغيرة مقززة والتي قد لا تكون موجودة حتى، يمكنك التفاوض عن هذا الاقتراح».

- يوجد حلٌّ بديلٌ إذن.

- هاتِ ما عندك يا رجل.



telegram @
yasmeenbook

- يمكنك أن تسقط من على بُعد خمسة عشر كيلومترًا أسفل برج مظلم ظلّمة دهماء والاصطدام بالصخور التي بلا شك موجودة هناك.

ومن أسفله أتى صوت صمت مُطبق. ثم قال رينسوينا بنبرة اتهامية: «كان كلامك مجرد مزاح».

- ظننتُ أن كلامي واضح وضوح الشمس.
نخر رينسوينا.

قال توفلاور: «أعتقد أنك لا تستطيع إجراء بعض السحر...».

- لا.

- مجرد فكرة عابرة.
أتى من الأسفل وهج ضوء، وصراخ مُرتبك ثم المزيد من الأضواء، والمزيد من الصراخ وصف من المشاعل يبدأ في تسلق الدرج اللولبي الطويل.

قال توفلاور الحريص دومًا على الإخبار بالحقائق: «ثمّة أناس يصعدون الدرج».

- أتمنى أنهم يأتون جريًا فقد فقدت إحساسي بذراعي.

- أنت محظوظ، يمكنني الشعور بذراعي.

توقف المشعل الذي في الطليعة عن الصعود ودوى صوت ما، فملأ البرج الخاوي بأصداً أصوات غير قابلة للتفسير.

قال توفلاور الذي أدرك أنه راح ينزلق شيئًا فشيئًا فوق الفتحة: «أظن أن هذا أحدهم يخبرنا بالتشبث».

نطق رينسوينا بكلمة أخرى، ثم قال بنبرة أخفض وأكثر إلحاحًا: «في الواقع لا أعتقد أنه يمكنني التشبث لأطول من هذا».

- حاول.

- لا جدوى من الأمر، بوسعي الشعور بيدي تنزلق!

تنهّد توفلاور. فقد كانت لحظة إجراء الحسابات الحرجة: «حسنًا إذن. فلتسقط. ولتتنظر أكنتُ أهتمُّ لهذا».

قال رينسويند متعجبًا: «ماذا؟»، وأصابه الذهول حتى إنه نسي أن يفلت يده.

- هيا، مُت. افعل الأمر بالطريقة السهلة.

- سهلة؟

- كل ما عليك فعله هو أن تهبط سريعًا مطلقًا صرخة مدوية في الهواء وتكسر كل عظمة في جسدك. أمر بوسع الجميع فعله. هيا. لا أريدك أن تعتقد أنه عليك الحفاظ على حياتك لأننا نحتاج إليك حتى تقول التعويذة وتنقذ القرص. أوه، لا. من يهتم بنا لو أننا احترقنا حتى الموت؟ هيا، فكر في ذاتك فحسب. اسقط.

حلّ صمت طويل ينمُّ عن الإحراج.

في نهاية المطاف قال رينسويند بصوت أعلى من اللازم: «لا أعرف لم، لكن منذ أن التقيتك يبدو أنني أقضي الكثير من الوقت مُعلقًا في الهواء من أصابعي فوق أعماق بعيدة، ألم تلاحظ هذا؟».

قال توفلاور مُصححًا: «الموت».

- أيُّ موت؟

قال توفلاور موضحًا: «موت ما بعينه»، وحاول التغاضي عن الانزلاق البطيء والمتواصل لجسده على حصى الأرضية التي كان يستلقي عليها. وأردف: «أن تكون مُعلقًا فوق نوع من الموت بعينه. وأنت تهاب المرتفعات».

قال صوت رينسويند من قلب الظلام: «لا أعبأ بالمرتفعات، فبمقدوري التعايش مع المرتفعات. إنما هي الأعماق ما تشغل انتباهي في اللحظة الآنية. هل تعلم ما الذي سأفعله عندما أخرج من هنا؟».

أجابه توفلاور: «لا»، وراح يُثبّت أصابع قدميه في فجوة في حجر الأرضية وحاول تثبيت نفسه بفعل قوة الإرادة المطلقة.

- سأشيّد منزلاً في أكثر بلد مُسطح يمكنني العثور عليه، وسيكون به طابق أرضي فحسب ولن أرتدي صندلاً له نعل سميك...

وَصَلَ المِشْعَلُ الَّذِي فِي الطَّلِيعَةِ عِنْدَ آخِرِ مَنْعُطِ فِي الدَّرَجِ اللُّوْلُبِيِّ وَخَفَضَ توفلاورَ بصره ليجد وجه كوهين المبتسم. ومن خلف كوهين، أمكنه رؤية الكتلة المُطمئنة للمتاع وهو لا يزال يقفز على الأحجار بطريقة خرقاء.

سألها كوهين: «هل كل شيء على ما يُرام؟ هل يمكنني أن أقدم لكما أي شيء؟».

أخذ رينسويند نفساً عميقاً.

فهم توفلاور ما تدل عليه حاله رينسويند. فقد كان على وشك أن يقول شيئاً من قبيل، 'أجل، أعاني حِجَّةً في قفائي، ألا يمكنك هَرَشْها، هلا فعلت، وأنت في طريقك نحونا؟' أو 'لا، فأنا أستمتع بالتدلي من فوق منحدرات لا قرار لها' وقد خَلَصَ إلى أنه ربما لا يمكنه تحمل هذا. فأسرع بالحديث.

فقال مسرعاً: «اسحب رينسويند إلى الدَّرَجِ مرة أخرى». فاعترى رينسويند شعور بالإحباط في منتصف زمجرته.

أمسكه كوهين من حول خصره وسحبه من توه على الأحجار.

وقال بنبرة ودية: «توجد فوضى عارمة في الطابق الأسفل هناك، مَنْ سَبَّبَ هذا؟».

ابتلع رينسويند ريقه، وقال: «هل هي... هل لها، هل تعرف المجسات والأشياء؟».

قال كوهين: «لا، مجرد فتات عادي. منتشرة بعض الشيء بلا شك». نظر رينسويند إلى توفلاور، الذي بدوره هَزَّ رأسه نافيًا، وقال: «مجرد ساحر ترك الأشياء تغلبه».

وبينما يترنح وذراعه تصرخان عليه من الألم، ترك رينسويند أحدهم ينقذه ويعيده إلى سطح البرج.

- كيف وصلت إلى هنا؟

أشار كوهين إلى المتاع، الذي مشى مُخَبَّبَ الخُطى إلى توفلاور وفتح غطاءه مثل كلب يعرف أنه أساء التصرف ويأمل أن استعراضًا عاطفيًا سريعًا قد يعفيه من العقاب.

فقال في إعجاب: «منتفخ لكنك سريع. في رأيي، لا ينبغي لأحد أن يحاول إيقافك».

نظر رينسويند عاليًا إلى السماء. كانت السماء ولا شك مليئة بالأقمار، أقراص كبيرة مليئة بالحفر والفوهات إلى قد غدت الآن أكبر بعشر مرات من القمير التابع للقمر. ونظر إليها بلا اكتراث. وشعر بالتعب الشديد والضغط إلى أبعد الحدود، كأنه هش ضعيف كمطاط عفاه الزمان.

لاحظ أن توفلاور كان يحاول إعداد صندوق الصور.

كان كوهين ينظر إلى السحرة السبعة الكبار: «مكان ظريف لوضع التماثيل حيث لا يمكن لأحد رؤيتهم. لو تعلمون من رأيي أنها ليست لها أهمية كبيرة. عملٌ ضعيفٌ جدًّا».

مشى رينسويند إلى التماثيل مترنحاً ونقر على صدر ويرت في حذر شديد. فوجده صلباً كالحجارة.

وقال في نفسه: انتهى الأمر. أريد فحسب أن أعود إلى الديار.

تريث. أنا في الديار فعلاً. تقريباً. إذن، كل ما أريده هو قسط كافٍ من النوم، وربما سيضحى الأمر كله أفضل في الصباح.

ووقع نظره على الأوكتافو الذي حفَّ أطرافه وميض بسيط من نار الأوكتارين. قال في نفسه: أوه أجل.

فالتقطه وقلب بين صفحاته بلا اهتمام. وكانت صفحاته سميكة بفعل الكتابة المعقدة والمُلتفَّة التي راحت تتغير وتتشكل من جديد حتى وهو ينظر إليها. وبدا أن الكتابة حارت في ما يجب أن تكون عليه؛ فتارة كانت طباعة منظمة حقيقية؛ وتارة مجموعة من الأحرف الرونية ذات الزوايا. ثم تارة نص تعويذة كيثية⁽¹⁾ كتابتها مُلتفة. ثم تارة تكون صوراً توضيحية بكتابة ما قديمة مهجورة تُنذر بالشر والتي بدت أنها تتألف حصرياً من الكائنات الزاحفة البغيضة التي تؤدي بعضها بطريقة مؤلمة ومعقدة...

كانت الصفحة الأخيرة فارغة. زَفَر رينسويند ونظر في الجزء الخلفي من عقله. فبادلته التعويذة النظر.

لطالما حَلُم بهذه اللحظة، كيف أنه سيطرد التعويذة ويستولي على الحياة الشاغرة في رأسه ويتعلم كل تلك التعاويذ الأقل رتبة التي كان يخشى قولها قبل ذلك في عقله. وبشكل ما توقع أن يكون الأمر فائق الإثارة.

(1) مشتقة من كاثيا البلد الذي على شكل شبه جزيرة في عالم القرص. (المترجمة)

وبدلاً من هذا، وفي إرهاب تام ومزاج لا يسمح بأي جدال، حدّق ببرود إلى التعويذة وضرب بإبهام مجازية على كتفه.
أنتِ. اخرجي.

لوهلة بدا أن التعويذة ستُجادل، لكنها فكرت بحكمة في عدم جدوى الأمر.

سرى في جسده إحساس بالوخز ووميض أزرق وراء عينيه وشعور مبالغت بالخواء.

ولما نظر إلى الصفحات كانت مليئة بالكلمات. وجد أنها قد غدت حروفاً رونية مجدداً. لقد كان سعيداً بهذا، ولم تكن صور الزواحف مروّعة ومخيفة فحسب، بل لا يمكن نطقها كذلك، وذكّرته بأمور سيعاني صعوبة كبيرة في نسيانها.

نظر بوجه مذهول على الكتاب، في حين يذرع توفلاور المكان جيئة وذهاباً بلا أي هدف واضح، وحاول كوهين خلع الخواتم عن السحرة المتحجرين لكنه لم يفلح.

ذكّر نفسه أن عليه فعل شيء ما، فماذا كان، في هذه اللحظة؟

فتح الكتاب عند صفحته الأولى وأخذ يقرأ منه، وراحت شفقاته تتحركان وسبابته تتبع شكل كل حرف. وبينما يتمتم بكل حرف، كان الحرف يظهر بصورته دون صوت إلى جانبه في الهواء بألوان زاهية طافت بعيداً في الهواء.

قلّب الصفحة.

كان الناس الآخرون يصعدون الدّرج الآن؛ قوم النجم والمواطنون وحتى بعض الحراس الشخصيين للأرستقراطي. وحاول بضع أشخاص من قوم النجم محاولةً فائرةً كي يقتربوا من رينسوينا الذي كان محاطاً

الآن بدوامة من الأحرف متعددة الألوان ولم ينتبه لهم على الإطلاق، لكن كوهين قد استلَّ سيفه ونظر إليهم بلامبالاة فبدلوا رأيهم لأنه لا فائدة مرجوة من الأمر.

انتشر الصمت بدايةً من عند هيئة رينسويند المنحنية مثل تموجات في بركة صغيرة. وتابع نزوله إلى أسفل البرج وانتشر خارجه إلى الحشد السائر بالأسفل وفاض على الجدران واندفع والظلام يلفه بين جنبات المدينة، وغمر الأراضي التي تتراعى بعد حدودها.

لاحت كتلة النجم في صمت وسكون في أفق القرص. وفي السماء التي حوله، دارت الأقمار الجديدة ببطء وبلا أي صوت.

كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت همس رينسويند المبحوح وهو يقلب صفحةً تلو الأخرى.

قال توفلاور: «أليس هذا مُشوِّقًا!». نظر إليه كوهين، الذي كان يلفُ سيجارة من بقايا قطران السجائر السابقة، وكان وجهه يخلو من أي تعبير والسيجارة الملفوفة في طريقها إلى شفثيه.

وسأله: «أليس مانا مُشوِّقًا؟».

- كل هذا السحر!

فقال كوهين بنبرة نقد لاذعة: «إنها مجرد أضواء، هو حتى لم يُخرج الحَمَام من كَمَّيه».

قال توفلاور: «أجل، لكن ألا تشعر باحتمالية وجود جو غرائبي سحري؟».

أخرج كوهين عودَ ثقاب كبير أصفر من مكان ما في حقيبة التبغ خاصته، ونظر إلى ويرت وهلةً وضرب عود الثقاب على أنفه الأحفوري المتحجر متعمدًا.

وقال لتوفلاور بحنوً بالغ قدر ما استطاع: «انظر، ما الذي تتوقعه؟ لقد عشتُ ردحًا طويلًا من الزمان، لقد رأيتُ أمورَ السحر كلها، ويمكنني أن أخبرك أنك لو عشتَ وتجولتَ فاغراً فاك من فرط الدهول طوال الوقت، فإن الناس ستضرب فمك وتذهب بذهولك. وعلى كل حال، تسري المنية على السحرة كما تسري على أي أحد آخر عندما تلتصق...».

أتى صوت إغلاق عالٍ فيما يغلق رينسويند الكتاب. ووقف ونظر حوله.

فما حدث تاليًا كان هذا.

لا شيء.

واستغرق الأمر هنيهة حتى يستوعب الناس الأمر. فقد خفض الجميع رؤوسهم تلقائيًا، متأهبين لانفجار أبيض الضوء أو كرة النار الوامضة، أو في حالة كوهين الذي تبني توقعات منخفضة، بضع حمامات بيضاء أو ربما أرنب مجعد الشكل.

ولم يكن هذا اللا شيء مُشوِّقًا حتى. ففي بعض الآونة تُخفي الأشياء في حدوثها بطرق مذهلة جدًّا، لكن لما كان انعدام وقوع الأحداث موجود، فإن هذا لا يختلف عنه كثيرًا.

قال كوهين: «أهذا هو كل ما في الأمر؟». وعلتُ همهمة من الحشد، وأخذ جماعة من قوم النجم ينظرون غاضبين إلى رينسويند.

حملق الساحر إلى كوهين بعينين مُغَبَّشتين، وقال: «أظن ذلك».

- لكن شيئًا لم يحدث.

نظر رينسويند إلى الأوكتافو والصدمة تعلو وجهه، وسأل مؤملاً: «ربما له تأثير دقيق خفي، على كلِّ، لا نعلم على وجه التحديد ما يجب أن يحدث».

صاح واحد من قوم النجم قائلاً: «لقد عرفنا هذا! السحر لا يفلح! إن الأمر كله مجرد وهم!».

دارت حجرة على السطح ثم ضربت رينسوينا في كتفه.

قال شخص آخر من قوم النجم: «أجل، لنقبض عليه!».

- لنرمه من البرج!

- أجل، لنقبض عليه ثم نرمه من البرج!

اندفع الحشد إلى الأمام، فرفع رينسوينا يديه، وقال: «أنا واثق من وجود خطأ طفيف...»، وذلك قبل أن يركل أحدهم ساقه من تحته.

قال كوهين: «أوه أيها الأحمق»، وألقى بعقب سيارته تحت قدمه التي يرتدي فيها صندله. واستل سيفه وجال بنظره في ما حوله باحثاً عن المتاع.

لم يهرع المتاع لمعاونة توفلاور، بل وقف أمام رينسوينا الذي كان يمسك بالأوكتافو ضاماً إياه إلى صدره مثل زجاجة مياه ساخنة ويبدو عليه الفزع.

اندفع رجل من قوم النجم نحوه. فرفع المتاع غطاءه منذراً مهدداً. قال صوت من آخر الحشد: «أعرف علة عدم نجاح الأمر». كانت بيتان. فقال أقرب مواطن إليها: «حقاً؟ ولم نصغي إليك؟».

في لمحة عين في ما بعد، كان سيف كوهين موضوعاً على عنقه. قال الرجل بنبرة فاترة: «من ناحية أخرى، ربما علينا أن نغير انتباهنا إلى ما قد تقوله هذه السيدة».

بينما يستدير كوهين بتأنٍ رافعاً سيفه في وضعية التأهب، تقدمت بيتان إلى الأمام وأشارت إلى الأشكال التي تدور في شكل الدوامات

الخاصة بالتعاون، والتي كانت لا تزال عالقة في الهواء من حول رينسوينا.

قالت مُشيرةً إلى البقعة الضبابية ذات اللون البني المتسخ الموجودة بين التوهجات فاقعة اللون النابضة: «تلك الواحدة غير صحيحة، لا بدُّ أنك قد أخطأتَ نطق كلمة ما. لنرَ».

فمرَّ لها رينسوينا الأوكتافو دون أن ينبس ببنت شفة.

فتحتُ بيثان الكتاب وأنعمت النظر في الصفحات.

قالت: «يا لها من كتابة مُضحكة، إنها تتغير باستمرار. ما الذي يفعله ذلك التمساح بالأخطبوط؟».

نظر رينسوينا من فوق كتفها وبلا تفكير أخبرها. فلاذت بالصمت لوهلة.

ثم قالت بنبرة فاترة: «أوه، لم أعلم أن التماسيح قد تفعل هذا».

فردَّ رينسوينا سريعاً: «إنها مجرد كتابة صورية قديمة. ستتغير الكتابة لو انتظرتِ. فالتعويذة تظهر بكل لغة معروفة».

- أتتذكر ما قلته لَمَّا ظهر اللون الخاطيء؟

مرَّ رينسوينا إصبعه أسفل الصفحة.

- هناك حسب ظني. حيث تفعل السحلية ذات الرأسين أيّما يكون ما تفعله.

جاء توفلاور عند كتفها الأخرى. فتسللتِ التعويذة إلى نص كتابي آخر.

فقالت بيثان: «لا يمكنني حتى نطقها. خربشة، خربشة، نقطة، شرطة».

قال رينسوينا: «إنها أحرف الكوبوموجوك الرونية الثلجية. أظن أنها تُنطق 'زف'».

- لم تفلح على الرغم من هذا، ماذا عن 'سف'؟
نظرًا إلى الكلمة. فبقيت بكل عناد بلا لون.
قالت بيثان: «أو 'سفف'؟».

فقال رينسويند والشك يُخالطه: «قد تكون 'تسفف'». وبالعكس
أضحى اللون بنيًا بدرجة أكثر اتساخًا.
فاقترح توفلاور: «ماذا عن 'زسفف'؟».
قال رينسويند: «لا تكن سخيًّا، ففي الأحرف الرونية الثلجية يكون
ال...».

لكزته بيثان برسغها في بطنه وأشارت له.
أضحى الشكل البني الكائن في الهواء أحمرَ باهتًا في هذه اللحظة.
ارتجف الكتاب بين يديها، فأمسك بها رينسويند من خصرها، وجذب
توفلاور سريعًا من ياقته، ثم قفز إلى الخلف.
اختلت قبضة بيثان على الأوكتافو الذي سقط تجاه الأرض. لكنه لم
يصل إليها.

توهج الهواء المحيط بالأوكتافو. وارتفع الكتاب ببطء مرفرفًا
بصفحاته وكأنها جناحا طير.
ثم تهادى صوت رنين حلو حزين وبدا أنه سينفجر في شكل زهرة
من الضوء صامته معقدة واندفعت إلى الخارج وتلاشت ثم اختفت.
لكنَّ شيئًا ما كان يحدث على بُعد عالٍ في السماء.

في أسفل الأعماق الجغرافية للدماغ الضخم لآتوين العظيم، انبثقت أفكارٌ جديدة على طول المسارات العصبية التي بطول طرق رئيسية. واستحال على غَيلم سماوي أن يُغيّر وصفه، لكن بصورة غير قابلة للوصف بدا وجهه الحرشفي الذي خلفت الشُّهب فيه ثقبًا موافقًا للتوقعات تمامًا.

أخذ الغَيلم يُحدِّق بثبات إلى الكرات الثمانية التي تدور بلا توقف حول النجم الواقع على شواطئ الفضاء. كانت الكرات تتشقق.

وانفصلت عنها قطع كبيرة من الصخر وبدأت طريقها اللولبيّ الطويل إلى الأسفل نحو النجم. وترصعت السماء بشظايا لامعة.

من حُطام صَدَفة خاوية قطعُت سلحفاة سماوية صغيرة جدًّا طريقها إلى الضوء الأحمر. كانت السلحفاة بالكاد أكبر من المُدَنَّب بقليل، ولا تزال صَدَفتها لامعة بفعل المُحِ الذائب.

كان هنالك أربعة عجول فيلة صغيرة من فيلة العالم كذلك. وكان على ظهورهم عالم قرص، صغير للغاية حتى الآن، وتغطيه الأدخنة والبراكين.

تمهّل آتوين العظيم حتى حررت السلاحف الصغيرة الثمانية كافة نفسها من قشرة البيض وراحت تقطع طريقها في الفضاء والذهول والحيرة يظهران عليها. ثم استدار الغَيلم القديم بحرص حتى لا يُزعزع شيئاً عن مكانه وانطلق والراحة تغمره في طفوه طويل الأمد في أعماق الفضاء الباردة التي لا قرارَ لها حيث ينعم فيها بالسلام.

وتبعته السلاحف الصغيرة وهي تدور حول الغَيلم.

حدَّق توفلاور والسعادة تتملكه إلى العرض الحاصل من فوق رأسه. فهو على الأرجح يحظى بأفضل مشهد عن أي أحد آخر على سطح القرص.

ثم خَطرتُ له فكرة مرّوعة.

فسأل في إلحاح: «أين صندوق الصور؟».

قال رينسويند دون أن يحول عينيه عن السماء: «ماذا؟».

قال توفلاور: «صندوق الصور، لا بدّ لي من أن آخذ صورة لهذا!».

سألته بيثان دون أن تلتفت إليه: «ألا يمكنك أن تتذكرها فحسب؟».

- ربما أنسى.

- لن أنسى أبدًا، فهذا أجمل شيء رأته عيناى.

وافقهم كوهين الرأى قائلاً: «أفضل بكثير من الحمامات وكرات البلياردو. سأقرُّ لك بهذا يا رينسويند. ما الطريقة التي يحصل بها الأمر؟».

- لا أعلم.

قالت بيثان: «يَصغُرُ حجم النجم».

كان رينسويند مدرّكًا بطريقة مبهمة صوت توفلاور وهو يتجادل مع العفريت القاطن في الصندوق ويرسم الصور. كان جدًّا فنيًّا تمامًا بخصوص عمق الميدان وإذا ما كان العفريت لا يزال لديه ما يكفي من الطلاء الأحمر.

تَجدر الإشارة إلى أن أتوين العظيم تملكته حالة من السعادة والرضا، ولزامًا على شعور من تلك الشاكلة في دماغ بحجم مُدنٍ كبيرة عدّة أن تشعّ وتنتشر. وفي الواقع كان معظم أهل القرص حاليًّا في حالة عقلية

لا تتحقق في العادة إلا بتأمل مُكْرَس مدى الحياة أو أن يكونوا تحت تأثير أعشاب غير قانونية لمدة ثلاثين ثانية.

فكر رينسويند: لقد عاد توفلاور إلى سابق حاله. والأمر لا يكمن في أنه غير مُقدر للجمال، بل إنه يُقدِّره بطريقته الخاصة. أعني لو أن شاعرًا رأى زهرة نرجس برية لحدق إليها وراح يكتب فيها شعراً، أما توفلاور فسينطلق باحثاً عن كتاب عن علم النبات. ثم بعدها يطأها بقدمه. فصدق كوهين حين قال إن توفلاور ينظر إلى الأشياء فحسب، لكنَّ الشيء الذي ينظر إليه لا يعود كما هو مجدداً. من بينها أنا، حسبما أظن.

أشرقت شمس القرص وكان النجم يتلاشى وينزوي فعلاً، كان الأمر بمنزلة منافسة بين شروق الشمس وأقول النجم. وانصبَّ ضوء القرص الكافي المُنير خلال الأفق المسحور، مثل بحر من الذهب. أو كالشراب الذهبي، كما ستراه عين الرائي الحصيف عامة.

تلك نهاية درامية لطيفة، لكنَّ الحياة لا تجري على هذا المنوال وكان لا بُدَّ من حدوث أمورٍ أخرى.

كان هنالك الأوكتافو، على سبيل المثال.

لما ضرب الضوء الكتاب، انغلق الكتاب بقوة وراح يسقط رجوعاً إلى البرج مرة أخرى. وأدرك الناظرون أن السقوط تجاههم كان الشيء الوحيد السحري الأكثر إبهاراً على سطح القرص.

وقد تبخَّر الشعور بالسعادة والهناء والأخوية مع قطرات ندى الصباح. ونُحِّي رينسويند وتوفلاور جانباً فيما يتدافع الحشد إلى الأمام، محاولين الصعود فوق بعضهم وهم يمدون أيديهم.

سقط الأوكتافو في قلب الجَمع الذي ارتفع صوته بالهتاف. وسُمِع صوت انغلاق سريع قوي. كان صوت انغلاق حاسم من ذاك النوع الذي يصدر عن غطاء لا يعتزم أن ينفتح في عُجالة.

نَظَر رينسويند من بين ساقِي أحدهم إلى توفلاور.

وقال والابتسامة ترتسم على وجهه: «أتعرف الشيء الذي أعتقد أنه سيحدث؟».

- ماذا؟

- أظن أنه لما تفتح المتاع ستجد غسيلك هناك فحسب، هذا ظني.

- أوه، يا إلهي.

- أظن أن الأوكتافو يعرف كيف يعتني بنفسه. فالمتاع أفضل مكان له في الواقع.

- أظن ذلك أيضًا. لذا أتعلم في بعض الأحيان يخالجني شعور بأن المتاع يعرف ما يفعله بالتحديد.

- أعرف ما ترمي إليه.

زحفا إلى حافة الجَمع السائر ثم وقفًا ونفضًا الغبار عنهما وتوجها إلى الدرج. فلم يعرهما أحد أيَّ انتباه.

سأل توفلاور محاولاً رؤية ما يجري من فوق رؤوس الحشد: «ما الذي يفعلونه الآن؟».

قال رينسويند: «يبدو أنهم يحاولون فتحه بالعتلة».

أتى صوت انغلاق سريع وصرخة.

قال توفلاور فيما يشرعان في النزول متوخي الحذر: «أظن أن المتاع يستمتع بالاهتمام الموجه نحوه بدلاً من الانزعاج من الأمر».

قال رينسويند: «أجل، على الأرجح من الجيد له الخروج ومقابلة الأشخاص. والآن أظن أنه من الجيد لي الخروج وطلب بضع كؤوس من الشراب».

قال توفلاور: «فكرة سديدة، سأحظى ببضع كؤوس من الشراب كذلك».

كان الوقت يقترب من الظهيرة لَمَّا استيقظ توفلاور من رقدته. ولم يستطع تذكر سبب وجوده في مخزن التبغ، أو لم يرتدي معطف شخص آخر، لكنه استيقظ وفي رأسه فكرة واحدة تستولى على عقله تمامًا.

وقد قرر أنه من الأهمية بمكان أن يخبر رينسويند بها.

فقفز من على التبغ وهبط على المتاع.

وقال للمتاع: «أوه، أنت، هنا، أليس كذلك؟ أمل أن تكون خجلًا من نفسك».

بدا على المتاع الدهول.

فقال توفلاور: «على أي حال أريد أن أمشط شعري. افتح غطاءك».

ففتح المتاع غطاءه تكرمًا. راح توفلاور يفتش ويقلب بين الحقائق والصناديق التي وجد بداخلها مشطًا ومرآة وأصلح بعض ما أفسدته الليلة الماضية. ثم نظر بحدة إلى المتاع.

- أظن أنه لا رغبة لك في أن تخبرني بما فعلته بالأوكتافو؟

ليس ثمة وصف يرد لوصف انطباع المتاع إلا أنه خشبي أخرق.

- حسنًا، هيأ إذن.

خطا توفلاور إلى الخارج تحت ضوء الشمس التي كانت ساطعة بدرجة لا تتناسب مع مزاجه في الوقت الحالي، وراحا يتجولان في الشوارع بلا وجهة. وبدا كل شيء منعشًا وجديدًا، حتى الروائح. لكن لم يبدُ أن العديد من الناس قد استيقظوا بعد. لقد كانت ليلة طويلة.

وقد وجد رينسوينا عند قاعدة برج الفنون، مشرفًا على فريق من العمال الذين تَبَّتُوا جسر رافعة من نوع ما وكانوا يعملون على إنزال السحرة المتحجّرين إلى الأرض. وبدا أن قردًا ما يقدم له العون، غير أن توفلاور لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بالذهول جراء رؤية أي شيء. سأل توفلاور: «هل سيكونون قادرين على العودة إلى طبيعتهم مرة أخرى؟».

نظر رينسوينا في ما حوله، وقال: «ماذا؟ أوه، إنه أنت. لا، على الأرجح لا. أخشى أنهم قد أسقطوا ويرت الشيخ المسكين، على أي حال. من على بُعد مئة واثنين وخمسين مترًا على حجارة الرصيف».

- هل بوسعك فعل أي شيء حيال الأمر؟

قال رينسوينا: «صناعة حديقة من الصخور». والتفت ولوّح إلى العمال.

قال توفلاور بنبرة موبخة نوعًا ما: «أنت ظريف للغاية. ألم تأو إلى الفراش؟».

قال رينسوينا: «يا له من أمر ظريف، لقد جافاني النوم. فخرجت طالبًا هواءً منعشًا، وبدا أن الجميع لم تكن لديهم أدنى فكرة عما يفعلونه، لذا فقد جمعتُ شملهم ونظمتهم». وأشار إلى أمين المكتبة الذي حاول الإمساك بيده. وأردف: «وشرعنا في ترتيب الأشياء. يوم جميل، أليس كذلك؟ الهواء له عبق كعبق الخمر».

- لقد قررتُ يا رينسوينا أن...

قال رينسوينا مبتهجًا: «أتعرف، أفكر في احتمالية الالتحاق بالجامعة مرة أخرى، أظن أنه يمكنني أن أنجح هذه المرة. يمكنني تخيل نفسي وأنا أستطيع التعامل مع السحر والتخرج تخرجًا لائقًا. يقولون لو تخرج المرء بأعلى درجات الامتياز، فسيطيب عيشه ويتيسر...».

- جيد، لأن...

- ثمة فرصٌ شاغرة كبيرة للنجاح، كذلك. وذلك بعد أن غدا كبار السحرة مجرد تماثيل توضع أمام الأبواب، وكذلك...
- أنا عائدٌ إلى ديارِي.

- ...شاب سريع البديهة له خبرة بأحوال العالم يمكنه... ماذا؟

- أووك؟

أعاد توفلاورُ كلامه: «لقد قلتُ إنني عائدٌ إلى ديارِي»، وحاول بأدب التفلُّت من قبضة أمين المكتبة الذي كان يحاول تفلّيته من القمل.
سأله رينسوينا وأمارات الدهول باديةً عليه: «أئيُّ ديارٍ؟».

قال توفلاورُ موضِّحًا على استحياء: «الديار، الديار. ديارِي. موطني، عائدٌ راكبًا البحر. كما تعلم. من حيث أتيت. هلا توقفتَ عن فعل هذا رجاءً؟».

- أوه.

- أووك؟

حانت سكتة قصيرة، ثم قال توفلاورُ: «أتعلم، لقد حَطر لي ليلة أمس، ففكرتُ حسنًا، كل ما في الأمر أن، كل مغامرات السفر ورؤية الأشياء هذه لا بأس بها لكن ثمة الكثير من المتعة في كون المرء قد زار مكانًا ما ذات مرة. أتعلم، أن تضع كل صورك في ألبوم وتتذكر الأشياء».

- أئمة شيء مثل هذا؟

- أووك؟

- أوه، أجل. إن أهمية وجود الكثير من الأشياء ليتذكرها المرء هي أن عليه أن يرتحل إلى مكان ما بعد ذلك حيث يتسنى له تذكر تلك الأشياء، أتفهم؟ على المرء التوقف. فلن يكون قد زار أي مكان إلا بعودته إلى دياره ليقول إني كنت هناك. أظن أن هذا ما أقصده.

فكر رينسوينا في العبارة. لكن لم يبدو أنه فهمها فهمًا أفضل عندما فعل ذلك للمرة الثانية.

كرر القول: «أوه. حسنًا، جيد. إن كانت هذه طريقتك في النظر إلى الأمر. إذن، متى أنت راحل؟».

- اليوم، حسب ظني. ربما توجد سفينة مبحرة حتى منتصف الطريق.

قال رينسوينا بطريقة خرقاء: «أظن ذلك». ثم نظر إلى قدميه. ورفع بصره إلى السماء. ثم تنحنح.

قال توفلاور ونكزه نكرة خفيفة في ضلوعه: «لقد قضينا بعض الوقت معًا، أليس كذلك؟».

أجابه رينسوينا وهو يلوي وجهه ليبدو أنه يبتسم: «أجل».

- أنت لست مستاءً، أليس كذلك؟

قال رينسوينا: «من، أنا؟ رباه، لا. لديّ مئة شيء وشيء لأفعله».

- لا بأس إذن. اسمع، لنذهب ونتناول فطورنا ثم بعدها نذهب إلى المرسى».

أوما رينسوينا والكآبة تخيم عليه، والتفت إلى مساعده وأخرج موزة من جيبه، وتمتم: «لقد علمت كيف تجرى الأمور الآن، فتولّ زمامها».

في الواقع لم تكن ثمة سفينة تُبحر إلى أي مكان قرب إمبراطورية العقيق⁽¹⁾، لكنْ كان هذا موضع جدل لأن توفلاور عدَّ ببساطة قطع النقود الذهبية ووضعها في يد أول قبطان يقود سفينة خزانات نَقْط توصله إلى منتصف الطريق إلى أن أبصر الرجلُ المزايا التي ستعود عليه من تغيير خطه.

انتظر رينسويند على رصيف الميناء إلى أن انتهى توفلاور من دفع النقود للرجل بما يقرب من أربعين ضعفاً لما تساويه سفينته. قال توفلاور: «لقد سوينا أمر هذا، إذن. سيُنزلني عند الجُزر البنية، حينها بمقدوري أن أستقل سفينة من هناك».

- رائع.

بدا لوهلة أن توفلاور قد استغرق في التفكير، ثم بعدها فتح المتاع وسحب كيساً من الذهب.

- هل أريت كوهين وبيثان؟

- أظنهما غادرا من أجل الزواج، فقد سمعتُ بيثان تقول إنه إما الآن وإما لا.

قال توفلاور: «حسناً، عندما تراهما أعطهما هذا»، وناوله كيس الذهب، واستطرد: «أعرف أن أمر تجهيز منزل لأول مرة مُكلف وباهظ جداً».

(1) موطن توفلاور وتشتهر بكثرة الذهب ورخصه. (المرجمة)

لم يستوعبْ توفلاورَ تمامًا الفرق الشاسع بين سعر الصرف. إذ إن كيس الذهب قد يُهيئ لكوهين بكل بساطة مملكة صغيرة.

- سأسلمه لهما في أول فرصة تتسنى لي.

ومما أثار ذهوله إدراكه أنه يعني ذلك.

- جيد، لقد فكرتُ في ما أقدمه لك، أيضًا.

- أوه، لا حاجة...

راح توفلاورَ يبحث ويقلب في المتاع فأخرج جُوالًا كبيرًا وأخذ يضع فيه الملابس والأموال وصندوق الصور إلى أن فرغ المتاع تمامًا في نهاية الأمر. وكان آخر شيء وضعه في الجوال هو تذكّار علبة السجائر الموسيقية ذات الغطاء المغطى بالصّدَف التي كانت ملفوفة في ورق ناعم رقيق.

قال وهو يغلق غطاء المتاع: «كُلّه لك. فلا حاجة إليّ به بعد الآن، ولن تسعه خزانتي على أي حال».

- ماذا؟

- ألا تريده؟

- حسنًا، أنا. طبعًا، لكنه ملكك ويتبعك أنت، وليس أنا.

- أيها المتاع، هذا رينسوينا. أنت ملك له، متفقين؟

مدّ المتاع سيقانه واستدار عن قصد ونظر إلى رينسوينا.

- لا أظنُّ أنه ينتمي إلى أحد إلا لنفسه في الحقيقة.

فقال رينسوينا متشككًا: «أجل».

- حسنًا، لقد انتهينا إذن. ثم مدّ يده.

- وداعًا يا رينسويند، سأبعث إليك بطاقة تذكارية بعودتي إلى الديار، أو شيئًا من هذا القبيل.

- طبعًا، في أي وقت تمرُّ فيه، لا شكَّ أن هنالك شخصًا ما يعرف أين أكون.

- طبعًا، حسنا. هذا مُنتهى الأمر إذن.

- هذا مُنتهى الأمر ولا ريب.

- صحيح.

- أجل.

صعد توفلاور سلم السفينة الذي رفعه طاقمُ السفينة نافدو الصبر من بعده.

بدأ طبل التجديف قرعه وشقَّت السفينة طريقها في عُباب مياه نهر عنخ العكرة، التي قد عادت الآن إلى منسوبها المعهود، حيث تلتقي موجة المد ثم تتحول تجاه البحر الشاسع.

راقب رينسويند السفينة إلى أن صارت نقطة في الأفق. ثم خفض بصره إلى المتاع، فحدَّق إليه المتاع بدوره: «انظر، اذهب بعيدًا. أنا أعتقك، هل تفهم؟».

وأدار له ظهره وراح يمشي بخيلاء. وبعد لحظات أدرك صوت وقع الخطوات من خلفه، فاستدار، وقال غاضبًا: «لقد قلتُ إنني لا أريدك!»، ثم ركله.

فانزوى المتاع على ذاته. وراح يمشي رينسويند بخيلاء مجددًا.

بعد أن ابتعد عنه عدة ياردات توقف وأنصت. لم يكن هنالك صوت يُسمع. ولمَّا استدار وجد أن المتاع كان لا يزال في مكانه الذي تركه فيه. بدا المتاع متكورًا على ذاته ما جعل رينسويند يفكر في أمره هنيهةً.

ثم قال: «لا بأس إذن. هيّا تعال».

وأدار ظهره مُيمماً شطر الجامعة. وبعد عدة دقائق بدا أن المتاع يقرر ما سيفعله، إذ مدَّ سيقانه مجدداً ومشى خلفه بخفة. إذ لم يرَ أنه له وفرة من الخيارات ليختار منها.

شقاً طريقهما على طول رصيف الميناء وإلى داخل أسوار المدينة، إذ يراهما الناظر نقطتين في أفق متضائل منزو، وبينما يتسع المشهد، تدخل فيه سفينة ضئيلة تمخر العُباب في بحر أخضر شاسع هو جزء لا يتجزأ من محيط دائري ساطع في قرص تلفه السحب، قائم على ظهر أربعة فيلة عملاقة تقف على صَدفة غيلم ضخم هائل.

وعما قريب قد أضحى مجرد بريق لامع في بحر من النجوم ثم اختفى وتلاشى.

النهاية



telegram @
yasmeenbook

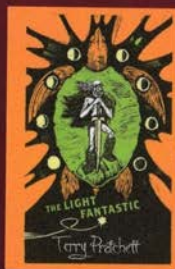


عالم القرص DISCWORLD

— الضوء الباهر —

ليست العتمة نقيض الضوء، بل هي ببساطة غيابه، والذي كان يشع من كتاب الأوكتافو هو الضوء الواقع على الطرف الأبعد من العتمة،
الضوء الباهر...

بمزيج من الخيال والفكاهة، ينطلق بنا السير تيري براتشيت في مغامرة جديدة فيما من غرائب وعجائب عالم السحر برفقة الساحر والسائح، رينسوويند وتوفلاور، بعدما سقطا عن حافة القرص، وبظهور نجم أحمر مشؤوم في السماء، يواجه القرص خطر الاصطدام الحتمي به وفي الوقت نفسه اختفى السحر ولم يعد له مفعول على سطح القرص. فلا سبيل ولا خلاص لأهله إلا بيد آخر شخص، وهنا يقع على عاتق الساحر مهمة إنقاذ موطنه، فهل سينجح في ذلك؟ هل سينجح في التغلب على مشاق مهمته الجديدة برفقة صديقه توفلاور والصندوق العجيب وكوهين البربري؟



غلاف: محمود هشام



- www.aseeralkotb.com
- contact@aseeralkotb.com
- aseeralkotb
- aseeralkotb
- aseeralkotb